دكتور عبد الودود شلبى

موسوعة
أدب الرحلات

ما لا يعرفه المسلمون عن المسلمين فى العالم
النص الكامل لكتاب حول العالم الإسلامى
فى ثلاثين عاما

الجزء الأول

الناشر
مركز الراية للنشر والإعلام

اسم الكتاب : **موسوعة أدب الرحلات**

(جزء أول)

بقلـــم : دكتور/ عبد الودود شلبي .

الطبعة : **الثانية ٢٠٠٤**

الناشر : **مركز الراية للنشر والإعلام**

رقم الإيداع : ٢٩٩٦/ ٢٠٠٢

الترقيم الدولى I.S.B.N. : 977 - 5967 - 63 - 5

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... (٥٣) ﴾ [فصلت]

[صدق الله العظيم]

إلى صاحب تحفة النظار

فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

إلى عمنا الشيخ بن بطوطة

ذلك الرجل الذى فتح أعيننا على عالم من الواقع والسحر والجمال وشوقنا إلى الترحال والسفر من مكان إلى مكان وجعل من دنيا الله الواسعة كتابا (يخلد ذكراه) إلى آخر الزمان..

بسم الله الرحمن الرحيم

حين جمعت متاعى راحلاً عن هذا العالم .

قال الناس : إنا نعرفه جيداً .

ولكن أحداً لم يعرف شيئاً عن هذا المسافر .

من أين جاء وماذا قال ، ومع من تكلم ؟

محمد إقبال

فى .. السفر .. والغربة..!

ما فى المقام لذى عقل وذى أدب	من راحة. فـدع الأوطان.. واغترب
سافر تجد عوضا عمن.. تفارقه	وانصب فإن لذيذ العيش فى التعب[1]
إنى رأيت وقوف الماء يفسـده	إن ساح طاب.. وإن لم يجر لم يطب
والشمس لو وقفت فى الفلك دائمة	لملها الناس.. من عجـم ومن عـرب

(الإمام الشافعى)

(١) المراد: جد واجتهد- يريد الإمام الشافعى أن يقول: إن الحياة لو استمرت على نسق واحد، ووتيرة واحدة لملها العقلاء وضرب على ذلك مثلا بالماء الجارى والماء الراكد. إن فى الماء الجارى شفاء وعافية. بينما يمتلىء الماء الراكد بالجراثيم والميكروبات. وكذلك الشمس. بالرغم من منافعها الكثيرة غير أنها لو ظلت طالعة نهارا وليلا فإن الناس جميعا يملونها.

فسافر وارتحل. إذا استطعت..!

القلم فى يد الرحالة..

مثل الكاميرا التى فى يد المصور..

تسجل الواقع كما هو..

لا كما يراه الباحث أو المحقق..

(جون جنتر)

الرحالة الأمريكى

كلمة الناشر

حقائق أغرب من الخيال

مثلا ستقرأ فى هذا الكتاب.. أن المسلمين هم أول من عرفوا استراليا وأمريكا وقبل أن يعرف الأوروبيون عن هاتين القارتين شيئا.

كما ستفاجأ فى هذا الكتاب أن (جون لاك لاند) ملك بريطانيا أراد اعتناق الإسلام.. ومعه شعب بريطانيا. وأن السفير البريطانى فى الهند انتظر عامين أمام أبواب قصر الملك المسلم كى يسمح له بالمثول بين يدى الملك الذى رفض مقابلة هذا السفير نهائيا..!

وفى (سرى لانكا) سنلتقى بأبينا "آدم" وأمنا "حواء" فى رحلة ابن بطوطة! كما سنلتقى بالزعيم أحمد عرابى.. ومحمود سامى البارودى فى كلية "الزهراء الإسلامية" التى أسسها عرابى فى كولومبو.

أما فى (جزر المالديف) فسنرى كيف انتصر الشيخ "أبو البركات" على "الجنى" وكيف اسلم الشعب والملك على يدى هذا الشيخ.

فى (اندونيسيا) و(ماليزيا) ستفاجأ بشركة اسمها "شركة الأولياء التسعة"! كما سوف تتعرف على شاطئ الغرام على أغرب عملية زواج جماعية فى (كوتابارو) عاصمة ولاية "كلنتان".

فى (الصين) سنلتقى "بأم المسلمين" هناك..؟! كما ستفاجأ بوجود مدينة "مكة المكرمة". فى الصين أيضا..! أما فى (كانتون) على شاطئ نهر اللؤلؤ فسوف نلتقى جميعا فى مسجد "المشتاق" إلى النبى..!!

فى (اليابان) سنتعرف على أشهر داعية مسلم عرفته اليابان فى عام

١٩٠٦ ميلادية وهو الشيخ على الجرجاوى المصرى.. كما سنلتقى مع الشيخ "على" فى مفاجأة أخرى فى "ميناء نابلى" الإيطالى.

فى بلاد (التركستان) سترى العجب. وستقرأ عن نوع من الشياه يعيش على أكل الثلج لا على أكل العشب..!

فى (أمريكا).. يتحدث الكتاب عن صفحات مجهولة من تاريخ الزعيم الزنجى المسلم "مالكولم اكس"، ولماذا قتلته المخابرات علنا فى قلب نيويورك. كما سنلتقى بالدكتور"روبرت كرين". أو فاروق عبد الحق المستشار للرئيس الأمريكى الأسبق "نيكسون" ولماذا فصله "كيسنجر اليهودى" من وظيفته..!.

فى (فرنسا) ستعرف الكثير عن (الكونت دو) الذى أسلم وسنلتقى فى صحراء الجزائر بالكونت "دى كاسترى" الذى تعرف على عظمة الإسلام وشرائعه من البدو الرحل..!

فى (بريطانيا) ستعرف إلى أى مدى انتشر الإسلام فى لندن وكيف ولماذا وضعت تحت المراقبة لمدة اسبوعين من صاحبة البيت الذى كنت أقيم فيه فى "كمبردج".؟!!



انه كتاب يطوف بك حول العالم على جناح قلم.. وهل يخطر ببالك أن ينتقل حى (الباطنية) إلى هولندا..؟ وأن تظهر قبائل (نمنم) فى أمريكا؟!

فى رحلة امتدت إلى أكثر من ثلث قرن.. ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.. رحلة بدأها الكاتب من أفريقيا وانتهى بها فى حى الأزهر والحسين.!!!

الناشــر

* * *

من

القـريـة

إلى

مصـر أم الدنيـا

من القرية إلى مصر[1] أم الدنيا..!

منذ ستين عاما لم تكن أحلام فتى القرية تتجاوز حدود هذه القرية الواقعة بين فرعين من فروع النهر. أو الذهاب إلى (سوق الثلاثاء) لتناول وجبة من الطعمية والسمك فى قرية (سبك)..! أو اللحاق بقافلة الجمال المتهجة إلى (بنها العسل) لبيع القطن..! وأقصى ماكان يتمناه فتى القرية الصغير فى هذا الوقت ركوب تلك الباخرة النيلية الصغيرة التى كانت تنقل المسافرين من القرية إلى (مرسى روض الفرج) الشهير فى مصر.!

أما أن يطوف حول الدنيا؟ ويسافر إلى أبعد مكان فيها أى (استراليا) فقد كان ذلك ضربا من الخيال والوهم، أو نوعا من (الجنون) الذى يتوهم صاحبه الصعود إلى السماء على ضوء القمر أو أشعة الشمس..؟!!!

غير أنى مازلت أذكر.. وبالرغم من مرور كل هذا الزمن.. مازلت أذكر حكايات وقصص الشيخ "رمضان" بائع العنبر فى قريتنا. هذه القصص والحكايات التى كان يطوف بها معنا جميع أنحاء الدنيا.

ففى ليلة صيف مقمرة اكتمل فيها البدر.. وهب فيها النسيم عليلا من جهة النهر.

جلس الشيخ رمضان يحدثنا عن الدنيا المحمولة على قرن ثور..!

وعن بلاد "نمنم" التى يأكل أهلها لحوم البشر..!

وعن بلاد "الواق".. "الواق" التى لايصل إليها الإنسان إلا على جناح طائر ضخم اسمه (الرخ).!

---

(١) كلمة "مصر" كانت تطلق على القاهرة. ولاتزال حتى هذا اليوم. وبخاصة بين القادمين من الريف والصعيد.

لقد اكتشفت ـ فيما بعد ـ أن هذه الحكايات والأساطير لم تكن وقفا على أهل القرية.. أو على الشيخ رمضان ففى شارع "الأدب" وقلة"الأدب" المعروف -حاليا- باسم شارع محمد على! رأيت صورة على غلاف إحدى المجلات التى كانت تصدر فى هذا الشارع.. صورة تمثل الدنيا فعلا كما صورها الشيخ رمضان "محمولة على قرن ثور"... كما كتب تحت هذه الصورة كلاما يؤكد: أن ثورة البراكين ووقوع الزلازل تحدث عندما يحس الثور بالتعب. فينقل الدنيا من قرن إلى قرن.. بسبب هذا الإرهاق والتعب.!!!

فى هذه الأيام لم يكن شارع محمد على خاصا بالغناء والرقص. بل كانت تصدر فيه أشهر مجلات الفن والأدب. بل إن أشهر مجلة إسلامية – فى ذلك العهد – وهى مجلة الإسلام. كانت تطبع فى هذا الشارع على يسار المتجه من العتبة إلى ميدان باب الخلق.

حتى الباطنية..! لم تكن سيئة السمعة كما يعرفها الناس فى هذا الزمن بل كانت سكنى الطلبة والصالحين من شيوخ العلم كما كانت قبلة المريدين والمحبين لسيدى أحمد الدردير الذى يقع مقامه ومسجده قريبا من هذا الحى.

* * *

كنت أظن أن قصص وحكايات الشيخ رمضان قد تلاشت فإذا بى أفاجأ أن فى مدينة (لندن) وحدها يعيش أكثر من ربع مليون ساحرة وساحر..!

بل إن صحيفة (لوموند الفرنسية) (LEMONDE) نشرت أن رئيس الجمهورية الأسبق كان يستشير "عرافة" تعمل فى التنجيم والسحر..!

كما نشرت مجلة "تايم" TIME أن (ريجان) الرئيس الأمريكى الأسبق كان يلجأ إلى إحدى "العرافات" قبل أن يصدر أى قرار من قرارات الحكم..!!!

بل نجد مفسرا عظيما كالإمام القرطبى يقول فى تفسيره لكلمة (ق): إنه جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء.. اخضرت السماء منه!

والسماء عليه مقبية.. وما أصاب الناس من زمرد كان مما تساقط من هذا[1] الجبل على الأرض..!

بل نجد فى كتب التاريخ أقوالا تؤكد أن نهر النيل ونهر الفرات ينبعان من مكان فى الجنة..! لا من هضبة جبل "أرارات" فى تركيا، أو هضبة "الحبشة" وبحيرة "فكتوريا" فى أفريقيا ..!

كما أن حى (الباطنية)[2] لم يعد وقفا على سكان القاهرة المحروسة.، بل انتقل بأكمله إلى هولندا فى أوروبا.

ففى "امستردام" يشاهد الزوار الآلاف من الفتيان، والفتيات يدخنون الحشيش على قارعة الطريق علنا.. بل وينام الفتى بجوار الفتاة على الرصيف كما تنام القطط والكلاب ليلا.! والأخطر من هذا كله أن عادة أكل لحوم البشر لم تعد عادة خاصة بقبائل (نمنم)..! بل انتقلت هذه العادة إلى نيويورك وواشنطن..!

ففى أمريكا اكتشف البوليس رجلا وزوجته وقد ذبحا أطفالهما وقدماهما طعاما لعدد من النساء والرجال..! ثم قام الجميع بعد ذلك بذبح بعضهم بعد هذه الوجبة الدسمة من لحوم الأطفال..!

ترى إلى أين يتجه العالم؟ بل إلى أين تتجه هذه الحضارة التى أصابت البشر والحكمة فى مقتل؟

---

(١) تفسير الجامع لأحكام القرآن. المعروف بتفسير القرطبى جـ١٧ص٢ طبعة بيروت. وهذا التفسير وأمثاله منقول عما جاء فى كتب الديانات الأخرى.

(٢) لقد سكنت فى "حى الباطنية" بضع سنوات.

أذكر أننى قمت بمهمة إلى الصحراء الغربية فى عام ١٩٦٠م.. هذه الصحراء التى كانت ميدانا لحروب طاحنة بين الحلفاء ـ بقيادة الفيلد مارشال مونتجمرى ـ وبين الألمان بقيادة مارشال روميل.

كانت اقامتى فى مدينة "مرسى مطروح".. وهى مدينة صغيرة لم يكن يتجاوز عدد سكانها – أثناء هذه الزيارة – ألفين معظمهم من البدو من أبناء قبيلة أولاد على.

لقد فوجئت بمدفع كبير محطم على ساحل البحر.. كما فوجئت ببقايا سفينة حربية تبدو مقدمتها حين ينحسر الموج.

لقد اهتاجت نفسى بمشاعر جياشة، وبدأت أسأل هذا المدفع ككائن حى أنتظر منه الإجابة..!

من جاء بك؟ ومن ألقى بالقنابل عليك؟ وكم مات حولك من الجند قبل أن تموت أنت..!! وهل دفنوا بجوارك أم جرفهم الموج إلى البحر؟ وهل بقى من دمائهم شىء؟ أم جفت هذه الدماء وتبخرت فى الجو..؟!!

* * *

لقد قتل فى (هيروشيما) و(نجازاكى) أكثر من ثلاثمائة ألف.. ومن بقى على قيد الحياة بقى فى انتظار الموت الذى لم ينج منه كائن حى..!

فى مجلة تايم TIME وعلى صفحتها الأولى من الغلاف كانت أول كلمة نطق بها الكابتن"روبرت لويس"ROBERT بعد إلقاء القنبلة الذرية على مدينة"هيروشيما"HIROSHIMA فى السادس من شهر أغسطس ١٩٤٥م.

كانت أول كلمة قالها ذلك الضابط:

MY GOD WHAT

HAVE WE DONE

يا إلهى.. ما هذا الذى فعلنا!!!

إن ما حدث كان شيئا رهيبا.. ومفزعا.. وكما يقول شاعر يابانى عاصر هذه المحنة:

كان يوما قاتما دميم الوجه..! كل شىء فيه أسود كلون اليأس..!

السماء والناس والأرض.

حتى الخضرة ..

كساها لون من السواد الداكن.

لقد أصبح النصر بعيدا .. بل مستحيلا.

ففى اليوم السادس من أغسطس اشتعلت السماء بوهج أصفر برتقالى اللون.

لقد بدأت النهاية. واحترق كل شىء فوق اليابسة.

لقد انتصر الشيطان فى معركته الأخير..!!!

* * *

فى زيارة قمت بها إلى "لندن".. احتبسنى المطر فى الفندق.. لم تكن القراءة ممكنة.. كما لم تكن نفسى مهيأة لهذه القراءة وبلمسة أصبع.. بدأ التليفزيون يبث برامجه من خلال القناة الرابعة.

كان أول ما وقعت عليه عيناى من خلال الشاشة سؤال ينضح كآبة

ووحشة.. سنحيا أم سنموت؟

SHALL WE PASS OR SHALL WE DIE.

ماذا يجرى فى هذه الدنيا؟ هل عاد "هتلر" إلى الحياة مرة ثانية؟ أم بدأت الحرب العالمية الثالثة؟ ثم ماذا يعنى هذا السؤال المثير للكآبة والوحشة؟

لقد كان هذا السؤال عنوانا لفيلم تسجيلى عن قنبلة هيروشيما ونجازاكى.. لم يكن هذا الفيلم تمثيلا.. بل كان حقيقة وواقعا.

فمنذ اللحظة الأولى لتحرك الطائرات القاذفة.. والكاميرا تسجل ذلك خطوة.. خطوة.. لقد تصورت أن هذه الطائرات ستلقى بحمولتها فوق الفندق. وتوقعت انفجارا نوويا فى قلب لندن..!

نموت أو نحيا؟ هذا هو السؤال الذى يشغل العالم كله... وللعالم - بحق - أن يعرف هذا المصير الذى ينتظره.

إن ما يبلغ مجموعه ٥٠٫٠٠٠ "خمسون ألف" قنبلة ذرية يوجد فى مخازن الدول الكبرى.. إن هذا المخزون يكفى لتدمير العالم أربع مرات ونصف مرة.. وأن نصيب كل فرد فى العالم من هذه الأسلحة هو أربعة أطنان من الديناميت والمواد الناسفة..!!

وهذه الحرب النووية قد تشتعل فجأة.. ومهما قيل عن الاحتياطات التى اتخذت لمنع وقوع الكارثة. فالكل يعلن ويؤكد احتمال وقوع هذه الحرب فى أية لحظة.!

* * *

إن هناك أشياء عجيبة تقع فى حياتنا، أو أشياء تحدد مسيرتنا. أو أشياء تتحكم فى مشاعرنا وعواطفنا. هذه الأشياء المسيطرة. أو المتحكمة لاتجد لها

تعليلا أو سببا إذا حاولت أن تعرف هذا التعليل أو هذا السبب.

إنك أحيانا تقابل إنسانا فتحبه من أول لقاء دون أن تجد سببا مباشرا لهذا الحب.

وأحيانا تقابل إنسانا فتنفر منه دون سبب مباشر لهذا النفور أو البغض.. وإذا كانت الأرواح جنودا مجندة كما يقول النبى ﷺ .. فإن هذه القاعدة الربانية كما تنطبق على الأرواح والأشخاص فإنها كذلك تنطبق على البلدان والقارات.

قبل سفرى إلى بريطانيا منذ حوالى ثلث قرن. كنت أتصور مدينة (ريتشموند) عجوزا شمطاء كئيبة. كما كنت أتصور مدينة (كمبردج) زهرة بيضاء ناصعة. وقد وجدت المدينتين كما تصورتهما فى خيالى، وقبل أن أراهما بعينى..!!

كذلك تصورت مدينة (لاهور) فى باكستان قبل أن أراها.. كما تحققت من ذلك بعد زيارتى لها وإقامتى فيها.

ومن أسوأ الأماكن التى ينقبض منها قلبى فى أقصى الشرق مدينة (بانكوك) وما زرتها مرة إلا مرضت أو تعبت دون سبب مباشر لهذا المرض أو هذا التعب..!

* * *

مصـر هى
أم الدنيـا

مصر هى أم الدنيا

هنا ـ فى مصر ـ وقبل كل شىء ـ ولد الضمير هكذا قال: (جيمس بريستد) فى كتاب له يحمل هذا الاسم:

فعندما خرج أفلاطون من مصر ووصل إلى كريت رآه الناس يتحسس رأسه، فسألوه فقال: أريد أن أتأكد أن دماغى مازال فى مكانه.. كاد يضيع منى هناك..!! "أى فى مصر".

وعندما وصل الاسكندر إلى الدلتا قال: أى جنة هذه!!

وعندما وضع نابليون قدمه على شاطئ مصر قال: أى نار هذه..!!

وعندما وصل إليها عمرو بن العاص قال: هذه شجرة خضراء..!!

وعندما جاء ابن خلدون إلى القاهرة قال: رأيت مجمع الدنيا ومحشر الأمم..!!

* * *

وقد اشتهر (ادوارد وليم لين) المستشرق الانجليزى[١] شهرة واسعة بكتابه (المصريون المحدثون ـ عاداتهم وشمائلهم) حتى كاد هذا الكتاب يستأثر بكل الشهرة، فلا يكاد يذكر اسم الكتاب حتى يذكر اسم (لين) ولا يكاد يذكر اسم (لين) حتى يقفز عنوان كتابه.

وكان (لين) الذى زار مصر ثلاث مرات بين سنتى ١٨٢٥م و١٨٤٥م قد عاش فيها خمسة عشر عاما، وارتدى الثياب البلدية. وعرف باسم (منصور أفندى).!

---

(١) القاهرة ـ قصص وحكايات ـ عبد المنعم شميس ـ ص ١١.

وقد سكن بالقرب من باب الحديد فى منزل يمتلكه (عثمان) الجندى الاسكتلندى الذى جاء مع حملة فريزر. التى هزمت فى مصر، ووقع فى الأسر واعتنق الإسلام، وعمل فى خدمة محمد على ثم عمل بعد ذلك مع المستشرق (جو هندفيك بوركهارت) السويسرى الأصل الانجليزى الثقافة والجنسية. وكان يتقن العربية، وقضى حياته سائحا بين سورية ومصر والجزيرة العربية والسودان. واستقر فى القاهرة، واعتنق الإسلام وعرف باسم (الشيخ إبراهيم). وقد ذكر منصور أفندى (ادوارد وليم لين) أنه صحب جاره عثمان (الاسكتلندى) فى آخر أيام عيد الفطر لزيارة قبر الشيخ إبراهيم (بوركهارت) بمقبرة باب النصر. الواقعة شمال القاهرة. وتكريم ذكرى الراحل طبقا للعرف الجارى فى أيام العيد.

وقد جرت العادة فى مثل هذه المناسبات. عند قدوم زوار المقبرة أن يقوم القارئون مقابل قرش أو قرشين، بتلاوة سورة من سور القرآن الطويلة، على الأقل. ثم الفاتحة التى يقرأها الزائر معهم. وقد استخدم صديقى أحد هؤلاء. فقام بتلاوة السورة بأقصى سرعة، وهو جالس عند حافة المقبرة. وبعد الانتهاء من هذا الأمر. وشق السعف وبسط قطعه فوق القبر. أعطينا حارس المقبرة مالا وانصرفنا عائدين إلى البيت.

لقد مارس منصور أفندى حياة القاهريين ممارسة عملية حتى فى زيارة المقابر وكان له أصدقاء من أبناء القاهرة. ذكر منهم الشيخ أحمد الكتبى. وكان صاحب مكتبة فى حى الأزهر، وعندما أراد منصور أفندى زيارة ضريح الحسين رضى الله عنه. ومسجده. هرب منه الشيخ أحمد وتركه وحيدا فى الضريح خوفا من مشاركة رجل انجليزى فى الزيارة. ولكن منصور أفندى (ادوارد وليم لين) أتم طقوس الزيارة فى هدوء مثل أى رجل مسلم. وقد أشيع

عنه أنه أسلم حقيقة، وقد أهداه صديقه الشيخ أحمد الكتبى مصحفا شريفا فى هذه المناسبة.!

كما كان من أقرب أصدقائه فى القاهرة شخصيتان مهمتان هما الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى الذى ذاعت شهرته فيما بعد. والشيخ محمد عياد الطنطاوى الذى أصبح أستاذا للغة العربية فى جامعة (سان بطرسبرج). والشيخ عياد شاعر من شعراء عصر محمد على وقد رأيت ديوان شعره المخطوط فى دار الكتب المصرية. ويعتبر أستاذ المستشرقين الروس. وقد ألف عنه تلميذه المستشرق (كراتشوفسكى) كتابا ترجم إلى اللغة العربية. وقد توفى فى روسيا ودفن هناك. وظل طوال حياته محتفظا بزيه الأزهرى حتى مات.

أقام "لين" فى القاهرة مع زوجته واخته الأرملة وولديها وسكنوا فى بيت بحارة السقايين من يناير ١٨٤٣م حتى أوائل سنة ١٨٤٥م. ثم انتقلوا إلى بيت آخر فى حارة (قواديس) بعابدين حتى غادروا مصر فى سنة ١٨٤٩م إلى انجلترا حيث توفى (لين) فى صباح الخميس ١٠ أغسطس سنة ١٨٧٦م.



يصف "لين" السكك والحوارى فى مدينة القاهرة ومابها من دكاكين وأسواق وخانات ووكالات، والأحياء وقصورها وغير ذلك. فيقول : إن سكك القاهرة ضيقة غير مبلطة ويبلغ متوسط عرضها مابين خمسة أقدام واثنى عشر قدما. غير أن استخدام كبار الأتراك للعربات قد أدى أخيرا إلى جعل شوارع المدينة أكثر اتساعا واستقامة. بينما عمد محمد على فى السكك القديمة القائمة على جانبيها الدكاكين ومصاطبها، إلى إزالة تلك الأخيرة. ويكاد السائر فى تلك الشوارع على أى حال لا يجد لنفسه مكانا عند مرور تلك العربات. ويقول أن الدكاكين المصطفة على جانبى الشارع تحتل من البيوت بعض طبقتها السفلى.

وأنها تتكون من حجرة تبلغ سعتها أربعة أقدام مربعة. وتعلو إلى ستة أقدام أو سبعة. وترتفع قدمين ونصف قدم عن الأرض. ويقفل واجهتها باب خشبى ذو مصاريع تطوى. وقد يكون بمؤخر الدكان مخزن صغير لا يتصل بسائر المنزل. الذى يطلق على قسمه الأعلى لفظ (ربع) ويسكن الفقراء الربع عادة وترتفع المنازل إلى طبقتين أو ثلاث طبقات. وهناك دكاكين تقام ملاصقة لواجهة مسجد. ولا يعلوها بناء. ويقول إن الشارع الواحد لا يميز عن غيره بتسمية ما. ولكن أجزاءه المختلفة يختص كل منها بتسمية مختلفة. فيطلق على الجزء من الشارع الذى يتجمع به عدد من التجار أو الصناع يمارسون تجارة أو صناعة واحدة. صفة تلك التجارة أو الصناعة أو يطلق عليها تسمية تنسب إلى المسجد الواقع به. كما هو الحال فى الشارع الرئيسى بالمدينة حيث يوجد سوق الحدادين الذى يضم هؤلاء الصناع. وسوق الغورية الذى ينسب إلى مسجد الغورى. ويقول : إن لفظ (سوق) قد يحذف فيقال «الحدادين» و «الغورية».

وإذا كان هذا مقبولا فماذا نقول فى شوارع وأزقة وحوارى[1] تحمل أسماء: عطفة شق الثعبان. وحارة التمساح. بل وشارع عزرائيل!! وحارة القتلى وحارة القتيل وحارة القتيلة!! وحارة قلعة الكلاب. وحارة الذى كفر.! وشارع بير المش.!

وشارع بن النهدين وشارع أبى الليف. وحارة الزير المعلق. والسبع قاعات.. وكلها حول شارع الموسكى وشارع الخليج والدرب الأحمر وعابدين.

* * *

أن الذى يرى باب الفتوح الآن، وما يجرى فيه.. يتحسر على حال الباب الذى تحدث عنه التاريخ بكل احترام واجلال[2].

(١) ، (٢) شوارع لها تاريخ - عباس الطرابيلى - الدار المصرية اللبنانية.ص١١.

* فقد كان الباب مخصصا لخروج الجيوش الذاهبة للفتح والغزو والدفاع عن ديار المسلمين، وكان سلاطين مصر طوال العصور الفاطمية والأيوبية والمملوكية يجلسون عنده يستعرضون الجيوش ويتأكدون من استعدادها تسبقها فرق الموسيقى العسكرية.. ويقف أهل القاهرة يودعون الجيش الذاهب للفتح بالزغاريدوالتمنيات.

الآن تغيرت الصورة. وبدلا من مواكب الفرسان بخيولهم المطهمة بسروجها المذهبة وأسلحة فرسانها.. أصبحت ساحة هذا الباب ميدانا لتجارة البصل والثوم شتاء.. وسوقا للزيتون والليمون صيفا ..!!

وبعد مواكب الفرسان نجد الآن كل وسائل النقل من حمير وخيول وعربات كارو.. ثم كارو مصر الحديثة: سيارات السوزوكي. وكل هذا يمتهن تاريخ الشارع الأعظم.. ويدوس تاريخ باب الفتوح.

* أما باب النصر المجاور لباب الفتوح فقد كان بابا لدخول الجيوش بعد عودتها للوطن ظافرة حاملة ألوية النصر وظل هذا التقليد التاريخي متبعا طوال عهود العظمة المصرية.. وأحياه محمد على باشا الكبير حيث كان ابنه الفاتح الكبير إبراهيم باشا يحرص على الدخول من باب النصر كلما عاد لمصر منتصرا

ومن يتجول الآن في المنطقة يخيل له أن مصر أصبحت وطنا لأصحاب المزاج.. فأبرز ما يباع فيها الآن معدات المزاج بداية من الشيشة ومستلزماتها من "أحجار ولىّ ومبسم.. حتى غابة البوص المستخدمة في "الجوزة".. وتخرج من المنطقة التي كانت معقلا للتاريخ المشرف بانطباع أن هناك: شيشة لكل مصري..!!!



كان للمرور بالشارع تقاليد وقواعد يحترمها الكل..

مثلا كان ممنوعا أن يمر بالشارع أى حِمْل حطب أو تبن ولا يسوق به أحد فرسا، أو يمر به "سقاء" إلا بما يمنع تلويث الشارع بمخلفات هذه الدواب. أى كان واجبا إرتداء هذه الدواب (حفاضات) بلغة العصر الحديث.. وكانت الأحمال تغطى بما يمنع تناثرها فى الشارع..!!

وكانت تعليمات الحكومة تلزم أصحاب المحال والحوانيت بأن يعلق كل منهم على حانوته قنديلا لينير الطريق، ومساهمة فى مقاومة الحرائق كانت التعليمات تلزم أصحاب هذه المحال بوضع زير مملوء بالماء أمام المحل يخصص لمقاومة الحرائق..!!

* وخصصت الحكومة للشارع من يكنسه ويرشه بالماء، ويزيل عنه القانورات أولا بأول، وحتى لا يتطاير التراب فيؤذى المارة والتجار.. وبجانب هؤلاء تم تعيين حراس يطوفون بالشارع والبيوت والمحال لحراستها، وهو نظام بدأ العمل به منذ حكم العزيز بالله بن المعز لدين الله الفاطمى.

وعندما جاء الحاكم بأمر الله الذى يرى البعض فى قراراته وتعليماته الغريب والطريف، اتخذ من القرارات ما يحمى الشارع ويحفظه ويبقيه نظيفا.. إذ أمر ألا يدخل الشارع أى إنسان راكبا حمارا أو حصانا أو جملا.. بل منع "الحمَّارة" من المرور فيه بحميرهم. وكان الشارع خصوصا فى المنطقة التى كانت بين القصرين الكبيرين يغلق بعد صلاة العشاء بسلسلة ترمى فى المضيق بين القصرين فيتوقف المرور تماما بالشارع حتى فجر اليوم التالى.

ترى لو عاد الحاكم بأمر الله أو أى واحد من سلاطين مصر العظام ليتفقدوا الشارع الأعظم الآن. ماذا يقولون؟.. بل ماذا سيكون رد فعلهم وهم يرون الآن الحالة التى وصل إليها الشارع فى مصر أم الدنيا؟!

وقد كان شارع (الغورية) - فى أيامنا- من أهم الشوارع التجارية فى مصر- وبخاصة للقادمين من الريف والصعيد. لم يكن فيه موطئ قدم للسير، وكان الناس يمشون فيه متلاصقين بعضهم ببعض ولا يكاد المار فى هذا الشارع يصل إلى شارع الأزهر حتى يتوقف قليلا لإعادة ثيابه إلى وضعها الطبيعى بعدما تعرضت له هذه الثياب من حركة الجزر والمد، والجذب والشد..!!

وقد سمعت من أحد شيوخنا الصالحين فى الأزهر هذه الطرفة التى يحكى فيها تجربته مع الناس فى هذا الشارع قال:

خرجت من بيتى فى شارع (المغربلين متوضئا كى أدرك صلاة المغرب فى مسجد الحسين. فما كدت أدخل إلى شارع الغورية من باب "زويلة" حتى توقفت قدماى عن الحركة. ووجدتنى فى بحر هائج من شدة الزحمة، لقد تعرض جسمى لهزات عنيفة من كل جهة. وانتقض وضوئى أكثر من مائة مرة[1]..! وأرى أن يطلق على هذا الشارع اسم (شارع نواقض الوضوء) "لا" (شارع الغورية)!!!

* * *

غير أن هذا الشارع لم يعد كما كان .. جرى عليه ما جرى على شوارع كثيرة بسبب إهمال أهل هذا الزمان.

وهل تعلم أن شارع (الرويعى) كان فيما مضى - قطعة من (لندن) إن عمارة (تيرنج) القائمة فى مدخله من جهة ميدان العتبة خير شاهد على هذه الحقيقة، كما أن محلات "صيدناوى" الواقعة على أحد جانبيه دليل آخر على ماكان يتمتع به هذا الشارع من جمال ونظافة.

---

(١) الشيخ كان شافعى المذهب. وعند الشافعية أن لمس المرأة ينقض الوضوء!

من رأى حديقة الأزبكية فى الأربعينات؟ لقد كانت هذه الحديقة واحة من الجمال والسحر، بحيرة للأسماك.. وأقفاص للطيور الملونة، وجبلاية للقرود.. و"كشك" للموسيقى، و"صالة" لألعاب "الباتيناج" وكازينو لتناول الطعام والقهوة والشاى.

كان شارع "فؤاد" وغيره من شوارع وسط القاهرة نسخة مكررة لشوارع باريس ولندن، وكان "مترو" مصر الجديدة ينتهى خطه عند تقاطع شارع فؤاد بشارع عماد الدين.. كان لونه "بنيا" ومظهره فخما. كما كانت مقاعده لا تقل فخامة وجمالا من أى صالون فى بيتك أو بيتى..!!

* * *

لماذا فقد المصريون إحساسهم بالجمال والنظافة..؟!!

ادخل أى عمارة من العمارات القديمة فى هذه المنطقة.. قذارة تتناثر على درجات السلم والمصاعد تصرخ من شدة الإهمال.

لقد دخلت عمارة من هذه العمارات فى شارع شريف ففوجئت بأن المصعد فى هذه العمارة قد تحول إلى "بوتيك"..!! وأن الزائر لأحد فى هذه العمارة يقرأ الفاتحة على روحه قبل أن يهم بالصعود..!

بل أدخل أى عمارة من تلك العمارات التى يسكنها (بارونات الطب)! شىء بشع لا يصدقه عقل. ومناظر تصيبك بالاكتئاب والحزن.!

* * *

فى عاصمة أوروبية.. استأجر أحد المصريين بيتا بجوار أسرة من أهل هذا البلد.. لقد أهمل صاحبنا الحديقة التى هاشت.. وتوحشت فأرسل إليه جيرانه أن يهتم بالحديقة.. فلم يفعل. ففوجئ بالشرطة تطلب منه تهذيب الحديقة

أو يترك المسكن. وقام صاحبنا بتهذيب الحديقة ولما لم يكن على دراية.. فقد بدت الحديقة شوهاء كئيبة المنظر فعادت إليه الشرطة مرة ثانية تطلب منه الالتزام بأصول الجمال والنظافة أو يرحل. !!!

* * *

لقد زرت الكثير من أقطار العالم.. ما رأيت أبدا مثل هذا الذى يحدث فى شوارع القاهرة. لقد سحبت رخصة ابن ملكة بريطانيا لتجاوزه حدود السرعة، ورئيس وزراء سابق تعرض لمثل هذه العقوبة. إن إهانة "شرطى" فى بريطانيا تعنى إهانة الدولة، وهذه الإهانة يمكن أن تؤدى إلى إسقاط الحكومة !!

* * *

قبل عشر سنوات. وحين كان الوقت صيفا تعودت الجلوس فى شرفة منزلى بعد تناول طعام السحور إلى أن يؤذن الفجر، نظرت إلى الشارع. لم يكن فيه موطئ قدم. فالسيارات على الجانبين تقف فى صفوف مزدوجة.. ثم إن الشارع ضيق. ولو وقع حادث لا قدر الله فلن تستطيع الشرطة، ولا رجال الاسعاف ولا المطافئ أن يتحركا فيه قيد أنملة..!

تساءلت بينى وبين نفسى. من أين جاءت هذه السيارات؟ ومن أصحابها؟ بل لماذا كل هذه السيارات؟

ثم عدت أسأل نفسى..

وأين سيارتك أنت؟

إن سيارتى لاتزال حلما كما أنه حلم لن يتحقق!

أنا الإنسان الذى حصل على درجة الدكتوراه من الخارج وارتقى فى

السلم الوظيفى المدنى إلى أعلى درجة وقضى فى خدمة الدولة حوالى أربعين سنة..؟؟!!

وكأننى بهاتف يهتف فى أذنى من وراء الغيب.. دنياك يا هذا.. لم يعد فيها مكان لأمثالك من رجال الفكر والقلم.

بل دنيا أخرى غير الدنيا التى عرفها الناس منذ القدم..

دنياك دنيا .. البلطجى

ومحنة الرجل .. التقى

لم يبق للشرفاء .. سعر

فى جوار .. العربجى

فدع .. التعجب واعترف

بالواقع .. المر .. الغبى

فالمجد .. للسباك والأسطى

"وعيطة" .. المكوجى

والعلم أصبح.. سلعة

تزرى بصاحبها.. الأبى

واحسرتاه.. على المفكر

والمؤلف والأديب.. العبقرى

بارت تجارتهم .. وضاعوا

ضيعة الحق .. الجلى

فارفع يديك إلى السماء

ولذ بجانبها .. القوى !!!

* * *

منذ أكثر من ستين عاما .. ومنذ خطت قدماى أولى الخطوات فى طريق العلم.. وفى (كتاب القرية) الذى لايزال مبناه قائما يذكرنى بفقيهه الورع التقى.. كان أمل الآباء والأمهات أن يصبح أحد أبنائهم شيخا تلتمس منه البركة، ويمسك (عمودا) من أعمدة الأزهر يتحلق حوله الشيوخ والطلبة، كان خيالى فى هذه المرحلة المبكرة من العمر متوهجا بأحلام الطفولة الجميلة، فقد كنت أتصور هذا (العمود) عصا طويلة صنعت من الذهب أو الفضة كما كنا نتصور قصور الملك فى هذا الوقت نسخة من قصور (ألف ليلة وليلة)..!!!

لم تكن أحاديث الناس فى هذه القرية تخلو من هذه الحكايات التى تعدد مناقب شيوخ الأزهر، وتشير إلى مكانتهم الرفيعة.

كان سمتهم جميلا، وخلقهم نبيلا، وعلمهم لوجه الله خالصا .. كانت قريتنا تتميز على غيرها من القرى بحب العلم لقد عاصرت فى هذه القرية أكثر من مائة عالم وطالب.. إنها قرية (سيدى عبد الوهاب العفيفى) الذى يقول عنه الجبرتى:

(كان من الزاهدين فى الدنيا، متحرزا فى أكله وملبسه، لا يأكل إلا ما يجيئه من بلده (ميت عفيف) من الخبز الجاف و"الدقة"وكان الأمراء يقصدونه للزيارة فينفر منهم، ومن تفضل الشيخ بمقابلته قدم له من خبزه الجاف ليأكله).

ويضيف صاحب (كرامات الأولياء) عن هذا القطب فيقول:

(إنه كان من أكابر الأولياء، وأعيان العلماء الأصفياء، وكراماته كثيرة منها ما ذكره العلامة البراوى أنه رآه فى عرفات حين حج مع أنه لم يخرج من مصر) !!!

كان فى قريتنا رجل معمر اسمه الشيخ"سيد" عاش أكثر من مائة عام بعشر سنوات، كانت حافظته قوية، وذاكرته دائما حاضرة، وكان من عادته أن يحضر إلى القاهرة فى فترات متباعدة، وكان : "صحن الأزهر" مكانه المختار فى كل زيارة، لقد عاصر أحمد عرابى وسعد زغلول، والشيخ حسن الطويل، وكان يحفظ الكثير من حكايات هذا العصر ونوادره كأنه يراها رأى العين، وكأنها ماثلة أمامه كما رآها قبل عشرات السنين.

وفى واحدة من زياراته النادرة جلس يحدثنا عن ذلك الشيخ الذى وقف من السلطان العثمانى عبد العزيز موقفا طار بسببه صواب الخديو إسماعيل، فقد كان من برنامج زيارة السلطان لمصر أن يلتقى بعلماء الأزهر. وفى اليوم المحدد لهذه الزيارة، أعد الشيوخ أنفسهم لاستقبال السلطان المعظم.. كل العلماء أوقفوا الدروس، ووقفوا يرحبون بالضيف الذى تطير من خوفه الروس: إلا شيخا واحدا ظل مكانه يقرأ ويشرح، ويفسر ويوضح كان جالسا على الأرض وقد مد رجليه غير عابئ بما يدور حوله وحين اقترب منه السلطان والخديو لم يتوقف ولم يتحرك.

وجن جنون الخديو إسماعيل، إن هذا الشيخ المجنون أفسد عليه خطة الزيارة، ولكن السلطان تريث وأراد أن يختبر الشيخ قبل أن يتخذ منه أى موقف، لقد نادى السلطان على أحد أعوانه، وأعطاه "صرة" من المال ليقدمها إلى هذا الشيخ الذى لم يقم لاستقباله.

قال رسول السلطان للشيخ: لماذا لم تقم كغيرك من العلماء لاستقبال مولانا الخليفة؟

قال الشيخ: إن مجلس العلم يحضره الله جل جلاله فكيف تطلب منى أن أفارق الله لاستقبال عبد من عباده؟!!!

قال رسول السلطان للشيخ: إذن فاقبل هدية مولانا الخليفة..

قال الشيخ: قل للسلطان إن الذى يمد رجله لا يرفع إلى غير الله يده..!!

* * *

يقول شاعر فارسى:

لا أحب أن أبيع خرقتى المتواضعة برايات الملوك وأعلام السلاطين.. ولا أرضى بأن أهجر"فقرى" حرصا على مملكة سليمان...!!!

* * *

كان صحن الأزهر فى هذا الزمان خلية نحل، لم يكن يخلو من العلماء والطلاب فى أى وقت، كانت الأروقة مفتحة الأبواب على هذا الصحن: رواق الشوام، ورواق المغاربة، ورواق السنارية ودارفور، كما كان لرواق الشراقوة باب ملصق بمبنى الجامع الكبير من الخلف.

ومما أذكر أيضا أن طلاب الصين كانوا يقيمون فى الطابق الأول من معهد القاهرة الذى كان أكبر معهد أزهرى فى مصر.

إن الجيل الجديد من أبناء الأزهر لا يعلم أن هذا المعهد كان يتكون من ثلاث عمارات، وكان عدد طلابه فى القسمين: الثانوى والابتدائى لا يقلون عن خمسة آلاف، وكان معظم هؤلاء الطلاب يذهبون إلى الجامع الأزهر فى المساء للاستذكار.. فى كل ركن وحول كل عمود.. على الحصير والأرض فى النهار أو الليل حركة دائبة، ودراسة مستمرة فى الدين والأدب، فى السياسة والعلم، فى الفقه والنحو، وفى مصر وما يقع فوق أرض مصر.!

كان إمتحان "الأستاذية".. أو "الدكتوراه" كما نسميها فى لغتنا الحديثة ينعقد فى الرواق العباسى على يمين الداخل إلى الصحن منظر مهيب لشيخ الأزهر وكبار العلماء، وهم يديرون مع الطالب حوارا لمدة ثلاث ساعات فى إمتحان رهيب يفوز بعده الطالب بدرجة العالمية، أو الأستاذية، أو الدكتوراه التى ورثت كل هذه الألقاب الجليلة العلمية.

على باب المئذنة.. وتحت المزولة كانت جلستى المفضلة طوال طلبى العلم ومجاورتى للأزهر الشريف قرة عين الإسلام فى كل عصر، لم يكن اختيارى لهذا المكان عن قصد، بل كانت روحى هى التى تقودنى إلى هذا المكان عقب صلاة كل عصر.!

أحاسيس لا يمكن تفسيرها فى نظر العقل، وهل العقل هو كل شىء فى هذا الكون؟ وهل كل ما يوحى به العقل صواب: مبرأ من الخطأ والنقض؟

كان مؤذن المسجد فى هذا الوقت اسمه الشيخ إبراهيم الشارونى "شخصية عجيبة" ولكن الشىء الذى كنت أتعجب منه موقف الشيخ الصالح عبد اللطيف من ذلك المؤذن:

لم يكن - يقبل أن يصلى خلفه.. فإذا رآه يتقدم المصلين نفر من الصلاة وانطلق إلى صحن الأزهر يصرخ ويشتم.!

إن الشيخ عبد اللطيف ـ كما يقول عارفوه ـ كان قطبا وكان لا يترك جماعة من الجماعات فى الجامع الأزهر.. وكنت أعرف مقامى من الله إذا رضى عنى وأقبل علىّ.

وأشهد الله.. ما من مرة أشاح عنى هذا الشيخ بوجهه إلا عرفت أنى مذنب..!!

* * *

كانت أوقات هذا الشيخ موزعة بين مسجد سيدى أحد الدردير، ومسجد الأزهر"لم أكن أعرف فى هذا الوقت مكان سيدى أحمد"، كنت حديث عهد بالقاهرة، والحرب العالمية الثانية يشتعل لظاها فى كل ناحية، وذات ليلة انطلقت صفارات الانذار معلنة عن قرب وقوع غارة جوية، ولعلعت السماء بأصوات المدافع والكشافات من جهة القلعة.. وفجأة حدثت فرقعة شديدة انطلق بعدها الناس يلتمسون النجاة. وهاموا على وجوههم فى كل اتجاه ورأيتنى فجأة أسير مع السائرين إلى مسجد يقع فى "شارع الكحكيين" المتفرع من شارع "الباطنية".. كان هذا المسجد هو مسجد"سيدى أحمد الدردير" وكان هذا مقامه الذى يتضرع عنده العابدون.

إن الشيخ الدردير من كبار الأولياء الذين عرفوا بالصلاح والتقوى، ويروى عنه العارفون القصص والحكايات التى تؤكد هذه الدعوى.

لقد عرفت الآن أنه كاتب (دلائل الخيرات) التى كنا نقرأها صغاراً على أرواح الموتى.

ويقول عنه صاحب (كرامات الأولياء):

"... وشهرته بكثرة العلم والعمل والولاية والإرشاد، وكثرة المناقب والفضائل على تعدد أنواعها تغنى عن الإطالة بشرح حاله، فهو شمس العرفان وعارف الزمان المجمع عند المسلمين كافة على اختلاف المذاهب والمشارب - على جلالة قدره وولايته وإرشاده واتساع علمه، وعموم نفعه فى سائر بلاد الإسلام.

ذكره شيخنا الشيخ"حسن العدوى" فى كتابه (النفحات الشاذلية فى شرح البردة البوصيرية). فكان مما قاله:

"إن شيخه الشيخ محمد السباعى كان يبشره بالفتح وتتكررمنه مرارا فى أيام متعددة قوله:

(والله أو وعزة ربى إنك لمحبوب الدردير).. قال: فتعلقت آمالى بمحبة هاتيك الأعتاب وأكثرت زيارته: أى الشيخ الدردير إلى أن يقول:

وقد وقعت لى أزمة ومحنة مع الحكومة خفت على نفسى منها فرأيت كأنى فى قصر مغلق الأبواب ممتلىء بالأفاعى والحيات، ورأيت كل الأبواب مغلقة فأيقنت أنى هالك لا محالة.

فإذا بشباك مفتوح فى أعلى القصر فنظرت فرأيت قصرا آخر مقابلا للقصر الذى أنا فيه يسمى "قصر الأمان". فتحيرت فى الوصول إليه لبعد المسافة فإذا بجوهرة يتلألأ نورها بين السماء والأرض فخاطبتنى بقولها:

أنا روح الدردير، افتح فمك ففتحت فمى، فدخلت فيه فقالت:

سر كيف شئت، فوجدت نفسى فى قصر الأمان قائلا: بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم. واستقررت فى قصر الأمان وانتبهت فانصرف عنى ما كنت أجد وحصل لى النصر التام).!!!

* * *

لقد كان الشيخ الدردير من كبار شيوخ العلم، وكان مجلسه المختار أمام القبلة القديمة فى الجامع الأزهر، وكان إمامنا الراحل عبد الحليم محمود يحرص على زيارة هذا المكان كلما سنحت فرصة للصلاة فى هذا المسجد. وأذكر أن المرحوم الشيخ عبد الرحيم فودة المدير الأسبق "لمجلة الأزهر" أخذنى قبل وفاته بليلة واحدة لزيارته وقراءة "سورة يس" فى مسجده.

إن تاريخ الأزهر هو تاريخ هؤلاء العلماء الذين تجردوا للعلم طلبا لمرضاة ربهم الأعلى.. وما قيمة القباب والمآذن إن لم تكن نفيرا يجلجل بكلمة الحق ويعلن

وقد كان الأزهر دائما عند حسن الظن، لم يتخلف يوما عن واجبه تجاه الشعب ولم يرض لعلمائه أن يقفوا ساكتين أمام الظلمة والطغاة من حكام مصر.!

كان الأزهر هو المثابة التى يفزع إليها الناس حين يحز بهم أمر، والمأمن الذى يقصده الشعب حين تضيق به السبل. وكان العلماء والمجاورون يستمعون إلى الشعب حين يلجأ إليهم فيغضبون على من أوقع بهم الظلم.. بل نجد فى بعض الأحيان أن الحاكم الظالم كان يعلن توبته أمام العلماء... ويعاهد أمامهم الله أن يعدل بينهم فى حكمه.!

فالأزهر كان أشبه بالبرلمان الذى يترجم عن رغبات الشعب رضا وسخطا والترجمة عن السخط كانت أكثر بطبيعة الحال، لأن شئون الحكم فى ذلك الوقت كان فيها الكثير مما يسخط، والقليل مما يرضى، وكان وجدان الناس فى أغلب أقطار الإسلام وجدانا دينيا، وكانت عاطفتهم فى أغلب الأحوال قائمة على الدين والعقيدة، والعلماء هم حماة الدين، والأزهر هو كعبة العلماء والعلم.

فكان العلماء يشعرون بما لهم من مكانة بقدر ما فى نفوس الناس من عاطفة دينية، وكان الناس ينظرون إليهم كحماة للشرع والعدل، ورقباء على صلاح الحكم وتوجيه الحاكم وكبح جماح من يرون فيه الفساد أو الشطط، وكان الحكام يخشونهم لهذه الأسباب وبخاصة إذا اجتمعت كلمتهم مع الشعب.

لما وقعت الحرب بين مصر والحبشة، وتوالت الهزائم على مصر لوقوع الخلاف بين قواد جيوشها ضاق صدر الخديو إسماعيل، فركب يوما مع شريف باشا، وهو محرج فأراد أن يفرج عن نفسه فقال لشريف باشا: ماذا تصنع حين تلم بك ملمة تريد أن تدفعها؟

فقال: يا أفندينا: (إن الله عودنى إذا حاق بى شىء من هذا أن ألجأ إلى صحيح البخارى يقرؤه لى علماء أطهار الأنفاس فيفرج الله عنى)..!

قال: فكلم الخديو شيخ الأزهر وكان الشيخ العروسى فجمع له من صالحى العلماء جمعا أخذوا يتلون البخارى أمام القبلة القديمة فى الأزهر.

قال: ومع ذلك ظلت أخبار الهزائم تتوالى، فذهب الخديو ومعه شريف باشا إلى العلماء، وقال محنقا: إما أن الذى تقرؤنه ليس صحيح البخارى، أو أنكم لستم العلماء الذين نعدهم من رجال السلف الصالح؟!!

فإن الله لم يدفع بكم ولا بتلاوتكم شيئا، فوجم العلماء لذلك.. وابتدره شيخ من آخر الصف يقول له:

إن سبب هذه الهزائم منك يا إسماعيل، فإن قرأنا عن النبى ﷺ أنه قال: "لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم"..!!

فزاد وجوم المشايخ وانصرف الخديو ومعه شريف باشا ولم ينبس بكلمة وأخذ العلماء يلومون القائل ويؤنبونه .

فبينما هم كذلك إذا بشريف باشا قد عاد يسأل :

أين الشيخ القائل للخديو ما قال ؟

فقال: أنا، فأخذوه وقام ..

* * *

وانقلب العلماء بعد أن كانوا يلومون الشيخ يودعونه وداع من لا يأملون أن يرجع وسار شريف باشا بالشيخ إلى أن دخلا على الخديو فى قصره فإذا به قاعد فى البهو وأمامه كرسى أجلس عليه الشيخ وقال له :

أعد يا أستاذ ما قلته لى فى الأزهر، فأعاد الشيخ كلمته وردد الحديث وشرحه، فقال له الخديو :

وماذا صنعت حتى ينزل بنا البلاء ؟

قال له:

يا أفندينا: أليس الزنا برخصة، والربا برخصة، والخمر برخصة، وعدد له منكرات تجرى بلا إنكار، فكيف تنتظر النصر من السماء؟

فقال الخديو:

وماذا نصنع وقد عاشرنا الأجانب؟

فقال له الشيخ:

إذن فما ذنب البخارى وذنب العلماء؟

ففكر الخديو مليا وأطرق طويلا ثم قال له:

صدقت، صدقت..!!!

* * *

فى صحن الأزهر أدركنا تلك الأروقة التى كسيت جدرانها بخزائن الخشب، وسمعنا عن(المجاورين) الذين عاشوا أكثر من نصف قرن بين الجدران والخزائن حرصا على الطلب، ورأينا كثيرا من الطلاب عكفوا فى الجامع مستعينين بخزائنهم، وقد حوت كتبهم وثيابهم، وفرغوا أنفسهم لطلب العلم وأداء

الصلوات، فلا يخرجون منه إلا يوم الخميس ظهرا إلى النهر... كانوا يعيشون على الكفاف ويرضون بالقليل من الزاد، وكان أقصى ما يتمتعون به من طعام أن يشترك جماعة منهم فى شراء طبق من الفول المسلوق يفتتون فيه خبزهم الجاف، ثم يتبعونه بقدح من الشاى المخلوط بالنعناع..!!!

* * *

ومن فهم الواقع على جليته أن نذكر أن أهل البلد قد حددوا وظيفة الأزهر، ووظيفة علمائه تحديدا يعز أحيانا على الدستور المكتوب، فكان منهم من يتولى الصدارة فى شئون السياسة ومخاطبة الحكام، لأنه أقدر على هذا العمل وأصلح، وكان منهم من يثق الناس فى تقواه، ويطمئنون إلى نزاهته فى أمور الدين والرياسة، وكان منهم من يفاوض الوالى التركى، وليس هو بأعظم علماء البلد، وكان منهم من يفاوض (نابليون) وليس منهم بمكانة الرياسة العلمية ولكنهم كانوا مرشحين لوظيفة السفارة بما لهم من خبرة فى سياسة الناس وأساليب الإقناع، وعلاج المشكلات.

* * *

فى الحلقات الجانبية أمام أبواب الأروقة القديمة كنت أسمع هدير المناقشات حول مقال نشر فى مجلة (الرسالة)، أو بحث كتب فى مجلة (الثقافة) هاتان المجلتان كانتا من أكثر المجلات تداولا بين طلبة الأزهر وكانت (الرسالة) أكثر حظا من شقيقتها فى الانتشار والذيوع، أما المجلات الشهرية مثل مجلة (الكاتب) أو مجلة (الكتاب) فكانتا معروفتين بين خواص طلبة الأزهر المهتمين بشئون الثقافة والأدب، وكان (البيان والتبيين) للجاحظ، و(العقد الفريد) لابن عبدربه وكتاب (الكامل) للمبرد من أهم الكتب التى يحرص الطلاب على اقتنائها وقراءتها، فلم يكن عجبا أن يكون طلاب الأزهر هم خطباء مصر كلها بدءا من

المسجد وانتهاء بالنادى الثقافى، أو الحزب السياسى.

وهل يصدق أحد الآن إذا قلت: إن طلابا فى السنة الثالثة، أو الرابعة الابتدائية كانوا يؤلفون الكتب، ويكتبون القصص وتنشر لهم الصحف؟ خيال أبعد من التصديق وهو أكثر بعدا وخيالا حين نعرف أن فقراء الطلاب كانوا يقومون بنسخ الكتب التى يعجزون عن شرائها من السوق!!

كان فى معهد القاهرة أكثر من خمس جمعيات ثقافية وأدبية منها (جماعة التعاون الثقافى) و(جماعة أبناء الأزهر للخطابة)، و(نادى الأدب العالمى).

كانت روايات المنفلوطى، ومسرحيات وديوان شوقى، ووحى القلم للرافعى ووحى الرسالة وآلام فرتر للزيات يكاد يحفظها بعض طلاب الأزهر كلها عن ظهر قلب، وقد بدأت تجربة للحفظ مع (رسائل الأحزان)، و(أوراق الورد) أما كتاب (ماجدولين) و(الفضيلة) للمنفلوطى فكان فيهما العزاء للكثير ممن تعرضوا لتجارب عاطفية فى الحياة أو الحب !!

كان لعلوم الشرع والنحو وقتهما المقدس عند كل طالب، أما الاشتغال بفنون الأدب والشعر فله أوقات الفراغ بعد مراجعة الدروس المقررة، وحين تتاح الفرصة للحوار والمناقشة.

* * *

فى صحن الأزهر وفى المناسبات الإسلامية.. كان يحتشد فى هذا المكان أكثر من عشرة آلاف عمامة، كل طلبة الكليات وطلبة معهد القاهرة، وطلبة القسم العام.

كان من عادة مشيخة الأزهر أن تحتفل برأس السنة الهجرية احتفالا يحضره الملك، ويخطب فيه شيخ الأزهر، وتلقى فيه الخطب والقصائد، ويدعى

إليه الوزراء وكل رجال الدولة.

مهرجان تاريخي يتجدد على مدار العام يوم المولد النبوى، وفى شهر رمضان، وفى أيام الأعياد، لم تكن احتفالات كتلك التى نراها فى هذه الأيام.. بل كانت مهرجانات يفرض فيها العلم مكانته، ويعزز فيها الأزهر شأنه، ويؤكد فيها شيخه الأكبر سموه وتألقه.

* * *

يقول أستاذنا الشيخ صالح شرف: كنت فى زيارة للشيخ الأكبر "المراغى" فى منزله بحلوان، وبينما نحن جلوس إذ حضر جماعة من الباشوات، فلما جلسوا نادى على واحد منهم قائلا: يافلان دون ذكر لقبه: قم وأغلق النافذة التى وراء ظهرك!!

يقول الشيخ صالح: لقد كان منا نحن العلماء من هو أقرب إلى هذه النافذة من هذا الباشا، ولكن الشيخ أراد أن يستخدم الباشا فى هذه المهمة ليؤكد للعلماء أنهم أعلى من هذا الباشا شأنا ومكانة!!

* * *

كان الشيخ المراغى يسكن فى شارع (رقعة القمح)[1] فى بداية عهده بالدراسة، وحين تولى أمور المشيخة تسلل ذات يوم إلى هذا الشارع خفية حتى اهتدى إلى البيت الذى كان يسكن فيه قبل خمسين سنة.

ثم توقف أمام حجرة دق على بابها دقة خفيفة، لقد كان الشيخ من سكان هذه الحجرة عند قدومه إلى القاهرة، واشتاقت نفسه لرؤيتها بعد هذه المدة الطويلة، كان فى الحجرة طالب يسكن وحده، وحين استأذن الشيخ في الدخول

---

(١) اختفى هذا الشارع الآن.

سمح له الطالب فى حياء ومودة، وبعد برهة سأل الشيخ هذا الطالب أن يصنع له شايا أو قهوة، فاعتذر الطالب لضيق ذات اليد وعجزه عن تحقيق هذه الرغبة.

لقد أنقذ الشيخ الموقف بسرعة، وتصرف بما يليق بشيخ الأزهر فى هذه الحالة، وفى أثناء شرب الشاى أخذ الشيخ يسأل الطالب عن بلده، ودراسته ومشكلاته، ثم عاد يسأله عن الأزهر وشيخه. لقد تكلم الطالب عن كل شىء بصراحة إلا أنه توقف عن الكلام عن شيخ الأزهر، لأنه لا يعرفه ولا يسمح أحد بلقائه!

فقال له الشيخ: ألم تحاول ذلك؟ فقال الطالب: وما فائدة المحاولة إذا كان الشيخ لا يعرفنى؟ فقال الشيخ: ولكن شيخ الأزهر يعرفك، اننى أنا شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغى!!

يا بنى: اسمح لى أن أتردد عليك من وقت لآخر، ففى هذه الحجرة كان مقامى منذ قدمت إلى الأزهر، وفى هذه الحجرة ضاع من عمرى عشر سنوات أو أكثر!!

(.. وحين قامت الحرب العالمية الثانية كان مركز انجلترا فى بدايتها ضعيفا حرجا، إذ توالت انتصارات هتلر على نحو يؤذن بانهزام الحلفاء، واضطرت انجلترا أن تذيع فى الناس أنها تحارب من أجل الإنسانية أمام دكتاتورية النازية وطلب المستر "مايلز لامبسون" [1] من الأستاذ محمد مصطفى المراغى أن يذيع على العالم الإسلامى بيانا يعلن فيه أن انجلترا تحارب فى سبيل الديمقراطية لترعى حقوق العدالة والأخوة والمساواة، وتعاظم على الشيخ الأكبر أن يجرؤ السفير على طلبه، فلم يشأ أن يغفل الطلب كأن لم يكن، ولكنه انتهز فرصة الاحتفال بموسم دينى، فألقى أمام الملك خطبة رنانة توضح ما

(١) السفير البريطانى فى ذلك الوقت.

قاسته مصر والعالم الإسلامى من أهوال هذه الحرب المدمرة، حيث سقطت القنابل على الاسكندرية وبعض المدن المصرية فأحدثت من الضرر النفسى ما فاق الضرر المادى، ثم هتف صريحا بأن مصر تكابد حربا "لا ناقة لها فيها ولا جمل"، وأن المتحاربين فى المعسكرين المتنابذين لا يمتان إليها بسبب!

وانتشرت خطبة الإمام على الأثير فى شتى أنحاء العالم، ففزع السفير البريطانى "مايلز لامبسون" فزعا شديدا، وهاتف رئيس الوزراء "حسين سرى" فى منتصف الليل يطلب منه إقالة المراغى، وفزع رئيس الوزراء تبعا لما شاهد، واتصل تليفونيا قبل الفجر ليحتج على الشيخ المراغى، وينذره بأنه لابد أن يحيطه علما بكل ما يقول قبل أن يخطب به. وبعد أن فرغ "حسين سرى" رئيس الوزراء من كلامه قال له الشيخ: أتريد أن أعرض عليك كلامى؟ من أنت !؟ اننى أستطيع أن أقيلك بخطبة واحدة من فوق منبر الأزهر أو منبر الحسين(١)!!.

* * *

كان المأمون قد وكل "الفراء" ليعلم ولديه النحو، وفى ذات يوم أراد الفراء أن يقضى بعض حوائجه فأسرع ولدا المأمون إلى حذاء الفراء كل يريد أن يحمل هذا الحذاء إليه.. فتنازعا واختلفا، ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما واحدة، وحين علم المأمون بذلك استدعى الفراء إلى قصره ثم سأله:

- قل لى من أعز الناس يا فراء؟

فقال الفراء لا أعرف أحدا أعز فى هذه الدنيا من أمير المؤمنين.

- فقال المأمون: لا.. إن أعز الناس فى هذه الدنيا من إذا قام من مجلسه

---

(١) النهضة الإسلامية المعاصرة - دكتور محمد رجب البيومى ج٢، ص٩-١٠ طبع بمجمع البحوث الإسلامية.

تتازع على تقديم نعليه إليه أبناء خليفة المسلمين[1].

يقول مقاتل بن سليمان: دخلت على "حماد بن سلمة" فإذا ليس فى البيت إلا حصير وهو جالس وفى يده مصحف يقرأ فيه وجراب فيه علمه - أى كتبه - ومطهرة يتوضأ منها.

فبينما أنا جالس إذ دق الباب فقال: ياحبيبة أخرجى فانظرى من هذا؟ فقالت رسول محمد بن سليمان (أى الحاكم).

فأذن له فدخل، فقال: أما بعد: فصبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته. وقعت مسألة فأتنا نسألك عنها. فقال: ياحبيبة هلم الدواة، ثم قال لى: اقلب الكتاب واكتب : أما بعد.

فأنت صبحك الله بما صبح أولياءه وأهل طاعته، إنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحدا فان وقعت لك مسألة فأتنا وسل ما بدا لك، وإن أتيتنى فلا تأتنى بخيلك ورجلك فلا أنصحك ولا أنصح إلا نفسى والسلام!!

قال: أى مقاتل: فبينما أنا جالس إذ دق الباب. فقال: ياحبيبة اخرجى فانظرى من هذا؟

قالت: محمد بن سليمان (أى الحاكم).

قال: قولى له: يدخل وحده، فدخل وجلس بين يديه. ثم ابتدأ فقال: ما لى إذا نظرت إليك امتلأت رعبا؟!!

قال حماد: حدثنى ثابت البنانى قال: سمعت أنسا يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) من أخلاق العلماء ص ١٤١.

(إن العالم إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شيء، وإذا أراد أن يكنز الكنوز هاب من كل شيء)..!!!

* * *

فانظر - رحمني الله وإياك - إلى هذا الميزان الدقيق الذي أقامه المصطفى ﷺ إذا أراد العالم بعلمه وجه الله هابه كل شيء.. فإذا أراد به دنيا فانية، أو عرضا تافها من أعراضها الزائلة كان مثالا للخوف الذي ترتعد به مفاصله. وكان ترجمانا للزيف الذي ينطق به لسانه، وكان فتنة في الدين تنتهي بالناس إلى ضلالة مضلة، وفتنة في الدنيا تهوي بهم إلى درك المهانة والذلة!!

وقد شاء الله سبحانه أن أسافر إلى أقطار عديدة.. حول العالم وأن أمثل مصر والأزهر في أكثر من سبعين مؤتمراً دوليا.. وقد أتاحت لي هذه المؤتمرات وهذه الأسفار أن أرى العالم الإسلامي على حقيقته، وأن أرى الأزهر في كل مكان ذهبت إليه. إن الذي حدث في "رانجون" عاصمة "بورما" لا يخطر ببال أحد، ولا يمكن تصوره وتصديقه لولا أنه وقع وحدث.

* * *

فقد ذهب صحفي مصري إلى المسجد لصلاة الجمعة في هذه المدينة وبعد الانتهاء من الصلاة بحث عن حذائه فلم يجده.. لقد خطر بباله على الفور ما يحدث في مثل هذه المناسبة.. ماذا يفعل وهو غريب ولا يعرف طريق الوصول إلى محل لشراء حذاء جديد؟

وهنا كانت المفاجأة التي لا تخطر على بال أحد، لقد عرف المسلمون الذين كانوا يصلون معه في المسجد أنه من مصر بلد الأزهر.. وبما أنه من مصر ومن القاهرة بالذات فلابد أن يكون حذاؤه هذا قد مس تراب الأزهر..!!

هذا الحب للأزهر جعل الناس يتخاطفون هذا الحذاء ويتبركون به فى نوبة عاطفية جعلت الصحفى المصرى يبكى من شدة التأثر..!!

* * *

فمن يعيد "الأزهر" "أزهر" كما كان الأزهر!!!

وقد كان من عادة الشيخ المراغى أن يدعو أصدقاءه من الوزراء والباشوات لتناول طعام الافطار فى منزله يوما فى كل عام من شهر رمضان. فكانوا - أى الوزراء والباشوات - يصرون على أن يكون الفول والطعمية على رأس قائمة الطعام.

فى حى الأزهر- كان ولايزال - هناك مطعم مشهور اسمه "الحلوجى" وقد اشتهر هذا المطعم بتقديم هذين الصنفين من الطعام.

فكان الشيخ المراغى يوصى صاحب المطعم واسمه"الحاج زكى" باعداد الفول والطعمية ليكونا على مائدة الافطار فى هذا اليوم. وكان من عادة الشيخ المراغى - مع الحاج زكى - أن يمنحه فى هذا اليوم جبة من الجوخ. وقفطانا من الحرير الشاهى، وشالا من الكشمير الحر..!!

وفى إحدى هذه المناسبات قال الشيخ المراغى للحاج زكى الحلوجى:

- يا حاج زكى. لقد شاهدت عندك منذ عامين. جحشا صغيرا مربوطا أمام المحل فإلى أين ذهب هذا الجحش؟

فقال الحاج زكى ضاحكا:

لقد تخرج هذا الجحش الصغير وأصبح حمارا كبيرا.. يا مولانا..!!

* * *

إن قصة "الفول" مع المصريين عريقة.. وقد كان الملك فاروق يحرص كغيره من المصريين على تناول هذه الوجبة الجميلة..! كان هناك محل مشهور فى "دمنهور" اسمه"العاصى" وعندما كان الملك يسافر إلى "الاسكندرية" كان يحرص على تناول الفول من هذا المحل.. فكان صاحبه يحمله إليه فى "قدر" من النحاس المذهب كتب عليه "خاص بجلالة الملك"..!

* * *

فى باكستان. وقد أقمت فيها عاما كاملا. سمعنا عن محل يبيع الفول فى سوق معروف هناك اسمه (أنار كلى).. وكلمة (أنار كلى) معناها "زهرة الرمان" وكان هذا اسما لفتاة فقيرة جميلة جدا أحبها ابن الامبراطور. غير أن الامبراطور رفض أن يتزوج ابنه من هذه الفتاة الفقيرة ثم أمر بحبس هذه الفتاة فى حجرة ضيقة حتى ماتت.. فى المكان الذى يحمل اسمها؟!

ذهبنا إلى صاحب المحل.. وكأنما عثرنا على كنز! وانتشر الخبر- أى خبر اكتشاف الفول- بين الجالية المصرية في مدينة "إسلام أباد" وفى مدينة "كراتشى" فحضر ممثلون عن الجالية المصرية فى هاتين المدينتين لشراء أكبر كمية من الفول..!!

وعندما ذهبنا إلى المحل لشراء هذه الكمية الضخمة التفت صاحبه إلىّ قائلا:

- هل اشترت "السفارة المصرية" خيولا جديدة هذه الأيام؟!!

انهم فى باكستان لا يعرفون شيئا عن هذا الحبيب المجهول! فالفول فى بلادهم تأكله الخيول لا أصحاب العقول..!!!

* * *

ان "الفول" كما يقول الأزهريون هو صديقهم الأوفى..! كما أن هيامهم بأكله أقوى وأشد من هيام "ليلى" بـ "قيس "وهيام " قيس بـ"ليلى".!

ومن النوادر التى لا أنساها حتى هذا اليوم قصة زميلى "الشيخ على" الطالب بمعهد القاهرة الأزهرى.

كان يسكن فى شارع "العطوف" القريب من قسم الجمالية "الشيخ على" هذا أفطر ذات يوم بطبق من الفول "المخدع" أى المخلوط بالطماطم والكمون والثوم والشطة..! مع فحل من البصل الصعيدى الذى كان يضرب به المثل فى هذه الأيام فى حلاوة الطعم والجودة.!

لقد أجهز صاحبنا على هذا كله فى زمن قياسى..! وبينما كان يهم بالخروج إلى المعهد.. شاهد "قلة" قناوية رشح الماء على جوانبها. فبدت قطراته تتلألأ كما تتلألأ حبات "الماس" فى ضوء شمس يوم جميل مشرق.! كانت "الغواية" كبرى.. ولكن الرغبة كانت أشد وأقوى. والا فمن يقدر على إطفاء هذه النار التى اشتعلت فجأة فى جوف الشيخ علىّ؟!

وأمسك صاحبنا بعنق "القلة" ثم صبها فى جوفه مرة واحدة! وخرج الشيخ من بيته متثاقلا بطئ الحركة، ومن أين يأتى النشاط أو القدرة على الحركة بعد هذه المعركة الحامية التى خاضها مع "الفول" فى البيت قبل أن يخرج؟!

أخيرا وصل إلى المعهد.. وما كاد يجلس على مقعده حتى دوى الانفجار "البيولوجى" المنتظر! لقد كان الشيخ يحمل فى بطنه "قنبلة موقوتة" دون أن يعلم..!

وانتشرت فى جو الحجرة.. رائحة كريهة وخانقة.. بعض الطلاب خرج من "الفصل" حتى يزول أثر الانفجار. والبعض الآخر بقى فى مكانه بعد أن سد أنفه

بيده. بينما توقف الشيخ الصالح الشيخ محمد أبو العيون عن الكلام والشرح.
ثم وجه كلامه إلى من بقى من الطلاب فى "الفصل" سائلا عن مصدر الانفجار
وهل وقع هذا الانفجار فى"الفصل" أم هذا حدث بسبب التفجيرات التى يقوم بها
عمال قطع الحجارة فى جبل المقطم؟!

وحين علم الشيخ أن الانفجار الذى وقع كان "محليا" وأنه وقع فى "الفصل"
ولم يأت من الخارج وجه كلامه إلى الطلاب قائلا:

- استحلفك بالله.. يا صاحب هذه "الفعلة" إلا عرفتنى بنفسك!

وهل من المعقول أن يعترف يا مولانا بعد هذه "العملة السودة"!

وعاد مولانا الشيخ الصالح يستحث الطالب أن يقف ويعترف. ولكن هيهات
أن يعترف الشيخ على بعد أن كتم "الفول" نفسه!

* * *

وانطلق الشيخ الصالح يذرع الحجرة طولا وعرضا. وجيئة وذهابا وبينما
كان يمر قريبا من الشيخ على توقف فجأة وقال:

هنا وقع الانفجار...!!!

وقف الشيخ على ليعتذر. غير أن الشيخ الصالح "أبو العيون" وضع يده
على ظهره ثم نصحه قائلا:

- عاهدنى يا بنى.. ألا تحضر إلى المعهد إلا متوضئا، وألا تعود إلى مثل
هذه "الفعلة" أبدا..!

لم يكن يعرف مولانا الشيخ أبو العيون أن هذا العهد أو هذه النصيحة لن
تتحقق!

لأن غرام الشيخ "على" بالفول ـ كما سبق أن قلت.. كان غراما أقوى من غرام ليلى بـ "قيس" ومن غرام "قيس" بـ "ليلى"..!!

* * *

ان الشعب المصرى يتميز بالفكاهة. كما عرف بالنكتة.. إنه الشعب الذى يموت ضاحكا كما سمعت ذلك من مستشرق بريطانى التقيت به فى الاحتفال بالذكرى المئوية لمولد "محمد اقبال" فى مدينة "لاهور" الباكستانية.

لم أنس حتى هذا اليوم قصة "عبده الكتبى" سائق التاكسى فى مدينة بورسعيد.. كنت مدعوا إلى حفل دينى فى "عزبة القابوطى" الواقعة على شاطئ بحيرة المنزلة من جهة الشرق. كانت هذه العزبة صغيرة فى هذا الوقت. وكان معظم سكانها من الصيادين.

بعد انتهاء الحفل أخبرنى ضابط خفر السواحل أن السيارة جاهزة لنقلى إلى بورسعيد.

ولكن أين هذه السيارة؟ لم أكن أرى سوى "كوم" من الحديد ركب على عجلات أربع.!

لم يكن فيها مقاعد بل كان الركاب يجلسون على حشايا ملئت بالورق والقش..!

فلما اكتمل عدد الركاب نادى الأسطى "عبده" على الصبى الذى كان يساعده فى إدارة عربة الموت قائلا:

ـ اربط الأبواب يا ولد..!

يا ليلة سودة.. قلت ذلك وأنا أغالب الضحك المكبوت فى قلبى..!

فجاء الغلام وربط الأبواب بحبل مجدول من القماش كما أمره المعلم..!

ثم عاد مرة ثانية يقول للغلام. اركب. وكانت المفاجأة أن الولد لم يركب معنا.. بل صعد إلى سطح السيارة وجلس على هيئة "شيخ البلد" المعروف عند الفراعنة.!

وفى المرة الثالثة أصدر أوامره إلى الولد أن يشغل "الفتاش" (أى البطارية" التى تحمل فى اليد. فالسيارة لم يكن بها مصابيح للإضاءة.!

ثم بدأ التشغيل أى تشغيل الموتور الذى أبى أن يتحرك.. وإن شئت فقل يتحشرج.. فقد كانت السيارة تعمل بالكيروسين لا بالبنزين..!

وتحركت السيارة ببطء. ثم قفزت مسرعة وهى تتأرجح يمينا وشمالا تارة نحو القناة وتارة أخرى نحو بحيرة المنزلة..!

فجاة صرخ أحد الركاب: الحق يا أسطى عبده .

- العجلة اللى ورا سابت من العربية.!

فرد عليه عبده الكتبى:

- وإيه يعنى.! إنزل هاتها واطلع!!

* * *

لم أنس - حتى ذلك اليوم - وبالرغم من مرور أكثر من ستين عاما - تلك النادرة التى وقعت فى قريتنا بين العمدة محمد بك شلبى والشيخ السيد الفل أو "الوفدى البلعى" كما كان يحب أن يعرف بهذا الاسم.

فقد حدث ذات يوم أن حلف فلاح فى القرية على زوجته بالطلاق ثلاثا بأن "حماه" أى والد زوجته سيدخل جهنم!!!

ولم تكد الزوجة تسمع من زوجها هذا الكلام حتى جمعت ثيابها، وأخذت أطفالها وتركت البيت غاضبة وذهبت إلى أبيها وأمها.

كانت مصيبة كبرى لم يطق الفلاح عليها صبرا. فذهب إلى جميع المشايخ فربما يجدون له حلا.. أو يفتون له فتوى.!

غير أن أحدا من هؤلاء لم يفته بشيء. وتركوه يهيم على وجهه بين "الدار" و"الغيط"!

فجأة لمحه الشيخ "سيد" ونادى عليه.

- مالك .. شايل "طاجن ستك - على رأسك؟

- لقد وقعت فى مصيبة كبرى ياشيخ سيد.. حلفت بالطلاق ثلاثا على زوجتى بأن "أبوها" حيروح جهنم.. فأخذت الأولاد معها وتركت البيت وقد ذهبت إلى جميع المشايخ لأجد عندهم حلا فلم يفدنى أحد منهم بشئ ومنذ ذلك الوقت وأنا أهيم على وجهى كالمجنون بين البيت .و.. والغيط.

- فقال له الشيخ سيد: تاهت ولقيناها.. الحل بسيط جدا يا أبو عمر.

أنا فى عرضك ياشيخ سيد دلنى على هذا الحل فإنى أكاد أموت من الهم.

فقال له الشيخ سيد :

- روح هات حماك ... "وخذه" معك إلى "دوار العمدة". وهناك ستجد العمدة جالسا يتحدث مع بعض الناس.. سلم عليه ثم أخرج بعد السلام أنت "وحماك" فورا.. وبهذه الزيارة تكون أنت و"حماك" قد دخلتم جهنم مرة واحدة!

وبلغت القصة "العمدة" فاستشاط غضبا. وقرر الرد على هذه الإهانة فورا..

كان موسم الفيضان قد اقترب وكان من عادة الحكومة فى هذا الزمان اختيار مائة رجل من كل قرية لحماية جسور النيل من آثار الفيضان.. لم تكن الحكومة تدفع أجرا نظير هذا العمل.. فقد كان ذلك نوعا من "السخرة" وكان الرجل الذى يتخلف عن هذا العمل يعرض نفسه لأشد العقوبة.

لقد أراد العمدة أن يلقن الشيخ "سيد الفل" درسا لا ينساه أبدا . فالعمدة فى قريتنا لم يكن كغيره من العمد بل كان واحدا من بين أربعة "عمد" معروفين فى "مديرية المنوفية" وكان "الباشا" المدير يعتبرهم مستشاريه الخصوصيين فى القضايا المهمة. وامتلأت القرية بالأخبار والشائعات التى تؤكد اختيار "السيد الفل" من بين المائة رجل لحراسة جسور النيل من خطر الفيضان.. وقال "شاهد عيان".. إنه رآه يجلس فى "الخص".. بينما قال فلاح آخر لقد رأيته يضحك مع الناس ويسخر من قرار العمدة والحكومة التى حددت إقامته على جسر البحر.

وأقبل اليوم الموعود..

فقد استدعى "العمدة" نائبه "محمد كريت".. إن إسمه الحقيقى محمد محمد شلبى.. ولا أدرى كيف ألصقت بهذا الاسم "جزيرة كريت" التى أعتقد أن نائب العمدة لا يعرف عنها شيئا!

ثم نادى العمدة بعد ذلك على "ياوره" الخاص الخفير "محمد الزملى". رجل طويل عريض.. فقد كان الخفراء يختارون من أشداء الرجال.. تماما كما كان يختار رجال "البوليس" من العمالقة الأشداء الذين يفرضون هيبة الحكومة وقوانينها على الناس. وكان العسكرى الواحد يرهب المجرمين والخارجين على القانون بمجرد نظرة واحدة فى وجه القاتل أو المجرم.

لقد أمر العمدة "ياوره" الزملى باعداد "الركوبة" للقيام بمهمة رسمية!.. لم يفصح العمدة لنائبه عن طبيعة هذه المهمة.. حتى إذا اكتمل العدد وأصبح كل

شئ على مايرام. ركب العمدة حمارته "الرهوانة" التى كان يضرب بها المثل فى السرعة والقوة.

أشار إلى الخفير الزاملى قائلا:

- إلى جسر البحر!

وهنا... أسقط فى يد نائبه "محمد كريت"! فقد أدرك بحاسته الذكية أن مصيبة ستقع..! وأن ساعة الصفر قد اقتربت. وأن مواجهة حامية بين العمدة وبين السيد الفل واقعة من غير شك!

واقترب الموكب "الملكى" من "الخص"[1] الذى كان يجلس فيه الشيخ "سيد" لقد وضع نائب العمدة يده على قلبه: وأشار إلى الشيخ سيد أن يقف لاستقبال العمدة والاعتذار إليه.

وقد وقف الشيخ سيد فعلا: واتجه إلى حيث يجلس العمدة فوق حمارته ومن ورائه يقف الخفير الزملى..

لقد طار قلب نائب العمدة من شدة الفرح.. فقد كان حريصا على حل مشكلة العمدة مع "السيد"وهنا كانت "المفاجأة" التى لم يتوقعها أحد.. فبدلا من أن يعتذر الشيخ سيد إلى العمدة أمسك برقبة حمارة العمدة وأخذ يقبلها ويضمها إلى صدره. ثم اندمج فى "نشوة غرام" مع هذه الحمارة حتى ظن الواقفون أن الشيخ سيد قد أصابه مس من الجن.!

كان العمدة يبتسم وهو يراقب هذا المشهد فقد ظن كما ظن الآخرون أن المشكلة قد انتهت بينه وبين الشيخ سيد.

---

(١) الخص.. أشبه بالخيمة.. ولكنه يبنى من قش الذرة والقطن.

غير أن الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن، فقد تقدم نائب العمدة إلي الشيخ سيد يسأله عن سر هذه الحفاوة والتقدير، وعن هذا الاحترام والحب الذى يحمله فى قلبه لملكة الحمير!!!

وهنا قال السيد الفل لشيخ البلد ونائب العمدة.

- آه لو عرفت ياشيخ البلد ما عرفته "أنا" عن كرامات هذه الحمارة!

لو عرفت كراماتها كما عرفت أنا ياشيخ البلد لقبلت حافرها قبل رأسها.! وأطعمتها "البندق واللوز.. بدلا من "الفول والتبن" الذى سد نفسها.!

وعاد نائب العمدة يسأل:

- وماذا عرفت أنت من كراماتها ياسيد؟

فأجابه الشيخ سيد قائلا:

ما أعرفه .. كان يجب أن تعرفه قبلى بل وأكثر منى. انظر إلي الحمارة الآن ياشيخ البلد ويانائب العمدة ألا ترى أنها تحمل فوق ظهرها جهنم ولا تحترق!!!

لقد ضحك العمدة من قلبه كما لم يضحك قبل ذلك فى حياته ثم نزل من فوق "الحمارة" وأصدر عفوا شاملا عن السيد الفل وقبل أن يفترق أحدهما عن صاحبه همس العمدة فى أذن الشيخ "سيد الفل".

- لا تنس الدعاء فى صلاتك "لحمارتى" بطول العمر!

وأن تشمل بركتها وكرامتها الحكومة والفلاحين فى عموم "بر مصر"..!!!

وعاد "الوفدى البعلى" إلى القرية مرفوع الرأس بينما كانت الزغاريد تنطلق من درب المشايخ" و... "درب الفقها" وكأنه "سعد باشا زغلول" بعد أن عاد من

المنفى[1]!!!

* * *

والشعب المصرى عميق التدين. نجد هذا التدين واضحا عند المسيحى وعند المسلم.

منذ خمسين عاما وقع فى يدى كتاب اسمه "الأدب والدين عند قدماء المصريين"[2] وفى هذا الكتاب تقرأ عجبا. إن ما كتب أو قيل فى هذا الكتاب لا يختلف كثيرا عما قاله الأنبياء والرسل، وفى وصية الحكيم (آنى) إلي تلميذه (خو نسو حتب) تجد هذا التشابه واضحا فى كل وصية: أوصى بها الحكيم "آنى" تلميذه (خو نسو حتب).

تقول هذه الوصية:

١ـ اخلص[3] لله تعالى فى أعمالك لتتقرب إليه وتبرهن على صدق عبوديتك حتى تنالك رحمته وتلحظك عنايته فانه يهمل من توانى فى خدمته".

٢ـ " لا تتقرب إلى ربك بما يكرهه ولا تبحث أسرار ملكوته فهى فوق مدارك العقول، واحفظ وصاياه، وارشاداته فانه يرفع من يمجده".

٣ـ احترم الأعياد وأد شعائرها وإلا فقد خالفت أوامر الله.

٤ـ لا تستعمل الضوضاء والضجيج فى بيت الله أيام أعيادك وادع ربك تضرعا وخفية بقلب مخلص فذلك أقرب للإجابة.

---

(١) وقد ورث الحاج عبد العليم السيد التاجر المعروف فى شارع الموسكى عن والده ـ هذه الموهبة ـ فى التنكيت والتبكيت والتعامل مع الجن والعفاريت!

(٢) تأليف "أنطون زكرى" دار المعارف ١٩٢٣م.

(٣) الدين والأدب عند قدماء المصريين ـ انطون زكرى ـ دار المعارف ـ ١٩٢٣مـ١٣٤٢هـ.

٥- إذا استشارك أحد فأشر عليه بما تقتضيه الكتب المنزلة.

٦- تتهذب النفوس بالحسنات والترنيمات والسجود.

٧- من اتهم زورا فليرفع مظلمته إلى الله تعالى فإنه كفيل باظهار الحق وإزهاق الباطل.

٨- اجعل لك مبدأ صالحا وضع نصب عينيك فى جميع أحوالك غاية شريفة تسعى إليها لتصل إلى شيخوخة حميدة وتهيىء لك مكانا فى الآخرة فإن الأبرار لا تزعجهم سكرات الموت.

٩- صن لسانك عن مساوئ الناس فإن اللسان سبب كل الشرور وتحر محاسن الكلام واجتنب قبائحه فإنك ستسأل يوم القيامة عن كل لفظة.

١٠- تزوج حديث السن لترى لك ولدا فى ريعان شبابك يكون سببا فى احترامك وإجلالك وبرهانا على صلاحك وتقواك.

١١- لا تهمل الترحم على والديك وتحرّ لهما من أعمال الخير والبر أكثرها نفعا وأرجاها قبولا. ومتى قمت لهما بهذا الواجب قام به لك ولدك.

١٢- ان الله سخر لك أما كابدت كل مشقة حين حملتك وولدتك وأرضعتك وربتك، ولم تأنف من فضلاتك، ولم تسأم معاناة تربيتك، ولم تكل أمرك لغيرها يوما ما، وكانت تبر أساتذتك وتواسيهم كل يوم ليعتنوا بتعليمك. والآن صار لك أولاد فاعتن بهم كما اعتنت بك أمك ولا تغضبها لئلا ترفع يديها إلى الله فيستجيب دعاءها عليك(١).

١٣- اترك لأخيك البيت المشترك بينكما متى رأيت ما ينغصك حرصا على الرابطة العائلية واستبقاء لمودته حتى يكون معوانا لك فى مصالحك الأخرى

---

(١) الحديث الشريف: "الجنة تحت أقدام الأمهات".

المشتركة معه.

١٤- إذا كانت زوجتك كاملة مدبرة فلا تعاملها بالخشونة والغلظة وراقب أطوارها لتكتشف أحوالها. ولا تتسرع معها فى الغضب لئلا تزرع شجرة الشقاق والنزاع فى بيتك فتكون ثمرتها التنغيص فإن كثيرا من الناس يضعون أساس الخراب فى بيوتهم لجهلهم حقوق المرأة.

١٥- إذا كنت قوى الإرادة فلا تدع المرأة تتسلط على قلبك.

١٦- إذا وقعت عينك على جارتك فإياك أن تتمادى أو تتعمد رؤيتها ثانيا. واحذر أن تخبر بذلك غيرك تستوجب الهلاك.

١٧- إياك أن تميل إلى امرأة فتلعب بدينك وشرفك ولا تحدث ضميرك بشأنها فإنها كالماء العميق الذى لا يعرف له قرار. وإذا كاتبتك امرأة تعرف أن زوجها غائب عنها لتوقعك فى شباكها فإياك أن تصبو إليها لئلا توقع نفسك فى حبائل الهلاك. فإن الشهوات طريق للموبقات(١).

١٨- لا تدخل بيت السكير ولو أفادك مجدا وشرفا.

١٩- لا تتردد على محال الخمور احتراساً من عواقبها الوخيمة، لأن لشارب الخمر فلتات يستفظع صدورها من نفسه متى أفاق، وهو دائما مبتذل محتقر عند الناس حتى بين اخوانه الذين يشاركونه فى غروره وشروره(٢).

---

(١) انظر أيها القارئ ما كان عليه الأقدمون من المحافظة على الأعراض، وما وضعوه من العقاب الصارم على الزنا. فقد نقل لنا ديودور الصقلى أنه كان من قوانينهم: أن من أكره إمرأة على ارتكاب الفحشاء حكم عليه بقطع أعضاء التناسل. أما إذا كان بغير اكراه فيحكم على الرجل بألف جلدة وعلى المرأة بجدع أنفها. وكانوا يعدون هذه الموبقة مكونة من ثلاث جرائم جسيمة: الإهانة وفساد الأخلاق والتباس النسل!.

(٢) كان العباس بن على المنصور يأخذ الكأس بيده ثم يقول لها "أما المال فتبليني وأما المروءة فتخلعين أما الدين فتفسدين"

٢٠- النظام فى البيت يكسبه حياة حقيقية[١].

٢١- اسلك سبيل الاستقامة دائما تصل إلى الرتب العالية.

٢٢- كن شهما شجاعا فإن الجبان لا يستفيد من الحياة غير ما وهب الله له[٢].

٢٣- لا تجلس فى حال وقوف من هو أكبر منك سنا ولو كنت أرقى منه رتبة.

٢٤- الزم بيتك ولا تغادره إلا لموجب[٣]

٢٥- إذا لقيت فى طريقك من يتجاهلك فغض طرفك عنه.

٢٦- إذا فاتتك فرصة فترقب غيرها.

٢٧- لا تعاشر الأسافل لئلا تذهب هيبتك.

٢٨- لا تكثر الكلام ولا تتظاهر بالفصاحة فى التحقيق. وتكلم بحجتك بعد التروى والتفكر. فذلك أدعى لخلاصك.

٢٩- لا تجرح بكلامك شعور الناس فيستهان بك.

٣٠- لا تنطق بالشر فتعود عاقبته عليك.[٤]

---

(١) ومعنى ذلك أن يسود النظام بين أفراد الأسرة ولذلك ترى الأمم الراقية تجعل النظام أول مبدأ يغرس فى نفوس الأطفال فينشئون على الأخلاق الشريفة ويرتقون إلى مدارج السعادة لأن النظام صار رائدهم فى جميع أحوالهم وأطوارهم.

(٢) وهذا المعنى هو الذى عناه المتنبى بقوله:

وإذا لم يكن من الموت بد   فمن العجز أن تعيش جبانا

(٣) قال شمس الدين النواجي:

خلوة الإنسان خير   من جليس السوء عنده

وجليس الخير خير   من جلوس المرء وحده

(٤) ومن الحكم (الشر قليله كثير).

٣١ـ إذا قاومت نفسك فى مسراتها استطعت ردعها عن شهواتها[١].

٣٢ـ وانك لا تجنى من الشوك العنب.

٣٣ـ ليكن حديث كل إنسان فى شؤونه ولا تشتغل بشؤون غيره[٢].

٣٤ـ إذ تخلقت باللطف والسكينة صرت محبوبا عند الناس ووجدت منهم عضدا ونصيرا فى جميع شؤونك[٣].

٣٥ـ ليست السعادة بالثروة وحيازة الأموال إنما هى فى استنارة العقول بالفضيلة والتخلق بالقناعة والرضا بالكفاف[٤].

٣٦ـ من تعود الجد والنشاط لا يحتاج إلى حث واستنهاض.

٣٧ـ إذا رأيت ما لا ترضاه فى مجتمع فاجتنبه ولا سيما إذا كنت لا تستطيع التغلب على عواطفك.

٣٨ـ إذا خاطبك رئيسك بحدة وانفعال فابتعد عنه حتى يسكن غضبه. واستعمل اللين والرفق مع كل من يخاطبك بتهيج. فهذا هو الدواء الوحيد لذهاب غيظه

---

(١) وهذا المعنى هو المقصود بقول البوصيرى:

والنفس كالطفل أن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

(٢) ومن الحكم المأثورة: "من اشتغل بما لا يعنيه أدخل نفسه فيما يؤذيه".

(٣) وقيل: "من لانت كلمته وجبت محبته".

(٤) قال الشاعر:

قنع النفس بالكفاف ... وإلا طلبت منك فوق ما يكفيها

وقال أبو العتاهية:

إذا كان لا يغنيك ما يكفيك ... فكل ما فى الأرض لا يغنيكا.

وعلى العموم إن الكلام اللين يجذب القلوب(١).

٣٩- لا تستسلم إلى اليأس والقنوط مهما قام فى سبيلك من العقبات والشدائد(٢).

٤٠- الزم الصمت إذا لم يكن داع للكلام(٣).

٤١- إذا اتخذت وكيلا فانتخبه أمينا عاقلا وثق به مع مراقبته فاذا كان حازما نسب لك هذا الحزم.

٤٢- لا تثق بالناس المجهولة مبادئهم ولو خادعوك بتقديم أنفسهم لخدمتك متظاهرين بالاخلاص فانهم يجرونك إلى الخراب العاجل(٤).

٤٣- تنبه فى أعمالك ولا تتهاون فيها فإن التهاون عاقبته الخيبة والبؤس.

---

(١) وقد قيل:

بنى أن المجد شىء هين وجه بشوش وكلام لين

الكلام اللين يلين القلوب ولو كانت أقسى من الصخور والكلام الخشن يقسى القلوب ولو كانت ألين من الحرير.

نظر فيلسوف إلى رجل حسن الوجه خبيث النفس فقال: "بيت حسن وساكنه نذل".

(٢) قال حكيم: إذا عاقتك العقبات فى طريقك وأرجعتك إلى الوراء مرة فلا تضعف قوة إرادتك فإنك متى كنت نشيطا مقداما كنت كالماء الذى يفتح لنفسه طريقا تراكمت وارتفعت أمامه الصخور.

(٣) ونظير هذا قول الشاعر:

إذا لم تجد قولا سديدا تقوله فصمتك عن غير السداد سداد

(٤) وهذا مطابق للمثل المشهور (الثقة بكل إنسان عجز).

وقال الشاعر:

وإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول فى الدنيا على رجل

٤٤ـ إذا كنت متبحرا فى العلم فليكن علمك منقوشا فى صحيفة فؤادك(١).

٤٥ـ إذا وليت منصبا أظهر براعتك فيه لتؤهل نفسك لأرقى منه.

٤٦ـ العالم ذو منزلة عند الكبراء مهما كان فقيرا لأن عز العلم ثروته ومجد العلم حمايته.

٤٧ـ إذا جاءك ضيف فأنزله منزلته من التحية والإكرام وتلطف معه لتعرف الغرض من زيارته. ثم حادثه ببشاشة ولا تسمح له بالتطرف فى الحرية حتى يخرج عن حدود الاحتشام.

٤٨ـ إذا أكلت وحولك من ينظر إلى طعامك فاطعمه منه ولو شيئا يسيرا، فكم رجل كان فى نعمة ورئاسة، فأصبح فى بؤس وتعاسة والنعمة لا تدوم إلا مع المحسنين.

٤٩ـ لا تكن شرها فان الإنسان لم يخلق ليأكل دائما بل يأكل ليحيى حياة طيبة يجعلها طريقا للحياة الأبدية.

٥٠ـ كل شيء يأتى عليه الدهر لابد أن يتغير وضعه حتى يفنى أثره. ومن كان مطيته الليل والنهار فلابد أن ينهار، فكم تغيرت الأنهار بالجزر والمد من مبدأ خلقتها، وإذا كان التغير والتحول من لوازم الطبيعة فلا يوجد رجل واحد ذو إرادةثابتة.

٥١ـ الحب أعمى لأنه يصور قبيح المحبوب جميلا لشدة ميل النفس إليه(٢).

---

(١) وهذا مثل ما قيل: "والعلم فى الرأس لا فى الكراس وفى الصدور لا فى السطور".
وقال الشافعى:

علمى معى حيثما يممت ينفعنى   قلبى وعاء له لا بطن صندوق.

(٢) وقد جاء فى الأثر:

(حبك الشيء يعمى ويصم) أى: يعمى عن الرشاد ويصم عن المواعظ.

انتهت وصايا الحكيم (آنى).

غير أن هذا التدين الفطرى عند المصريين لايزال حيا وباقيا. حتى العصاة والمجرمون تجد عندهم هذا التدين كامنا وواضحا.

فاللص الذى يتسلق المواسير لسرقة الأدوار العليا يبدأ عمله بقراءة الفاتحة..!

ومنذ سنوات عقد اللصوص والنشالون مؤتمرا خاصا بهم فى حى المهندسين أقسموا فى بدايته على المصحف..!!!

وقد حدثنى أحد الأصدقاء عن رجل اسمه "أبوسريع" كان متخصصا فى أعمال "القتل" فى نجوع الصعيد. وبخاصة لمن لا يكون لهم رجل يأخذ بثأر القتيل..!!

قال هذا الصديق:

ذهبت امرأة اسمها "بهانة" إلى "أبوسريع" وهى تنوح وتولول على زوجها الذى قتل قالت المرأة:

- قتلوا زوجى .. وليس عندى من يأخذ بالثأر وقد بعت الجاموسة التى لا أملك غيرها. فخذ الجاموسة واقتل فلانا الذى قتل زوجى..!

قال الصديق:

لقد انتفض "أبوسريع" غاضبا. ثم وجه كلامه إلى المرأة قائلا:

عيب.. خذى "فلوسك" وعودى إلى بيتك. فسأقتل قاتل زوجك لوجه الله تعالى..!!!

* * *

و(أنا) إنسان يحب وطنه... أحب مصر التى كانت كما قال "ابن خالدون":

أم الدنيا، وبستان العالم. وكرسى الملك.. وايوان الإسلام. ومن أجل مصر.. وبسبب هذا الحب عرفت السياسة وخضت معاركها مبكرا..!!!

كنت "وفديا" بحكم الوراثة. وانبهرت بحماسة المرحوم "أحمد حسين" زعيم"مصر الفتاة". وأعجبت بشخصية المرحوم"حسن البنا" المرشد العام للاخوان المسلمين.

غير أن المفاجأة الكبرى جاءت من الشيوعيين. فقد حاولوا تجنيدى أكثر من مرة.. أما لماذا؟ فلنبدأ القصة من أولها:

فى الأربعينات من هذا القرن كان الأستاذ محمد صبيح أحد الرجال البارزين فى حزب..."مصرالفتاة" يصدر سلسلة ثقافية عن الزعماء والقادة وفي حلقة من هذه السلسلة أصدر كتابا عن "ستالين" ضمنه كثيرا من الآراء ـ الجديدة عن الشيوعية وعن أفكارها السياسية والاقتصادية وعن موقفها من الدين والعقيدة وحاول فى كتابه أن يقدم الحقيقة كما يراها ويعتقدها وأن يميز بين الزيف والحقيقة في الدعاية الموجهة إليها وكان صدور هذا الكتاب فى حد ذاته ونشره فى حينه ظاهرة جديدة تسمح على الأقل بمناقشة هذه القضية والأذن بممارسة الفكر لقضاياها النظرية والفلسفية .

ولأول مرة فى تاريخ مصر ظهرت بعض الصحف والمجلات التى تتكلم صراحة عن الشيوعية... (الجماهير) و(الملايين) و(أم درمان) وهذه الأخيرة كانت مجلة يصدرها شيوعى سودانى اسمه عبده ذهب ـ وقد أصبح الآن من رجال الأعمال فى السودان ويدير كازينو للترفيه والتسلية واللعب...!

أما مجلة "الجماهير" فقد كان يرأس تحريرها لطفى الخولى الذى كان يرأس تحرير مجلة "الطليعة" التى كانت تصدرها مؤسسة الأهرام فى القاهرة.

كما ظهرت بعض المكتبات التى تبيع الكتب الشيوعية بأثمان زهيدة وكان من أشهر هذه المكتبات مكتبة فى ميدان "سليمان باشا" أسسها المليونير اليهودى "هنرى كورييل".

لم أكن أترك كتابا أو مجلة من المجلات فى هذه الفترة كنت تواقا إلى المعرفة نهما لكل جديد فى الفكر والثقافة... وبالرغم من ثقافتى الأزهرية... وتربيتى الدينية العميقة فقد كنت أؤمن فى قرارة نفسى وبإقناع صادق من إيمانى وعقيدتى أن المسلم الحق لا ينبغى أن يغمض عينيه عما يدور حوله.. وأن الواجب الدينى يفرض على أن أعرف وأتعلم وأبحث وأناقش وأن على العالم المسلم أن يكون أشبه بجهاز "الرادار" يرصد كل حركة فى الأفق ليتبين مواقع الخطر ويحدد أماكن الهجوم والدفاع أو يكون كالطبيب يدرس كل الأمراض والعلل ويعرف حركة الميكروب والجراثيم وإلا كان هو نفسه أول الضحايا.

* * *

لهذا كله لم أكن أضيق بالرأى المعارض... ولم أكن أقف موقف الكثيرين من مخالفيهم فى الرأى وقد أكسبنى هذا الموقف صداقة بعض الشيوعيين فى هذه المرحلة.. كان هناك مقهى فى حى"خان الخليلى" يسمى (زهرة إيران كان صاحب هذا المقهى من الايرانيين الذين استوطنوا مصر[1] وكنا نلتقى فيه بعد انتهاء الدراسة فى المعهد أو فى أيام الاضرابات التى كانت كثيرة فى هذا العهد... كان الشيوعيون يعرضون على قراءة صحفهم... فيفاجأون بأنى قد قرأتها قبلهم... ويوما بعد يوم أنسوا بى واطمأنوا إلى فعرض على أحدهم

---

(١) لقد آلت ملكية هذا المقهى إلى الرجل الشهم وابن البلد الأصيل الحاج سعيد هيكل الذى انتقل إلى رحمة الله منذ سنوات.

واسمه م.ع.ف وقد أصبح فيما بعد من زعماء الحركة الشيوعية ـ أن نلتقى مساء فى المقهى فوافقته على اللقاء فى الموعد الذى حدده ثم أخذنى بعد ذلك إلى حى (عابدين) وسرنا معا من حارة إلى حارة ومن زقاق إلى زقاق وانتهى بنا المطاف إلى مقهى حقير متواضع يجلس فيه بعض الأخوة النوبيين... وبعد تناول الشاى الثقيل المر... أخرج من جيبه وريقات ثم بدأ يقرأ منها:

ـ ما هذا؟

ـ قلت للرفيق "م.ع.ف" متسائلا...

ـ أنها المادية الجدلية...

أو المنطلق التاريخى للنظرية الشيوعية أو (المتن) الحقيقى لكتاب (رأس المال) كما نقول نحن فى دراستنا الأزهرية... وتركته يقرأ.. ويشرح.. ويفسر.. لم أقاطعه ولم أظهر استيائى منه.. لقد انخدع "الرفيق" بسماحتى الفكرية.. وتوهم المسكين أننى (جاهز) للتحول إلى الماركسية اللينينية ـ اننى أقرأ الصحف والمجلات الشيوعية وأخطب فى الطلاب وأقودهم فى المظاهرات الوطنية.

فكيف لا أكون رغم ذلك عضوا فى الحركة الجديدة...؟ ولماذا لا أتحول بقدرة (ماركس ولينين) إلى الطبقة البروليتارية المجيدة؟!

* * *

وتكررت اللقاءات والقراءات.. وفى الجلسة الأخيرة مع آخر صفحة من الكتاب شكرت الرفيق على هذه الفرصة التى أتاحها لى لدراسة الماركسية والمادية الجدلية وتزويدى بتلك المعلومات الحافلة بالألغاز واللوغارتمات والافتراضات الوهمية والخيالية...!!!

ونزل كلامى عليه كالصاعقة كيف خدع هذا الوقت كله؟ وكيف غرر به

طوال أسبوع كامل يدفع فيه ثمن تذكرة الترام وثمن أقداح الشاى وأحيانا ثمن العشاء الذى كنا نتناوله فى أوكار الظلام...؟

* * *

لم يكن يذكر الشيوعيون فى هذه المرحلة شيئا عن العلاقة بين الشيوعية والدين أو كان هذا على الأقل مع الذين لم يصبحوا بعد أعضاء ملتزمين في الفكروالتنظيم.

وجاء عام ١٩٤٧م الذى وافقت فيه هيئة الأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين لقد أحدث القرار موجة سخط شديدة بين العرب والمسلمين... وكان الرأى العام فى مصر يغلى غضبا من هذا الموقف المشين كان العالم العربى كله والعالم الإسلامى كله يدين القرار.. وفضح المؤامرة. ويحاول منع وقوع الجريمة.

* * *

وفى ميدان الأزهر... وأنا فى طريقى إلى شارع الغورية متجها إلي حى الحلمية الجديدة التقى بى فجأة (ع.ع) وهو رفيق شيوعى ثم أخذ يناقشنى الرأى فى موضوع التقسيم. ويقرر أن هذا هو الحل الوحيد السليم. وأن صيحة الجهاد والفداء كلمات بالية من صنع الرجعية والبورجوازيين.

إذن فهذا هو الموقف الشيوعى من قضايا الوطن ومن المقدسات ومن فلسطين.. الجهاد.. خرافة. والفداء "غباء ورجعية" وإعطاء فلسطين للغزاة الهمج هو الحل الوحيد للقضية.

لم أستمر فى المناقشة ... لقد كانت صدمة عنيفة لمشاعرى الإسلامية والوطنية. ومضيت في طريقى وأنا أفكر فى هذه الخيانة. وكيف يجرؤ عربى أو مسلم على اعلانها كهذا ببساطة.

ومر عامان على هذه الحادثة. قسمت فلسطين.. واندحرت سبعة جيوش عربية وسيق الآلوف من المواطنين إلى المعتقلات والسجون فى معظم البلاد وكنت واحدا من الذين ألقى بهم فى "هايكستب" وهو معسكر أمريكى من مخلفات الحرب تحول بين يوم وليلة إلى معتقل يضم فئات كثيرة من الشعب.

* * *

وشاءت المقادير أن يكون مقامى فى "عنبر" يضم بعض الشيوعيين والصهيونيين والوفديين والاخوان المسلمين.. كل الصراعات والأيديولوجيات كانت مجتمعة فى هذا المكان.. كان هناك "هنرى كورييل" و"سوسوحزان" و"ريمون دويك" وغيرهم من زعماء الصهيونية والشيوعيين وكان هناك "ج.م" و"م.ج" من شباب الطليعة الوفديين كما كان هناك مجموعة بارزة من قادة الاخوان المسلمين.

الصراعات لم تكن تنتهى ... والجدل والحوار لا يتوقف، والاحتكاك الدائم لا ينقطع، والمجاملات الضرورية التى يفرضها الموقف كانت فرصة أخرى لتبادل وجهات النظر فيما يعرف وما لا يعرف.

* * *

وفى أحد الأيام دخلت عنبرا يقيم فيه مجموعة من تلامذة معهد دمياط الأزهرى. كانوا حوالى أربعة عشر طالبا جئ بهم إلى المعتقل فى قائمة خاصة تبرع بها أحد الجبناء لحساب السلطة كانت أعمارهم تتراوح بين الثانية عشر والرابعة عشر. لم يكن لهم أى انتماء سياسى. تقرب بهم الشيطان الآدمى على مذبح الخسة والنذالة... وكانت هذه البراعم النقية فرصة للاغراء والاغواء من اللجنة المركزية...!!

رأيت رجلا يجلس فى منتصف الحلقة.. يلبس شورتا وقميصا فوقه وكانت تربطنى بهؤلاء الأخوة الصغار محبة عميقة. فما كدت ادخل عليهم حتى هبوا جميعا لاستقبالى. وأيقن الجالس ذو الشورت والقميص اننى "ذو شأن" فقام من مكانه وحيانى.

- اسمى : هنرى كورييل.

- أهلا وسهلا... هل أنت السيد هنرى كورييل..؟

- نعم يا مسيو..

- لست مسيو ولا مستر أنا مصرى مسلم.

- التقدمى لا يفكر فى مثل هذه الأشياء.

- تقدمى ...؟ مامعنى هذه الكلمة..؟

اشرحها لنا من فضلك...

* * *

واسترسل المليونير اليهودى الصهيونى الشيوعى يشرح ويحلل ويتناول كل ما يخطر بباله.

والحق أننى لم أفهم تسعة أعشار كلامه أما الطلبة الصغار فقد انشغلوا عنه. بخناقة مع المتعهد الذى اختزل طعامهم إلى خمس قيمته.. ووزع الباقى. بينه وبين الحراس الذين اقبلوا لتحيته.!!

وأخيرا انفجرت القنبلة.. لقد اعترف الرفيق الشيوعى بأنه ملحد وأن الدين والشيوعية لا يلتقيان أبدا. وأن فلسفة ماركس وانجلز ولينين هما الدين الجديد للعالم كله.

كيف ناقشته...؟

كيف أحس بالعرق يتساقط من جبينه والكلمات تجف من حلقه؟ والهزيمة تعريه مما بقى من زيفه؟ شئ لا أدعيه لنفسى..

لقد كان توفيقا من الله ربى...

وجاء الرفيق سوسو حزان يدعو الزعيم كورييل للغداء... فلم ينس أن يقول وهو يغادر مكانه..

ـ لا تنس يا مسيو... أن الشيوعية تنتشر الآن فى كل مكان.

ـ أوافقك يا مسيو كورييل على ذلك. لأن الأوبئة كما تعلم موجودة فى كل بقعة من بقاع الأرض(١)...!!!

ومرت سنوات لم أعد أسمع فيها بهنرى كورييل ولا ريمون دويك حتى جاء عام ١٩٦٥م وسمعت أن الزعيم الجزائرى المسلم هوارى بومدين قد أمر باخراجه من الجزائر مع كل هنرى كورييل آخر.

ومنذ ذلك الحين.. رسخ يقينى بالعداء والتعارض بين الوطنية والشيوعية وبين الإسلام والماركسية... وتساءلت بينى وبين نفسى ماذا يكون الإنسان بدون إيمان وعقيدة..؟ وأى شئ يكون هذا الإنسان حين تختنق فى نفسه الغيرة على الدين والوطنية.

* * *

ولكننا عشنا حتى رأينا عجبا.

فالشيوعية لم تكن وحدها فى هذا المسلك لقد فعل فعلتها كثيرون من

---

(١) كان هذا اللقاء فى عام ١٩٤٩م.

العرب، وقال قولتها أناس محسوبون على المسلمين بالاسم والنسب.

ففى مجلة تصدر فى دولة عربية قال واحد من أولئك الممسوخين : إن الله والدين دمى يجب أن تحال إلى المتحف...!!!

وأنقل هنا حوارا دار بين مسخ من هؤلاء المسوخ الذين يسمون أساتذة وبين فتاة تدمت لاختبار شخصى لتكون مدرسة:

س- أنت تقولين : إن نصف المجتمعات تعتبر الجنس جريمة فماذا يجب أن تسميه إذن...؟

جـ- انه عمل طبيعى عادى...!

س- إذن فأنت توافقين على ممارسة الجنس مع أى شاب يا أميمة..؟

جـ- لا مانع عندى إذا نال الشاب إعجابى...

س- إذن ما الفرق بينك وبين المومس...؟

جـ- المومس تأخذ أجرا- أما أنا فأمارس للذة الجنس فقط...!

س- هل الفتاة التى تنتقل بين أحضان الرجال شريفة...؟

جـ- نعم شريفة...

طالبة أخرى:

أنا أؤيد أميمة وأزيد أن الجنس مثل الطعام والشراب والضرورات الأساسية...؟!

مثال آخر:

فى الفحوص المدرسية والبعثات العلمية والرحلات الثقافية خمسون علامة

توضع أساسا للمنتسبين للحزب.. يوجد سؤال لابد منه فى مجموعة هذه الأسئلة التى يتوقف عن الإجابة عليها نجاح الطالب أو رسوبه. تثبيته أو فصله.

يقول السؤال:

إذا وجدت فى غرفة وأنت جائع وكان الخبز فى مكان مرتفع لاتصل إليه يدك إلا إذا ارتقيت على سلم من نسخ القرآن التى ليس فى الغرفة غيرها مما يمكن الارتقاء عليه فهل تظل جائعا.. أم تدوس على نسخ القرآن..؟!!!!

هل تريدون مزيدا...؟

ولكنى كفى..كفى... فالكوارث التى مرت بالأمة العربية كافية لاحياء الموتى... ولكن العرب وحدهم هم الذين يزيدون بهذه الكوارث والنذر موتا ...!!

* * *

وفى هذه المرحلة من العمر .. نزلت ضيفا فى معظم أقسام "البوليس" فى ألقاهرة المحروسة.

من قسم الجمالية إلى "التخشيبة" فى قسم الخليفة.

ومن قسم عابدين والموسكى إلى قسم الجمالية وشبرا والساحل، ومن قسم الدرب الأحمر إلى قسم روض الفرج.

ولم أنس حتى هذا اليوم حكاية النشال المحترف (سيد بشلة) ومساعده(عنتر) (أبوشفتوره) ففى قسم الجمالية الواقع خلف مسجد الإمام الحسين، والقريب من الجامع الأزهر قضيت ثلاثة أيام أثر مظاهرة قام بها طلاب الأزهر احتجاجا على تقسيم فلسطين.

وبينما كانت المظاهرة تتجه من ميدان الأزهر إلى ميدان العتبة... أقبلت

الشرطة بقيادة مأمور قسم الجمالية وكان اسمه الصاغ "السيسى" لم يتحمل الطلبة ضرب العصى التى انهالت فوق ظهورهم. فطرحونى أرضا حيث كانوا يحملوننى فوق أكتافهم! ثم انطلقوا هاربين إلى شارع الغورية، وشارع "التبليطة" وشارع الموسكى وتركونى وحدى أواجه المأمور الشرس ومن معه من جنود "بلوكات النظام" التى كانت تمثل قوات الأمن المركزى فى هذا الزمن.

وفى قسم الجمالية ألقى بى فى بدروم تحت الأرض لم يكن فيه سوى "سيد بشلة" ومساعده الوفى "عنتر أبوشفتورة"!!

وفى مثل هذه الأمكنة تزول الفوارق وتتلاشى نزعات الجريمة والشر أو تضعف.. وتعود إلى الإنسان إنسانيته التى افتقدها فى عالم الجريمة والنشل! لقد فوجئت به وهو يقدم إلى رغيفا وقطعة من الحلوى! لقد طفرت الدموع من عينى.. وشكرته من قلبى.

ثم بدأت أسأله ويسألنى:

قال لى "سيد بشلة":

قل لى يا بيه أنت نشل ولا مخدرات؟!!

– لا هذا ولا هذا ياعم سيد.. ثم ذكرت له قصة القبض على، وما فعله معى مأمور القسم.

فجأة انتفض "سيد بشلة" واقفا. وهو يلعن المأمور والشرطة والملك والحكومة..!!!

ثم بدأ يقص علىّ حكايته مع مأمور أخر فى قسم الخليفة.. يقول "سيد بشلة":

– ان هذا المأمور لم يتركه أسبوعا واحدا فى بيته. فكلما وقعت حادثة نشل.. حتى فى "جبل المقطم" أو"القرافة" أمر بالقبض عليه واحضاره إلى القسم. فاتفق مع مساعده "شفتوره" على تأديب هذا المأمور بطريقة لم تخطر على بال أحد من قبل.

وفى احدى المرات التى أخذ فيها إلى القسم. طلب من مساعده "شفتوره" أن يملأ له صفيحة ماء فارغة بفضلات "المجارى" الغليظة..!! وانتظر حتى دخل المأمور مكتبه. وفجأة اقتحم باب المكتب ومعه مساعده الذى كان يحمل الصفيحة. ثم أغلق باب المكتب وقال لمساعده:

* دبرنى يا وزير!

* التدابير لله يا ملك!

* يخلصك ياوزير أن المأمور ابن الـ... يقبض علينا كلما حدثت واقعة نشل، ويرمينا زى الكلاب فى السجن.

* لا ... ما يخلصنيش ياملك.!!

* طيب نعمل فيه ايه ابن الـ...؟

* لبسوا الصفيحة..!!

– وهنا انطلق المأمور يصرخ ويقول:

عيب ياسيد.. عيب ياسيد..!

غير أن "سيد" لم يأبه باستغاثة المأمور ولا صراخه، ثم أمسك بالصيفحة. وصبها كلها فوق رأسه..!!!

– يقول "سيد":

لقد حكموا علىّ بسبب هذه الحادثة بالسجن ثلاث سنوات، وبعد أن قضيت المدة وخرجت من السجن استدعانى مدير المباحث قائلا:

* عايزك تبطل النشل.. وتشتغل معانا!

- فقال له سيد:

اشتغل معكم فين ؟

فقال مدير المباحث:

تشتغل مرشد:

فقال له سيد:

آه .. عايزنى اشتغل"داسوس" أى: جاسوس على اخوانى وحبايبى... دا أنا لحم اكتافى من خيرهم!!

دا .. أنا بعد ست أشهر حاترقى (هفاف). أى نشال من الدرجة الأولى..!!

فسأله مدير المباحث:

يعنى إيه هفاف؟

فقال"سيد" النشال لمدير المباحث ومساعديه الذين كانوا يقفون معه = تعالوا هنا وأخذ يدور حولهم واحدا بعد واحد.

- ثم قال:

كل واحد يطلع محفظته أو المفاتيح التى فى جيبه؟

وكانت المفاجأة أن أحدا منهم لم يجد فى جيبه مفتاحا ولا محفظة!!!

لقد استطاع "سيد" أن يثبت" عمليا" أنه جدير بالترقية التى "تنتظره" في أكاديمية النشل!! وأنه يستطيع أن يسرق "الكحل" من العين كما يقول المثل..!!!

– لقد أذهلنى هذا الموقف من (سيد بشلة) وأكبرت فيه وفاءه ومروءته حين رفض أن يكون جاسوسا أو مرشدا على أخوانه، وقارنت بين موقفه هذا وموقف بعض العقائديين الذين باعوا اخوانهم ورفاقهم بلا ثمن..!!!

* * *

وقد عرفت أشهر السجون والمعتقلات فى مصر من "هايكتسب" إلى جبل "الطور" ومن سجن" قرة ميدان" الذى كان يعرف بسجن "مصر"! إلي مزرعة "طرة" وسجن "القلعة"..

أما "السجن الحربى" فحكايته حكاية يجب أن تروى..!!

سأتكلم عن أول ليلة وأول يوم فى هذا السجن فقط!

ولماذا أعذب القارئ وأعرضه للاكتئاب.. وفى قضية شخصية لا شأن له بها من قريب أو بعيد..!!

* * *

فى الساعات الأولى من صباح اليوم الخامس من شهر نوفمبر ١٩٥٤م نودى علينا بالنزول من العنابر.. عنابر سجن "قرة ميدان" الذى كان معروفا باسم "سجن مصر" فنزلنا..!

وصاح أحد الضباط:

– عد.. واحد اثنان ثلاثة.. مائة.. أربعمائة.. إلخ وعاد الضابط لاصدار أوامره مرة ثانية:

- ضعوا "الكلبشات" فى أيديهم..!

ومددنا أيدينا إلى العساكر ليضعوا فيها "الكلبشات"..!

وصاح الضابط للمرة الثالثة:

- كل اثنين فى "كلبش" واحد.. ومعه حق.. فلم يكن هناك من "الكلبشات" ما يكفى كل هذا العدد الهائل من المعتقلين.!! وكان نصيبى أن أكون فى "كلبش" واحد مع شيخ كان يعمل إماما وخطيبا فى مسجد الخازندارة الشهير فى حى شبرا..

- والآن.. إلى "البوكسات"[1].. بهذا أصدر الضابط أمره الأخير إلى الحرس والمعتقلين.

* * *

وانطلقت بنا السيارات فى عتمة الليل إلى المجهول.. لكن إلى أين؟ لاندرى إلى أين.. وما كادت السيارات تنحرف بنا إلى جهة الشرق.. حتى صاح "خبير" بمواقع السجون والمعتقلات فى مصر..!!

- إلى السجن الحربى..

لم أكن أعرف عن السجن الحربى أى شىء سوى هذه المعلومات القليلة التى سمعنا بها بعد قيام الثورة حين قرر القائمون على هذه الثورة ايداع الضباط الموالين للملك فى هذا السجن..!!

كان قائد السجن فى هذا الوقت اسمه "الصاغ" محمد نديم. إننى لا أزال أحفظ اسمه منذ ذلك التاريخ.

---

(١) البوكس كلمة انجليزية معناها صندوق Box لأن العربة تشبه البوكس!

أمام بوابة السجن الخارجية أمرنا بالنزول.. فنزلنا ..

– فكوا الحديد.! ففكوا الحديد من أيدينا ..

فى هذه اللحظة.. أقبل أحد ضباط السجن الحربى ليتسلم القطيع..!!!

بينما انصرف الضابط الأول إلى "البوكس" ليعود بقطيع جديد؟!

* * *

كنت ألبس العمامة فى هذا الوقت فقد كنت أتصور أن هذه العمامة قد تكسبنى "حصانة" إذا أعلنت الحرب أو وقعت أسيرا فى أيدى الروس أو الصرب.! وقد اكتشفت أننى كنت واهما. فما كدت أدخل من بوابة السجن التى صرخ فى وجهى أحد الزبانية من الجند:

– حتى أنت يا ابن... ... يا بوعمة سودة عايز تبقى رئيس جمهورية..؟!!!

– قلت للشيخ سيد زميلى السابق فى حلقة "الكلبش"

– لا تهتم بما يقوله هذا الفسل(١)"! إنه جندى جاهل لايعرف من الشيخ؟!!

* * *

وما كدنا ندخل السجن حتى وجدنا أنفسنا محاطين بالزبانية من كل نوع ومن كل صنف.. فريق يحملون الكرابيج.. وفريق تخصص فى الضرب بالنبابيت.! وفريق ثالث صنع لنفسه سوطا من أسلاك الكهرباء المجدولة على شكل كرباج..!

وانفجر البركان فى أقل من ثانية.. لقد أعلنت الحرب.. وصدرت الأوامر بالهجوم والضرب.!

(١) فسل: أى ردئ.

- إنه لقول فصل وما هو بالهزل.. ياشيخ سيد!

قلت له هذا فى الوقت الذى وقع فيه الشيخ سيد مغشيا على الأرض.!

وقد تمت هذه المعركة فى القضاء الفاصل بين مكاتب إدارة السجن ... والسجن.. أى أن هذه المعركة لم تكن سوى "بروفة" لمعركة قادمة أشد.!

* * *

كان السجن الحربى يتكون من عدة سجون.. سجن كبير.. وتوابع أخرى أصغر منه.. فى السجن الكبير بدأت "الجولة الثانية" من المعركة.!

فى ساحة هذا السجن توجد بقايا حديقة منذ أيام الإنجليز الذين أقاموا هذا السجن. لم يكن قد بقى من هذه الحديقة سوى أوراق ذابلة تنتظرالسقوط.. وجذوع أشجار جافة تنتظر الموت..!

أمرونا بالطواف حول هذه الحديقة"الميتة" جريا بالحركة السريعة..! واستمر التعذيب والضرب أكثر من ساعة.! بحثت عن العمامة التى كانت فوق رأسى. لقد نسيت أنها تلاشت ومزقت فى الجولة الأولى من المعركة.! ومنذ ذلك التاريخ لم يعد لهذه العمامة مكان.. لا فى رأسى.. ولا فى قلبى..!!!

واستأذنك أيها القارئ فى رواية قصة أخرى عن "العمامة".. وقد وقعت أحداثها هذه المرة فى إسرائيل.. لا فى مصر المحروسة..!

كان المرحوم الدكتور الحسينى هاشم وكيل الأزهر الأسبق يعمل فى بداية حياته مدرسا فى معهد"غزة" الأزهرى.. وحين وقع العدوان الثلاثى.. كان الدكتور الحسينى من بين الذين اعتقلتهم إسرائيل فى مدينة "غزة".

يقول الدكتور الحسينى:

فى المعتقل كنت إذا مررت على أى ضابط.. أو جندى. وقف. وعظمنى..!..
وفى كل مساء.. يأتى إلىّ ضابط ليسأل إن كان هناك أى شئ يضايقنى..!...
لقد عرفت قيمة "العمامة" منذ ذلك الوقت، ولو كان الأمر بيدى لأوصيت أن توضع عمامتى- إذا مت- فوق القبر..!

ويقول الدكتور الحسينى:

بعد الإفراج عنا.. رجعنا إلى القاهرة عن طريق مدينة الاسماعيلية.. لقد أحاط بى المصوريون والصحفيون يسألوننى عن الكيفية التى كانت تعاملنا بها إسرائيل فى المعتقل.. وحين بدأ الشيخ الحسينى يتكلم عن المعاملة التى كان يعامل بها.. صرخ هؤلاء الصحفيين فى وجهه وقالوا:

لا تقل هذا.. بل قل: إنهم كان يدوسون على العمائم.. كما كانوا يحرقون المصاحف..!!!

بل حدث ذات مرة فى "لندن" أن المرحوم الدكتور عبدالجليل شلبى الأمين العام السابق لمجمع البحوث الإسلامية- وكان يعمل إماما وخطيبا فى المركز الإسلامى فى ذلك الوقت أن قال لى:

- تعال معى لتعرف كيف يتعامل اليهود مع الناس هنا... ذهبنا معا إلى شارع معروف هناك اسمه"ادجوار رود".. كان يوجد فى هذا الشارع محل لبيع واصلاح النظارات صاحبه يهودى اسمه"ابراهام" ماكدنا ندخل المحل حتى وقف"ابراهام مرحبا بالشيخ.

- أى خدمة يا مولانا..؟!!

فقدم إليه الشيخ نظارة مهشمة الذراعين لاصلاحها أو استبدالها.

لقد تم كل شىء فى أقل من ربع ساعة، وحين سأله الدكتور عبد الجليل

عن الثمن قال له "ابراهام" مبتسما:

– أنت شيخ وعالم مسلم، وإمام المركز الإسلامى وضيف علينا فى لندن. فكيف آخذ منك ثمنا..؟!!!

* * *

لهذا لم أفاجأ حين علمت أن جميع العرب الذين يسافرون إلى بريطانيا لايتعاملون إلا مع المحلات اليهودية فقط وبخاصة محلات "ماركس اند سبنسر"..!!!

بل أذكر أن "داود عدس" صاحب المحل المعروف باسمه فى شارع الأزهر وصلته رسالة من "القماش الخاص" الذى يصنع منه شيلان"العمائم.. وكان هذا أثناء الحرب العالمية الثانية وكان هذا القماش أصبح نادرا.. وغاليا جدا فماذا فعل داود عدس..؟

لقد أرسل إلى مشيخة الأزهر يخطرها بوصول هذا القماش إلى مخازنه ومحلاته. وقال فى رسالته إلى مشيخة الأزهر : إنه لن يبيع هذا النوع من القماش لغير طلبة الأزهر وشيوخه وبخطاب معتمد من الأزهر نفسه اعتزازا منه وتقديرا للأزهر الشريف ورسالته...!!!

ان المعركة التى بين العرب والمسلمين وبين إسرائيل معركة حضارية وفكرية بالدرجة الأولى.. فليفهم العرب والمسلمون هذه الحقيقة إن كانوا حريصين على حياتهم وبقائهم فى هذه الدنيا..!!!

* * *

نعود مرة ثانية إلى حكايات السجن الحربى..

بعد أن انجلى غبار المعركة فى الساعات المبكرة من صباح اليوم السادس من نوفمبر.

دخل علينا فى الزنزانة العسكرى الجلاد(جودة) آمرا أن نقف ونؤدى له التحيةالعسكرية..!!

وقفنا وأدينا له التحية.

ثم عاد وقال ثانية:

- هذه التحية تؤدونها لأى رتبة عسكرية هنا فى السجن. من الضباط أو الجند.

- سمعنا وأطعنا..!

فجأة وقع نظره على "معجون أسنان" كنت أحمله معى فصرخ قائلا:

- يا ابن ... ... أنت جايب معاك ديناميت..!

- ديناميت إيه يا أفندى.. دا معجون أسنان .. بهذا رد عليه المعتقلون.

- وعاد العسكرى (جودة) يسأل:

يعنى إيه معجون أسنان؟ فسكتنا ولم ننطق..!!

وقد ذكرتنى حكاية العسكرى (جودة) مع معجون الأسنان بحكاية عمى الرجل الطيب الذى جاء يزورنى فى القاهرة فى عام ١٩٤١م.

لقد أخذناه إلى ميدان "العتبة".. وكان "الآيس كريم" قد ظهر فى مدينة القاهرة حديثا فى بداية الحرب العالمية الثانية.

فاشترى كل واحد منا لنفسه قطعة.. كما اشترينا قطعة لعمى الرجب الطيب.

فجأة رأيت عمى يلقى بقطعة "الآيس كريم" على الأرض. ثم نظر إلىّ نظرة عتاب وغضب:

- إيه ده يا ابن أخويا: أنت جايب لى "مرهم" أكله.!!!

* * *

نعود إلى حكاية السجن الحربى.

فى تمام الساعة الثامنة صباحا.. دبت حركة نشاط غير عادية بين الجنود والضباط.. وانطلق صوت رهيب يعلن قدوم"مارشال" الجو والبحر والبر"حمزة البسيونى" بصحبة عدد من كبار المسئولين فى الدولة والنظام.

ثم عاد هذا الصوت يدوى مرة ثانية:

- أخرجوا المعتقلين من الزنازين..

خرجنا ووقفنا أمام أبوابها..

وعاد الصوت يدوى للمرة الثالثة:

- اجمعوا هنا أمام المارشال "حمزة" ومن معه من الكبار!!

تجمعنا فى صفوف طويلة. بينما سقط البعض من اثار ما تعرضوا له من جروح وكسور فى الليلة السابقة..؟!!!

وفى المرة الرابعة أمرونا بالجلوس على "الركب" بعد أن نرفع أيدينا إلى فوق..!!

كان فى ساق رجلى "اليسرى" خراج ضخم.. لقد انفجر هذا الخراج دون أن أشعر.. فقد كنت -رغم مايحدث- بعيدا تماما عن الوعى..!! لم أصدق أو أتصور ما كان يحدث.

وهل ما أراه حقيقة أم هى هلوسات عقل؟ ثم كيف يكون ما أراه حقيقة بينما شعارات الحرية والعدالة تغطى كل جدران السجن..؟!!!

* * *

- هاتوا الحلاقين..!

كان هذا هو الأمر الأخير من قائد السجن. أو مارشال البحر والجو.!

وجاء الحلاقون لتبدأ عملية تعذيب أخرى ولكن من نوع نفسى قاتل.

كانت التعليمات أن تكنس شعرك بعد الحلاقة من الأرض. ثم تذهب إلى كبير "الجلادين" واسمه(يس) لتقول له تمام يا أفندم.! أى أن العملية قد تمت بنجاح..!

ثم تنطلق بعد ذلك إلى "برميل" تلقى فيه بشعرك وأنت تصيح بأعلى صوتك:

أنا وسخ.. أنا وسخ.. أنا وسخ.. أنا وسخ.. وتظل تردد هذا الشعار إلى أن تدخل الزنزانة وتغلق بابها عليك..!!

كان المرحوم الدكتور عبد العزيز كامل نائب رئيس الوزراء الأسبق يجلس قريبا منى فى انتظار دوره:

فجأة صرخ أحد الحلاقين:

- الصابون خلص يامتّى..؟

- تِفْ فى وش أبوه واحلق!!!

وقد حدث هذا فعلا.. وخشيت أن يجئ دورى بدون صابون.. ولكن الله سلم. ونجوت من الحلق بالبصق أو التف!!!

أسلمت رأسى للحلاق الذى بدأ يحرث فى الرأس.. تماما كما كان يحرث الفلاح فى الحقل.. فالماكينة لم يعد لها قدرة على التحرك وكان من حقها أن تستريح بعد هذا العمل الشاق دون أن تستريح أو تتوقف..!!!

جمعت شعرى المتناثر على الأرض. انطلقت إلى "البرميل".. لقد نسيت أن أؤدى "تماما" للجلاد "يس" أمسك العسكرى "جودة" برقبتى حتى كدت أختنق.

– يا ابن الـ.. إد تمام لحضرة الصول.. وقفت أمام هذا المارد.. الذى اسمه"يس" طوله حوالى مترين.. أسود الوجه وفى يده كرباج لو لسعك به لقسمك نصفين.!!!

وهنا كانت المفاجأة.

أن هذا المارد الدموى لاتزال فيه بقية إنسان.!!!

لقد همس فى أذنى بحنان غريب.!

اجرى يا ابنى.. اجرى وقول أنا وسخ!

وانطلقت وصوتى يجلجل فى أجواء السجن بنشيد الحرية الجديد.!

أنا وسخ.. أنا وسخ.. أنا وسخ..!!!

وما كدت أدخل الزنزانة حتى استلقيت على قفاى من شدة الضحك..!!!

ولأن شر البلية ما يضحك كما يقول المثل: أروى لكم قصة أخرى وقعت أحداثها فى هذا السجن:

فى أحد الأيام طلبوا عشرة من المعتقلين للعمل فى المطبخ.. وكنت واحدا من هؤلاء العشرة. وبينما كنا نسير فى طريقنا إلي المطبخ استوقفنا جلاد اسمه محمود عبد الجواد.

لقد سأل هذا الجلاد كل واحد منا عن اسمه.. غير أن هذا الجلاد لم تعجبه أسماؤنا وطلب من كل واحد أن يختار له اسم (ست)..!

قلت له: اسمي فاطمة: وهو اسم أمي.!

وقال آخر: اسمي زينب.!

وقال ثالث: اسمي عائشة.!

وقال رابع: اسمي من الآن "بهانه ست أبوها".!

غير أن الجلاد لم تعجبه كل هذه الأسماء التي اختارها كل واحد لنفسه وفي حركة عنترية زائفة صرخ هذا الجلاد قائلا:

- قولوا جميعا ورايا:

احنا تحية كاريوكا.. وارتفعت أصواتنا جميعا وفي صوت واحد احنا تحية كاريوكا.. احنا تحية كاريوكا.. احنا تحية كاريوكا..!!!

واستمرت المهزلة عشر دقائق بينما كان الجلاد يحرك يديه يمينا وشمالا متقمصا شخصية المايسترو في دار الأوبرا..!

* * *

أيحدث هذا في مصر البلد الطيب الذي لايعرف أهله الكراهية والعنف؟ ومِنْ مَنْ؟ من رجال كنا نراهم الأمل في ظلمة اليأس.. ومع مَنْ؟ مع شباب كان من أنقى وأطهر الشباب والرجال في مصر.. ولماذا؟

لهذا السؤال أجوبة كثيرة اختلط فيها الحق بالباطل، والصدق بالكذب. أسئلة كثيرة لايزال معظمها بدون إجابة حتى هذا الوقت..!!!

* * *

لقد سألت نفسى كثيرا لماذ اعتقلت؟ أنا الإنسان الذى لم يحمل فى يده سلاحا طوال حياته.. أنا الإنسان الواضح وضوح الشمس. والذى تقرأ ما فى قلبه على لسانه بمجرد اللمس..!

إننى لا أطيق حتى هذا اليوم رؤية الدم، ولا أطيق رؤية دجاجة تذبح أمامى فى البيت..!!

* * *

لقد عرفت بالثورة قبل أن تقوم.. كنت أسكن فى حى شبرا وكان لأحد أقربائى[1] محل يقع فى شارع"صالح كرم" المتفرع من شارع خلوصى.. كان المرحوم (يوسف صديق) -البطل الحقيقى فى إنجاح هذه الثورة- يسكن فى هذا الشارع، وكانت أسرته تتعامل مع قريبى من وقت لآخر، وفى أحد الأيام قال لى هذا القريب:

إن الجيش سيقوم بحركته بعد أيام قليلة قلت له فرحا.

- من أخبرك بهذه الأنباء الخطيرة.؟

قال:

زوجة البكباشى (يوسف صديق) هى التى أخبرتنى بذلك منذ ساعة..!!

* * *

لقد مضت هذه الأيام بحلوها ومرها غير أن التجارب علمتنى ما لم أتعلم.

ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت لكان لى فى الحياة شأن وأى شأن.

لكن"لو" هذه فات أوانها ولم تبق سوى العبرة والاتعاظ من أحداثها.

ومهما كان يامصر

---

(١) المرحوم محمد محمود عبد النبى ، شقيق الأخ الصدوق الوفى أحمد محمود عبد النبى.

أنت مصر..

يأغلى اسم فى الوجود

يامصر..

يا اسم مخلوق للخلود

يا مصر..

ونعيش لمصر

ونموت لمصر

وتحيا مصر..!!!

فـى
أفريقيا المعذبة
مـن
المحيط الهندى
إلـى
المحيط الأطلسى!

قبل أربعين عاما قمت بأول رحلة إلى أفريقيا..

إلى السودان وكينيا وأوغندا وزنجبار وتنجانيقا(١).

لم أنس حتى هذا اليوم صورة الأمير بدر كالنجولا " ابن الكاباكا" ملك "أوغندا" ومن العجيب أيضا.. أننى التقيت بابنه الأمير حسن قبل عامين فى جزيرة مالطا.

إن أوغندا كانت تسمى "جوهرة أفريقيا" وكان للمسلمين فيها الكلمة العليا..!

فى هذه الرحلة أى رحلتى إلى أفريقيا كانت أول محطة لنا فى "نيروبى" عاصمة كينيا.

لقد فوجئت بجمال الطقس.. كما فوجئت بنظافة مطارها الذى لم أر مثله من قبل..!

ولكن الشىء الذى أثار الدهشة، وجعلنى استرجع تاريخنا القديم فى شرق أفريقيا أن الجنود الكينيين كانوا يضعون على رؤسهم طربوشا.

غير أن الطربوش الكينى كان أخضر اللون ولم يكن أحمر، كما أن "زره" كان يتدلى فوق الجبهة من الأمام لا من الخلف..!

جنود طوال القامة، ووجوه حالكة السواد والسمرة ولا تكاد تحدد معالم وجه الواحد منهم إلا إذا صوب إليك نظره! أو مد إليك يده!

إنهم من قبائل الماساى.. أو الماو. الماو الذين حاربوا بريطانيا تحت قيادة (جوموكنياتا) أو الرمح المشتعل كما كان يطلق عليه هذا الاسم هنا فى مصر..

(١) المعرفة حاليا باسم "تنزانيا" بعد اتحادها مع زنجبار.

وفى عموم أفريقيا.

لقد اكتشفت فى هذه الزيارة مدى تغلغل الإسلام فى هذه المنطقة وكيف أن الإسلام وصل إليها فى مرحلة من التاريخ مبكرة.

وقد لعبت جزيرة "زنجبار" الدور الرئيسى الأكبر فى انتشار الإسلام فى شرق أفريقيا وإلى حوض الكونغو من جهة الغرب وحتى موزمبيق وجزيرة الكاب من جهة الجنوب.

كما لعبت هذه الجزيرة "جزيرة زنجبار" دورا بارزا فى انتشار الإسلام فى جزر المحيط "أى المحيط الهندى" جزيرة "مدغشقر" أو "ملجاش"، و "جزر القمر" و "موريشيوس" و"كلوا" و"ماليندى".

وبتأثير زنجبار أصبحت اللغة السواحيلية لغة شعبية فى تنجانيقا(١) وكينيا، وأوغندا، وحوض نهر الكونغو وفى جزر القمر وبوراندى وملجاش.

وحينما انتشرت هذه اللغة.. انتشر معها الإسلام، ومهدت الطريق أمام الدعاة والعلماء لينقلوا الإسلام داخل هذه القارة، وفى غاباتها وأحراشها.

إن عاصمة تنزانيا أو تنجانيقا هى (دار السلام) وهو اسم إسلامى قرآنى كما تعرف .. فالجنة هى (دار السلام) ﴿ لهم دار السلام عند ربهم ﴾.

وقد استبدل المسلمون بهذا الإسم.. الإسم القديم للعاصمة القديمة وكان اسمها (بجاموى).

ومن الغريب أننا دعينا لزيارة مدينة صغيرة قريبة من (دار السلام) اسمها (الإله)، لقد اكتشفنا أن حقيقة هذا الاسم هو (إلى الله)..!

---

(١) تنجانيقا: هى ما يعرف الآن باسم "تنزانيا" بعد اتحادها مع زنجبار.

ولكنه حرف إلى (الا له) ..!!!

كما كان اسم عاصمة "الفلبين" القديم هو (أمان الله) وقد حرف اليوم باسم(مانيلا)..!

لقد قمنا برحلة من (دار السلام) العاصمة الواقعة على المحيط الهندى إلى (تبورا) القريبة من حدود الكونغو.

قضينا أربعا وعشرين ساعة فى القطار البلجيكى الذى يقطع أفريقيا من الشرق على المحيط الهندى إلي الغرب على المحيط الأطلسى.

كان تحركنا فى الساعة الثالثة ظهرا بتوقيت دار السلام وكان معروفا أننا سنصل إلى (تبورا) فى اليوم الثانى فى الميعاد نفسه.

وكانت المفاجأة عندما وصل القطار إلى مدينة اسمها (مورجورو) فى الساعة الواحدة صباحا أى بعد منتصف الليل.

لقد فوجئنا بالألوف تهتف .. الله أكبر..! كيف حدث هذا؟

وكيف وصل الإسلام إلى هذه الغابات منذ ثلاثة عشر قرنا؟

لقد عرفت هذه المنطقة منطقة شرق أفريقيا الإسلام فى مرحلة مبكرة فقد تم الاتصال بهذه المنطقة منذ هاجر المسلمون الأوائل إلى الحبشة أو أثيوبيا. فى حياة النبى ﷺ.

كما عثر على قبر فى (زامبيا) يرجع تاريخ موت صاحبه إلى السنة الثانية والثلاثين من الهجرة. ومعنى هذا أن الدعاة المسلمين وصلوا إلى هذه المنطقة منذ حوالى أربعة عشر قرنا.

فى مدينة (تابورا التقينا بالسلطان عبد الله عبد الله فندكيرا لقد حدثنا هذا

الرجل عن والده الذى قطع ألف ميل مشيا على قدميه فى الغابات ليتعلم القرآن عند أحد الفقهاء المقيمين فى إحدى القرى النائية جنوب بحيرة فكتوريا أحد المنابع الرئيسية للنيل الأعظم.

وفى هذه الزيارة إلى مدينة (تابورا) سمعنا ولأول مرة عن البطل الإسلامى (تيبوتيب) أو (حميد المرجبى) الذى أقام دولة إسلامية امتدت إلى حوض نهر الكونغو.

ومن العجيب أن نسمع أن إقليم (كاتانجا) الذى انفصل به "تشومبى" عن الوطن الأم (الكونغو) هذا الإقليم كان ولاية إسلامية، كما كان إقليم (كاساى) أيضا من ممتلكات هذه الدولة الإسلامية التى أقامها (تيبوتيب) أو (حميد المرجبى)..؟!

إن قصة هذا البطل المسلم قصة فى غاية الغرابة. فقد خرج من جزيرة "زنجبار" ليبحث عن أبيه الذى كان قد ترك الجزيرة بحثا عن لقمة العيش، وهناك فى "تابوره" يلتقى مع أبيه ثم يسيران معا فى طريق الجهاد والدعوة لنشر الإسلام ليقيما دولة إسلامية تمتد من الساحل الشرقى لأفريقيا إلى حوض نهر الكونغو.

ويعتبر (حميد المرجبى)(١) أو (تيبوتيب) كما يسمونه واحدا من هؤلاء الذين خدموا قضايا العروبة والإسلام فى القارة، تلك الرسالة التى كان مهيئا لها بحكم ظروفه، فنسبه يمتد إلى قبيلة "المرجبية" التى قدمت من الجزيرة العربية، وظلت تتغلغل فى الشرق الأفريقى حتى أقامت فى زنجبار.. وفى جزيرة زنجبار هذه ولد "تيبوتيب" عام ١٨٣٢م.

---

(١) شخصيات افريقية – د. عبده بدوى ، ص ٩ وما بعدها .

وقد كان من عادة قبيلته- ككافة القبائل العربية المهاجرة- التغلغل فى القطاعات المجاورة لها، فالقارة كانت تغريهم بالتعمق فى قلبها، وقد كان من هؤلاء الذين سحروا بها والده، الذى رأى نفسه عاجزا عن كسب القوت لأسرته، وتوفير التعليم لابنه الذى وقف به عند القراءة والكتابة وحفظ القرآن... ومن هنا نراه يودع أسرته الصغيرة، ويذكر أنه سيعود إلى بيته الخالى بالرزق الكثير، ولكنه ذهب ولم يعد إلى هذه الأسرة.

وحين يبلغ الثانية عشرة يذكر لأمه أنه عزم على اقتراض مبلغ سيشترى به كمية من الملح ثم يبيعها فى القرى المجاورة، وحين يرى الدمع فى عينيها يذكر لها أنه سيتقصى فى كل مكان يذهب إليه أنباء والده، وتتلفت الأم حولها فلا تجد فى البيت شيئا يمسك عليهما حياتهما عدة أيام، وتجد نفسهامضطرة إلى أن تبتسم فى وجهه، وتشجعه على الرحلة، ويبتسم هو الآخر بينما يؤكد لها أن رحلته لن تتعدى مابين "زنجبار" إلى "دار السلام" وهكذا يفترقان على ابتسام.

وقد ظل على هذا الحال عدة شهور، وكى يهتدى إلى أن والده الذى قد وصل إلى بلدة "تبورة" ، وأنه قد تزوج ابنة سلطان هذا البلد، فلا يفكر فى العودة وإنما يواصل السير إلى "تبورة" وهناك يلتقى بوالده، وبالسلطان الذى أحبه وقربه إليه، وبخاصة حينما اشترك فى رد غارة شنها على مملكته سلطان آخر، ثم واصل "تيبوتيب" حملته على السلطان المناوئ لصهر والده، واستطاع أن يتغلب عليه، وأن يقيم نفسه سلطانا بدلا منه، ثم أخذ يتوسع فى مد سلطانه، ويؤمن الطرق التى تسير فيها قوافله التجارية، وينشر الأمان والطمأنينة بين السكان، ويقدم المساعدة -بطيبة نفس- إلى هؤلاء الرواد من المكتشفين الذين وفدوا إلى القارة مثل "سبيك" و"لفنجستون"، و"ستانلى".

وقد أصبحت بعد فترة قصيرة تلك الرقعة الكبيرة التى تمتد من الساحل

الأفريقى الشرقى إلى حوض نهر الكونغو الأعلى خاضعة لتيبوتيب، وقد خشى العالم الغربى قيام دولة عربية فى قلب القارة، فكان أن عمل على حصارها والتدخل فى شئونها وكان أن كلف الملك ليوبولد الرحالة "استانلى" بالعمل على جمع التوقيعات من الزعماء المحليين لقيام مملكة له فى هذه المنطقة وليتكىء على هذه المعاهدات حينما تنافسه دولة أخرى فى الزحف عليها، وقد تم له بالفعل ما أراد فى مؤتمر برلين الذى عقد فى (١٨٨٤-١٨٨٥).

وكان لابد من الاصطدام بين الفريقين، وقد بدأ هذا الاصطدام حينما طلب القنصل البلجيكى إخضاع تجارة العاج لاشرافه، فكان الرد على طلبه هذا أن اعتقله سيف بن تيبوتيب ووقع عليه حكم بالجلد لمدة عامين من قائد جيش والده "راشد بن محمد" ولكن "تيبوتيب" أوقف هذه الحملة.

وقد روع الإنجليز لهذه الجرأة وكان أن طلب قنصلهم السماح للبلجيكيين بالاتجار فى هذه المنطقة فى مقابل أن يدفعوا لتيبوتيب خمسة وستين جنيها فى الشهر، وحين رفض تيبوتيب هذا الطلب، ذكره بأن حكومته تصر على هذا، وأن البلجيكيين قد حصلوا منها على وعد بمعاونتهم فى هذه المنطقة، وفى الوقت نفسه أخذوا يثيرون القبائل الأفريقية عليه، ويكونون جبهة ضده داخل الكونغو، وكان نتيجة هذا كله ثورة عارمة بين العرب والبلجيكيين، وترحيل لجميع الأجانب عن الكونغو، ثم تلك المعركة المدمرة التى وقعت بين الفريقين وقتل فيها ابنه "سيف"، والتى استطاع فيها البلجيكيون أن يضعوا أيديهم على ثروة "تيبوتيب" التى قدرت بمائة ألف جنيه كما فرض عليه الإنجليز أن يبتعد عن هذه البلاد إلى "زنجبار" التى توفى فيها عام ١٩٠٥(١).

يقول المسيو "جرانفيل" وزير خارجية الكونغو فى عهد "باتريس لومومبا":

---

(١) المصدر السابق : ص ١١.

لقد زور البلجيكيون كل شيء في الكونغو.

فليست مدينة (ستانلى فيل) سوى مدينة القائد المسلم (تيبوتيب) التى أقامها قبل قدوم الرحالة ستانلى.

وليس المسلمون كما قالوا لنا تجار رقيق، وإنما هم تلك الموجة الإنسانية التى اختلطت بنا، وصاهرتنا، وتركوا لنا لغة مشتقة من لغتهم.

ودينا وحضارة تسوى بين البشر وبين كل الناس. وأنه لعزيز علينا، ومأساة كبرى أن تسيل دماؤنا ودماء المسلمين على أيدى نفس أعداء الأمس..!

فى مدينة "سنيانجا" القريبة من مدينة "تابورا".

قال إبن أحد القساوسة لأبيه:

أريد أن أعرف:

هل هناك مسيح أبيض ومسيح أسود؟

وحين سأله والده عن سبب سؤاله.

أجاب الابن:

ألاحظ خروج البيض من الكنيسة عندما ندخل، ودخولهم عندما نخرج. ثم جذب يد أبيه إلى مسجد قريب حيث وقف الجميع صفوفا متراصة لا فرق بينهم وبين أسود وأبيض، أو فقير وغنى.

حينئذ قال الابن لوالده القس:

ان هذا هو الدين الحق.. ثم انفلت من أبيه ليدخل المسجد، ولم يرجع إلى أبيه ألا وهو مسلم.!

فى أواخر الخمسينيات من هذا القرن ظهرت زعامات جديدة لشعوب ودول لم نكن نسمع عنها من قبل ... لقد انتصرت حركات التحرير فى افريقيا وآسيا، وانحسرت أمواج الاستعمار الكئيب من كل أرجاء الدنيا.

كانت بريطانيا تمثل - فى نظر الغالبية العظمى من الشعب - الرمز الكريه لهذا الاستعمار... لم يكن يخطر ببال الكثيرين أن بريطانيا ليست إلا واحدة من عدة دول فى هذا المجال ... فإذا كان لها (أى لبريطانيا) امبراطورية لا تغيب عنها الشمس.. فقد كان كذلك لفرنسا مثل هذه الامبراطورية - وكان للبرتغال مثل هذه الامبراطورية كما كان لهولندا.. وبلجيكا امبراطوريتان على امتداد قارتى آسيا وأفريقيا.

وربما يرجع سبب هذا التصور لعداء بريطانيا وكراهيتها أنها كانت الدولة التى احتلت مصر بالقوة، واجتاحت معظم بلاد العالم الإسلامى بالغدر والخديعة فكانت ... تمثل فى نظرنا - العدو الأول لمصر... والمحتل الغاصب لديار الإسلام والعروبة.

حتى افريقيا التى تقع بلادنا على بابها الشمالى من جهة الشرق، وتقف حاجزا فى وجه كل تيار يحاول اجتياحها من جهة البحر ... افريقيا هذه لم تكن فى تصور الكثيرين تتجاوز أسوار "جوبا" و:"نيمولى"، على حدود السودان المشتركة مع أثيوبيا، وفى أحسن الفروض لم تكن تبعد كثيرا عن "زيلع" و"مصوع" على شاطئ البحر الأحمر.

من كان يسمع عن موريتانيا وهى بلد إسلامى مائة فى المائة؟.

من كان يسمع عن السنغال والمسلمون فيها أكثر من خمس وتسعين فى المائة؟ ومالى ... وسيراليون وغينيا بل من كان يسمع عن امبراطورية غانا الإسلامية و"مالى" والحركة الاصلاحية الكبرى التى قادها الزعيم المصلح

لقد كانت هناك صلات وثيقة بين هذه الأقطار وغيرها من بلاد العالم الإسلامى منذ مئات السنين... وفى عهود الاستعمار المظلمة أسدل ستار كثيف على هذه العلاقات، حتى يسهل على الغزاة ابتلاعها. والقضاء المبرم على عقائدها وشعوبها.

وقد حدث إبان ثورة الجزائر أن الجنود الذين عينوا لحراسة المعتقلين من رجال الثورة كانوا من السنغاليين لم يكن يعرف هؤلاء الحراس شيئا عن الجزائر... أكثر من أنها إحدى الولايات الفرنسية... وأن شعبها من الفرنسيين المتمردين على السلطة.. وأنهم بالتالى كانوا يدينون للبابا بالولاء والقداسة، وكانت المفاجأة التى جعلت السلطات الفرنسية تغير سياستها... بسرعة.

لقد دخل أحد هؤلاء الحراس زنزانة أحد المسجونين فوجده يقرأ القرآن ويقف بين يدى الله خاشعا فى الصلاة.

لقد ألقى الجندى سلاحه.. وخرج صائحا فى وجه أصحابه ... الجزائريون مسلمون ... مسلمون...!!!

ولقد كان من أبرز زعماء افريقيا بعد انحسار موج الاستعمار ومده عن هذه القارة : الرئيس أحمد سيكوتورى رئيس جمهورية غينيا... وقد ذاع صيت هذا الزعيم المسلم بعد رفضه شروط الجنرال ديجول الذى حاول احتواء المستعمرات الفرنسية بعد - الاستقلال فى إطار ما يسمى بـ "المجموعة الفرنسية" أو رابطة المتكلمين بهذه اللغة نظير مساعدات مالية وثقافية وعلمية تقدمها فرنسا لهذه المستعمرات بعد استقلالها. لقد رأى الزعيم سيكوتورى أن هذه محاولة لدخول فرنسا إلى المستعمرات من النافذة بعد أن طردت من الباب بعد فترة جهاد طويلة... فرفض كل هذه الإغراءات بقوة وآثر لنفسه وشعبه

الحرمان والجوع على التساهل قيد أنملة فى الكرامة الوطنية وقال كلمته المشهورة:

" إننا نفضل الفقر مع الحرية على الغنى مع الذل والعبودية.."!

وكان هذا الموقف الأبى من الزعيم المسلم صفعة لفرنسا... فبدأت تشن حملاتها الدعائية ضده وتلصق بحركته ودعوته أشنع تهمة، فكان اتهامه بالشيوعية جزءا لا يتجزأ من حملة العداء والكراهية.

وبعد عامين أو أقل من نشوب ، هذه الحملة الاعلامية قام الرئيس أحمد سيكوتورى بزيارة للولايات المتحدة وكان ذلك - على ما أذكر- فى عهد رئيسها الراحل " دوايت ايزنهاور".

ففوجئت بزيارة الرئيس الغينى للمركز الإسلامى الثقافى، ومسجده الكبير فى واشنطن، وكان مما أثار دهشة الصحفيين فى هذه الزيارة أن الرئيس سيكوتورى حين خلع حذاءه استعدادا لدخول المسجد، ظهر جوربه ممزقا من خلف قدمه، والتقط الصحفيون صورة هذا الجورب الممزق ثم أذاعوها على العالم.

لقد أحسست منذ هذه اللحظة أن الرجل كان صادقا مع نفسه... وأن موقفه من فرنسا تجسد فى صورة هذا الجورب الممزق من خلف قدمه.!

وقد فوجئت منذ سنوات بالأخ الصديق الدكتور "على رشوان" المستشار الفنى لمطابع دار المعارف يبعث إلى كتابا دهشت من موضوعه، ومن مؤلفه. كان اسم الكتاب "الإسلام دين الجماعة". واسم المؤلف : أحمد سيكوتورى وقد ظننت لأول وهلة أن هذا المؤلف غير "سيكوتورى" رئيس الجمهورية فهذه الأسماء المتشابهة نجدها كثيرا فى افريقيا وبخاصة بين الجماعات الإسلامية التى تتفاءل بأسماء أوليائها وشيوخها إلا أن الصفحة الأخيرة من الغلاف نفت

أى احتمال لوجود هذه المشابهة وأكدت بالرسم والكلمة أن المؤلف هو نفسه الرئيس أحمد سيكوتورى رئيس الجمهورية.

وكانت المفاجأة الثانية - بالنسبة لى شخصيا - أن مترجم الكتاب اسمه: محمد البخارى ... محمد البخارى ؟ اننى أذكر صديقا قديما يحمل هذا الاسم... لقد كان طالبا معى فى معهد القاهرة فى أوائل الأربعينيات ولازلت أذكر "الخال" الذى يميز وجهه.. والشارع الذي تعود المشى فيه.. كنت ألتقى به دائما فى شارع الغورية قادما من الأزهر أو ذاهبا إلى شارع المغربلين.. و"الخيامية" حيث يقيم هناك فى منزل والده العضو الشهير فى الجمعية الشرعية.

لقد اختفى محمد البخارى منذ سنوات طويلة لم أعد أراه فى القاهرة.. أو ألتقى به فى أية مناسبة... وقد قيل لى منذ سنوات قليلة.. أنه سافر إلى فرنسا للدراسة. وأنه أصبح عضوا بارزا فى "الحركة اليسارية الفرنسية".

لقد أحزننى ذلك كثيرا.. فليس من المعقول أن يكون "البخارى" يساريا وليس مقبولا أن ينفصل بتقاليده عن والده العضو النشيط العامل فى الجمعية الشرعية..؟!

وسواء أكان هو "البخارى" الذي عرفته أم "بخارى" آخر يحمل نفس الاسم والصفة. فإن ترجمته لهذا الكتاب تعتبر توبة وعودة أكيدة إلى رحاب "الخيامية" وقيم"الجمعية الشرعية.

يقول المؤلف : أى الرئيس سيكوتورى:

منذ تأسيس المجلس الإسلامى الوطنى وتصديه لحمل رسالته الطموح لدعم مكانة الإسلام ونشر فكره وترسيخ قواعده فى أرجاء "غينيا"، وفى أنحاء افريقيا والعالم كله، وأنا أتأمل العلاقة الوثيقة بين فهم الإسلام والدفاع عنه، ذلك أن المرء لا يملك أن يدافع حقا إلا عن الشىء الذى يحبه، وما يحب المرء إلا ما

يعرفه، وما يعرف إلا ما أتقن تعلمه، ولهذا لا يستطيع أحد أن يحب الإسلام، حباً صادقا دون أن يعرفه ولا أن يعرفه دون أن يعرف ذاته.

ولكن كيف يستطيع الإنسان أن يعرف ذاته..؟؟

اننى أتصور أن عليه أن يوجه لنفسه عددا من الأسئلة التى تضىء أمامه الطريق.

عليه أن يتساءل عما إذا كان يعرف أسرته والمحيط الاجتماعى الذى يحيا وسطه وطبيعة المنطقة التى يعيش على أرضها والقوانين التى تحكم بلاده والتقاليد التى تشكل ملامحه الخاصة وعناصر الطبيعة الجغرافية من حوله.

الإجابة عن هذه الأسئلة يهتدى الإنسان إلى معرفة ذاته التى تتطلب تحديد مكانه فى المجتمع وتعيين موقعه الجغرافى، أى معرفته من خلال معرفة المحيطين به ومعرفة بلاده، بل وأحيانا معرفة سلالته العرقية وعقيدته الدينية، كما تتطلب معرفة سلوكه النفسى وأوجه نشاطه المختلفة، فليس فى الكون من ينفرد بالوحدانية سوى الله الذى يعرفه الناس فردا أحدا لا شريك له. بينما لا يمكن معرفة الإنسان وحيدا منبت الصلة عما عداه. ومن هنا تبدأ معرفة الإسلام.

ثم إن معرفة الله تتجسد فى وجدان الإنسان من خلال كل ما يراه من أدق الأشياء صغراً إلى أكبرها حجما، ومن خلال كل ما يسمعه، وكل ما يحس به، وكل ما يحيط به ومن خلال كل ما يتخيله، ولما كانت كل هذه الأشياء من ابداع الله فإن على الإنسان لكى يسمع صوت الله أن ينظر إلى أعماقه الدفينة، وأن يستمع إلى صوته الداخلى، وأن يتأمل خلق الله ومخلوقاته ويصغى إليها، فبهذا يدرك الإنسان الله ويستمع إليه ويستشعر وجوده داخل وعيه، حذرا مع ذلك من أن يجعل لله حجما أو شكلا أو لونا محددا لأن الله تعالى مع تجليه لنا يسمو عنا إذ ليس كمثله شىء.

والمعرفة بالله معرفة مطلقة، فى حين أن المعرفة بالإنسان معرفة نسبية، فحين ترون الإنسان تعرفونه معرفة جزئية فى حين أن هناك جزئيات لا تملكون معرفتها إذ تستند المعرفة بالإنسان إلى خمسة مصادر، غير أنها جميعا فى تغير متصل، وذلك هو السر فى استحالة معرفة الإنسان بطريقة مطلقة وبشكل نهائى.

ولو أننا طلبنا من أئمة "غينيا" أن يتصور كل منهم مسجده كما كان عليه يوم الجمعة الماضى، أو الجمعة السابقة عليه، لحظة كان يؤم المسلمين لتراءى كل منهم على الفور مسجده وهو قائم فى مكانه فى صدر اخوانه المصطفين وراءه يؤدون الصلاة ومع هذا فبينما يحلق بكم فكركم وينقلكم خارج هذه القاعة تظل أجسادكم هنا بين جدرانها. فمن الممكن أن يسجن، الجسد الذى هو امتداد للأرض بينما لا يمكن أن تسجن الروح التى هى امتداد لله، إن الروح تسمو على - الزمان والمكان، أما الجسد فرهينهما معا، والروح موصولة بالله فهى مثله أبدية وموجودة فى كل الوجود.

ونحن نرى بعيوننا كل الأشياء الممكنة الرؤية، فنحن نرى أنفسنا ونرى الأشياء المحيطة بنا، وبآذاننا نسمع كل ضجيج، وبأنوفنا نشم كل رائحة وبأيدينا نستطيع أن نلمس كل ما هو حسى، وهكذا لا تتصل الأعين والأنوف والأيدى إلا بالطبيعة كما هى فى الواقع المادى المحسوس. بينما نعجز عن أن نرى الله بعيوننا أو نسمعه بآذاننا أو نشمه بأنوفنا أو نحسه بأيدينا. ذلك أن اتصالنا بالله إنما يتم عبر وجداننا وفكرنا.

وإذا كانت حواسنا الخمس : البصر والسمع والشم والذوق واللمس، لا تتيح لنا أن نتصل إلا بما خلقه الله فإنها لا تتيح لنا اتصالا مباشرا بالله نفسه وتبقى هذه هى الرسالة المهمة، التى يتحملها الوجدان وحده، لأنه هو الذى يمثل فى نفس الوقت العيون المبصرة والآذان المستمعة والفم المتحدث واللسان المتذوق

والأيدى الملامسة، إن الوجدان هو الذى يصل الإنسان بالله ويربطه بخالقه.

وفى ركن الإسلام الثانى. وهو الصلاة مكافحة للشيطان. فالصلاة يسبقها الوضوء. فأى سر يختفى وراء هذا الوضوء؟

- اغسل قدميك اللتين قادتاك إلى أماكن محرمة مطيعة بذلك الشيطان اغسلها لتفصل عنهما الشيطان.!

- ويداك؟ لقد مست بهما أشياء محرمة عليك، نقلت بهما سلعا مهربة وكتبت بهما أكاذيب، وضربت بهما بائسا وضعيفا وصغيرا، اغسلهما إذن لتطرد عنهما الشيطان.!

- وأنفك ؟ لقد تشممت به ما حرم عليك شمه.

- وفمك ؟ كذبت به وقصصت حكايات منافيه للحقيقة.!

- وأذنيك ؟ لقد استمعت بهما همس الشيطان...

اغسل إذن عينيك وأنفك وفمك وأذنيك ويديك وقدميك لتمحو عنها أثر الشيطان ذلك هو معنى الوضوء. وكل ذلك من أجل إقصاء الشيطان.

وفى الزكاة أيضا مكافحة للشيطان وقد يهمس لك: "ليس صحيحا أن هناك دارا آخرة. فحين تنتهى حياتنا ينتهى كل شىء" وقد يوسوس لك أيضا: " لا تعط أحدا شيئا، كل وخذ كل شىء لك" غير أنك حين تؤدى الزكاة تقصى الشيطان، لأنك تحتجز لك مكانا فى الدار الآخرة أولا، ثم لأن ما تدفعه للغير واجب عليك أداؤه، إنه دين الفقراء عليك، لقد فرض الإسلام الزكاة صفعة على وجه الشيطان.

وفى الصوم كذلك معاداة للشيطان فالشيطان يعلى قدر الجسد المادى، ويخنق فكر الرجل بالكحوليات - والمخدرات والأكاذيب، حتى يتحكم الجسد فى

الإنسان، وهكذا فحين تصوم رمضان يرقى الوجدان، وتعلو الإرادة والفكر فوق الجسد، لقد فرض الإسلام الصوم لإلحاق الهزيمة بالشيطان.

وفى الحج كذلك لطمة للشيطان الذى يتمم لك: " أنك المسلم الوحيد فقد انهار الإسلام ولم يعد هناك مسلمون" وحين تسافر إلى مكة تلحظ أن كل بلاد العالم قد أرسلت وفودا منها. على عكس ما أكده لك الشيطان، وتفهم ساعتها أن الشيطان قد كذب عليك، إنك ترى فى مكة ملايين الأفراد جاءوا من كل بلاد العالم لأداء فريضة الحج وهو ما يعطيك فكرة عن المدى الفسيح الذى بلغه الدين داخل المجتمع الإنسانى وسيريحك هذا ويحفزك، ثم تتبادل مع غيرك المعارف والمعلومات فيزيد كل هذا من صلابة عزمك على محاربة الشيطان.

على أن كل هذا يتجسد فى هذا الحصى الذى يقذف به كل حاج الشيطان فى "منى" رمز رفض وإدانة، وهكذا فرض الحج عداء للشيطان أيضا.

إن لقواعد الإسلام الخمس نصيبها فى مكافحة الشيطان، ولو نسى المرء نصيب كل عبادة فى مكافحة الشيطان لما كان مسلما مكتمل الإسلام.!!!

فلتتذكروا أن الشيطان قد خطر على كل ملليمتر مربع من سطح الكرة الأرضية وأنه يعرف العالم أفضل منا، لقد شهد خلق آدم وتبعه وأدرك مستوى من المعرفة لا يملك أحد منا أن يبلغه.

إن إسلام المرء يتطلب أن يبحث فى كل مكان ليتعرف على ملامح الشيطان ليفلت منه وليعاديه فى كل زمان ومكان.

وقد أحببت أفريقيا منذ الطفولة. منذ أيام كتاب القرية. ومنذ عرفت القراءة والكتابة، ومنذ وقعت عيناى على أول خريطة تحمل اسم هذه القارة. وعندما التحقت بالأزهر فى أوائل الأربعينيات رأيت أفريقيا فى طلابها الذين كانوا

يقيمون فى أروقة الأزهر المختلفة. فى رواق الحبشة وفى رواق سنار ودارفور، وفى رواق الدكارنه، وفى رواق المغاربة.

وقد كان أول أعمالى الإذاعية.. فى البرامج الموجهة إلى أفريقيا. كما كانت أول زيارة إلى خارج مصر إلى أفريقيا إلى السودان، وأوغندا، وكينيا، وتنجانيقا التى تعرف الآن بعد اتحادها مع جزيرة زنجبار باسم "تنزانيا".

وعندما سافرت إلى بريطانيا للدراسة كان تفكيرى متجها إلى "بحث" الجذور التاريخية لأسباب العداوة الكامنة فى قلوب الأوربيين تجاه الإسلام والمسلمين فى هذه الدنيا وفى كل مرة يستقر فيها الرأى على بحث معين. أعود لأغير هذا البحث إلى موضوع أخر.. ثم أعود فأغيره إلى بحث يختلف عما سبقه من بحوث أخرى .. وفجأة رأيت عنوانا لفيلم عن حياة (ونستون تشرشل) كان اسم هذا الفيلم "تشرشل الصغير"[1]، كانت أحداث الفيلم تدور حول نشأة تشرشل وحياته قبل أن يصبح وزيرا أو رئيس وزراء مشهورا. وكان من أهم وقائع هذا الفيلم "معركة الدراويش" التى كانت بين القائد البريطانى "كتشنر" وبين الزعيم السودانى "عبد الله التعايشى" الذى حكم السودان بعد وفاة الزعيم والمجاهد السودانى الكبير "محمد أحمد المهدى" فانفعلت بأحداث هذا الفيلم. وانجذبت روحى إلى أبطال هذه المعركة من السودانيين الذين مرغوا سمعة الامبراطورية البريطانية فى الوحل.

وفى يوم تال. وكان يوم جمعة التقيت بأخ سودانى يحمل كتابا اسمه (السيف والنار فى السودان) وهو من تأليف قائد نمسوى تظاهر بالإسلام بعد أن أسره المهدى وسمى نفسه (سلاتين باشا).

---

(1) YOYNG Winss TON

وفى أسبوع لاحق رأيت كتابا وبعبارة أدق مخطوطة فى المتحف البريطانى اسمها "نصيحة العوام" لشيخ أزهرى اسمه الشيخ أحمد العوام كان من أبطال الثورة العرابية الذين نفوا إلى السودان بعد فشل هذه الثورة. فلما قام محمد أحمد المهدى بثورته إنضم إليه الشيخ أحمد. وقد قام الشيخ أحمد هذا بعملية فدائية لتفجير مخازن ذخيرة القوات البريطانية فقبض عليه القائد الإنجليزى "جوردون" ثم أمر بإعدامه.!!!

لقد كان سقوط الخرطوم وقتل القائد البريطانى "جوردون" ملحمة من أهم الملاحم فى تاريخ المسلمين المعاصر فى أفريقيا... كيف استطاع مجموعة من "الدراويش"... انزال أكبر هزيمة ببريطانيا التى كانت عظمى ... بل كيف استطاع "المهدى" الصوفى الذى لم يتخرج فى "ساند هيرت"[1] .. أو فى أكاديمية "ايتون" العسكرية أن يهزم أشهر قائد عسكرى لبريطانيا فى هذا الوقت.؟!

لم تكن المعركة موجهة إلى "الجيش المصرى".. ولا .. إلى مصر.. بل كانت موجهة إلى بريطانيا وعملائها فى مصر. وقد أمر "المهدى" ألا يقتل الجنرال "غوردون" ليستبدله بالزعيم "أحمد عرابى".

لقد بدأت هذه المعركة ـ بتبادل الرسائل بين .. المهدى .. و"غوردون" فقد حاول القائد البريطانى إغراء المهدى بالحكم.. ولكن المهدى كان أذكى من غوردون.. وسنرى ـ من خلال الرسائل المتبادلة ـ قبل المعركة كيف كان يفكر "المهدى".. وكيف كان يفكر الجنرال "غوردون"؟

كان لغوردون شهرة كبيرة، وكان ملوك العالم يتنافسون لكسب وده

(١) الكلية العسكرية فى بريطانيا.

ليخدم معهم. كانت شهرة القائد الذى لا يقهر Leader of the evet vicrories atmy قد سارت بها الركبان، فقد خدم فى الصين، وكان بطل حصار سباستبول فى روسيا، والكيب تاون فى أفريقيا، وقاهر جزيرة "موريشيس" فى المحيط الهندى[1]، وكانوا يعتبرونه فوق ذلك كله من أبطال المسيحية[2]..!

وصدرت الفرمانات فى القاهرة بتعيينه حاكما عاما علي السودان، لم يكن للقاهرة فى هذا الترشيح أمر أو نهى، كان على الخديو فقط أن يسمع ويطيع، لقد سقط فى شرك الخيانة، وتآمر مع الانجليز على الثورة العرابية وأصبح ـ منذ ذلك الوقت فى يد الانجليز ألعوبة..!



لقد بدأت المرحلة الحاسمة فى هذه الحرب بين الثورة المهدية، وخصومها فى لندن والقاهرة، والتقى الصوفيان[3] وجها لوجه على أرض السودان الساخنة. فهل يسهل عليه ـ كما تقول مجلة "العروة الوثقى" ـ رقبة محمد أحمد المهدى بعدما قام بدعوة عظيمة كهذه[4]؟

---

(١) منشورات المهدى ـ جـ٢ـ المنشور الصادر فى ٤ من رجب ١٢٩٩هـ وانظر فى هذا الموضوع أيضا:

ـ المستهدى بسيرة الإمام المهدى ص ١٦٠ ومابعدها.

ـ جغرافية وتاريخ السودان ص٦٦١ ومابعدها.

ـ منشورات المهدية ص ٣١٠ ومابعدها.

(٢) معركة كررى ـ عثمان زلفو. الخرطوم.

(٣) كان غوردون مسيحيا متصوفا، وكان يرجع إلى الإنجيل ويقرأ فيه دائما.

(٤) العروة الوثقى ص١٥٥.

إن القضية لم تكن قضية أرض، يربح فيها المهدى أو يخسر، ولم تكن المشكلة مشكلة حرب، ينتصر فيها أو ينهزم، القضية أبعد بكثير من هذه الظواهر التى ينبهر لها طلاب المجد، لقد عرض عليه أن يكون سلطانا على "كردفان" فرفض، وحاول غوردون إغراءه بكل الوسائل ففشل. انه المهدى المنتظر وقد تجسدت فيه آمال المسلمين فى القرن الثالث عشر(١).

لقد صرح اللورد جرانفيل فى مجلس اللوردات، بأن المقاومة التى لاقاها الانجليز فى السودان، لم يكن القصد منها إلا تمكين سلطة محمد أحمد على البلاد السودانية، وهذا القول ـ كما تقول مجلة العروة الوثقى(٢). إما غفلة وإما وهم، فإن القائم بهذه الدعوة لا يقف فى سيره عند غاية، ولا يقنع بملك وإنما يريد بسط دعوته فى أقطار العالم، وإحياء الأوامر الإلهية التى جاء بها صاحب شريعته التى يدعى النيابة عنه فى تبليغها إلى الناس كافة، وسواء أكان صادقا فى دعواه أم كاذبا، فلن يتم له أمر، ولن تتمكن له سلطة فى بقعة من بقاع الأرض، إلا بتقدمه إلى ما وراءها حتى يعلى كلمة دينه، ويرد إلى الحق من انحرف عنه، ويكون له التصرف فى قلوب المسلمين، ويأخذ منها مكانا عليا يشرف منه على مطامح دعواه فى غيرهم من الأمم".

ترى هل أصاب جرانفيل فى تصوره أو أخطأ! إن الحكم فى هذه القضية يحتاج إلى بينة ووثائق، وخير ما يمكن عمله أن نترك هذه الوثائق وحدها تتكلم، أو نشاهد من فوق منصة التاريخ هذا اللقاء بين المهدى وغوردون، وسنرى ـ من خلال الحوار بين الرجلين ـ كيف كان جرانفيل يهذى وهو يتكلم.!

ماذا يفعل غوردون لمواجهة هذا الاعصار، وإخماد هذه النار؟! الحرب؟

---

(١) القرن الثالث عشر الهجرى. والتاسع عشر الميلادى.

(٢) العروة الوثقى ص ٢١٩.

وهل تجدى الحرب مع رجال غايتهم الموت؟ لقد كان انصار المهدى يبكون حنينا إلى الشهادة، ويستقبلون المدافع بوجوه باسمة، ويلقى الواحد منهم نفسه وسط الألوف من جنود العدو المدججة بالسلاح والذخيرة.

ولكن غوردون لا تعجزه الحيلة، لقد تعامل من قبل مع كثيرين عرف كيف يتغلب عليهم، ولن يكون المهدى - كما حدثته نفسه - أخطر منهم، وبدأ يفتح ملفاته، ويخرج أسلحته، وهنا نترك المجال فسيحا أمام الرجلين لنرى كيف يديران المعركة! وكيف كان الحوار بينهما فى هذه المرحلة! وقد بدأ غوردون فكتب إلى المهدى هذه الرسالة:

فخر الأمراء المكرمين، وقدوة الأولياء الصالحين[1] - حضرة سيدنا ومولانا السيد محمد أحمد بن عبد الله حفظه الله آمين؟!

بعد اهداء السلام، وزيادة التوقير والاحترام لسموكم نخبر حضرتكم أنى قد تعينت واليا على السودان باتفاق كل من الحكومة الخديوية، ودولة بريطانية لتسوية حال السودان بناء على ما طرأ عليها فى مدة السنين الأخيرة من انتشاب الحروب، وسفك دماء المسلمين، وقطع الطريق على أبناء السبيل، الذين يقصدون التوجه لزيارة قبر النبى علية السلام والذين يريدون السعى على معايشهم من التجار والمتسببين[2]، وقد شق علينا ذلك كثيرا كما ونعلم أن حضرتكم لا يخلصكم هذا الأمر فغاية ما نريده الآن من جنابكم يا حضرة السيد أنه باتفاقنا سويا ننظر ما فيه حقن دماء المسلمين، وسلوك الطرق، ومداولة المواصلات بيننا وبينكم بغاية المحبة والمودة بحسب ما يرضى الله

---

(١) لاحظ النفاق الانجليزى..!!

(٢) المتسببين هم صغار الحرفيين والتجار، وقد سموا بهذا الاسم لاتخاذهم بعض الأعمال سببا للحصول على الرزق، وهم فى الغالب من الفقراء الذين يحترفون أى عمل للمعيشة. وهذا التعبير شائع إلى اليوم فى مصر والسودان.

ورسوله، وأن تأذنوا وتتكرموا باطلاق الناس المأسورين عندكم من إسلام ومسيحيين لمناظرة عيالهم والتوصية بهم، كما أننا شكرنا لفضلكم كثيرا على صنيع معروفكم معهم. وإن كان حضرتكم تريد أن تكون سلطانا على "كردفان" فقد أعطيناها لكم لتكون سلطانا وأميرا عليها، وأريد أن ترسلوا واحدا سفيرا معتمدا من طرفكم لأجل مقابلتنا فى الخرطوم، والتروى فيما هو لازم بيننا بخلوص النية، وحسن الطوية، ولأجل إعطائه ما هو لازم من عواميد - أعمدة - وسلوك التلغراف لتجديد ما سبق اتلافه بواسطة العربان، ومداومة المواصلات بيننا، ويرسل لطرف حضرتكم فرمان من لدن السلطان المعظم بتأييد حضرتكم على حكومة "كردفان"، واعلم يا حضرة السيد أنى أريد أن أكون معكم بغاية المحبة والمودة، ولا أقصد إلا كل خير، ورجائى أن تتكرموا علينا برد الخطاب... والله الموفق للصواب[1] . ١٦ ربيع الآخر ١٣٠١هـ. "غوردون".

من المهدى إلى غوردون ..

الحمد لله الولى الكريم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله والتسليم وبعد: فمن عبد ربه محمد المهدى بن السيد عبد الله إلى عزيز بريطانية والخديوية غوردون باشا.

وصل جوابك إلينا، وفهمنا مافيه، والحال أنك تزعم إرادة اصلاح المسلمين، وفتح الطريق لزيارة قبر النبى ﷺ ، واتصال المودة فيما بيننا وبينكم، وحل المأسورين من النصارى و"المسلمانين" ، وأن تجعلنا سلطانا على كردفان.

فأقول - والأمر لله،

إنى قد دعوت العباد إلى صلاحهم، وما يقربهم من ربهم، وأن يفرغوا من الدنيا الفانية إلى دار البقاء، وليعلموا بما يصلحهم فى آخرتهم، وقد كتبت إلى

(١) منشورات المهدية - دكتور محمد إبراهيم أبو سليم ص ٣١٩ ومابعدها.

الحكمدارية فى الخرطوم وأنا بـ "أبا"[1] بدعايتى إلى الحق ، وبأن مهديتى من الله ورسوله ولست فى ذلك بـ (محتال) ولا أريد ملكا ولا مالا ولا جاها، وإنما أنا عبد أحب المسكنة والمساكين، وأكره الفخر وتفخر السلاطين لما جبلوا عليه من حب الجاه والمال والبنين، وهذا هو الذى صدهم عن صلاحهم، وأخذ نصيبهم من ربهم، فأخذوا الفانى، وتركوا الباقى واشتغلوا بما لا يكون (إلا) من الفانيات، ولم يسمعوا قول الله ورسوله ولم يذكروا خبر القرون الذين لم يغن عنهم ذلك شيئا، وندموا على قدر الذى تنعموا به، فأيدنى الله تعالى بالمهدية الكبرى لدلالتهم إلى الله تعالى، وليتركوا العز الفانى، والنعيم الفانى إلى العز الدائم، والنعيم الأبدى فى دار النعيم المقيم، وقد قال المسيح عليه السلام: ابنوا على موج البحر دارا لكم. فلا تتخذوها قرارا. ومن ظن أنه يخوض البحر من غير بلل فهو مغرور وكذلك من ظن أنه يجمع الدنيا ويريدها ويكون له فى الآخرة شأن...!

فأنب إلى الله الباقى، واخضع لجلاله وأطلب عز الآخرة، ولا تظن أن هذه الدنيا دار حتى تسعى لملكها وعزها، وكيف من يكون على خلاف سكة رسول الله[2] بفتح باب زيارة قبره؟ ولم يكن النبى ﷺ ممن يرغب فى زيارة الكلاب كما ورد: " أن الدنيا جيفة وطلابها كلاب" ولم يرغب فى من عبد غير الله، ونسى الله، وأعرض عن كلامه، وطلب متاع الحياة الفانية.!!!

فإن كنت شفيقا على المسلمين فبالأولى أشفق على نفسك وخلصها من سخط خالقها وقوّمها على اتباع دين الحق، واتباع سيدنا محمد ﷺ الذى أحيا ما اندرس من ملل الأنبياء والمرسلين، وأتى مصدقا لما بين يديه من الكتب، فجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لو حضروا لما سلكوا غير ملته وكلهم يتمنون أن يكونوا من أمته وممن حضر بعثته.!

(١) "جزيرة أبا" فى السودان.

(٢) أى على دين الإسلام.

فطهر نفسك أولا بالدخول في ملته، ثم أشفق على أمته بسلوك سنته! فعند هذا. فأنت الشفيق، ومن غير هذا فمالك من المحقين رفيق! كيف وقد قال الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) ﴾ [المائدة].

وإننا قد امتثلنا أمر الله، وما تتخذ وليا إلا الله ورسوله والمؤمنين! وعلى ذلك فقد وعدنا بالغلبة كما سمعت من قول الله هذا... وما دام الله يقول: ﴿ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ فلا غلبة لغيرهم...!

فإن رجعت عما أنت عليه - من ملة غير الإسلام - وأنبت إلى الله ورسوله واخترت الآخرة تتخذك وليا، وتكون من اخواننا، وتكون المودة المطلوبة عند الله ورسوله، وتكون ممن امتثل أمر الله ورسوله بعد هذه الآيات فاستحق الوعد

والبشارة فى قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) ﴾ [المائدة]

فبعد هذا تتصل المودة والمحبة فيما بيننا وبينك، وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والإنجيل، وتكون قد اتبعت - باتباع سيدنا محمد ﷺ - عيسى وجميع الرسل والنبيين وحزت الخير الأبدى، وإلا حيث علمت. إن حزب الله الذين وليهم الله ورسوله والذين آمنوا: هم الغالبون. فاعلم أن حزب الله واصل إليك، ومزيل لك عما شاركت به الله خالقك (فادعيت) ملك عباده وأرضه. مع أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين.

وأما المسلمانيون والمسيحيون الذين دعوت (إلى اطلاق سراحهم) فأنا أريد لهم الصلاح والنفع عند الله، وفى دار الأبد، كما أريده لك ولكافة عباد الله، فلا أبعدهم من جنتهم إلى محنتهم! فإن الله قد أيدنى رحمة للعباد لأنقذهم من الهلاك الذى وقعوا فيه.

وقد أيدنى الله تعالى بالأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين، وجميع الأولياء والصالحين لإحياء دينه، وقد بشرنى النبى ﷺ بأن جميع من يلاقينى بعداوة يخذله الله ويهزمه.. فلا تغتر فتهلك كما هلك اخوانك. فافهم وسلم . تسلم..!

وأما الهدية التى أرسلتها لنا فعلى حسب نية الخير، فجزاك الله خيرا وهداك إلى الصواب... واعلم أنه كما كتبنا لك أنا لا نرغب متاع الحياة الدنيا وزينتها، وإنما هى قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب، وهاهى عائدة إليك مع ما نرغبه من اللباس لأنفسنا وأصحابنا الذين يريدون الآخرة ويرغبون فيما عند الله من الخير الباقى الأبدى.

ثم إن مثل هديتك هذه عندنا كثير، ولكن أعرضنا عنها طلبا لما عند الله وأقول لك فى ذلك كما قال سليمان عليه السلام لبلقيس:

﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝٣٦ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ۝٣٧ ﴾ [النمل]

واعلم أنك إذا أتيتنا مسلما نربيك فنريك من النور ما يطمئن به قلبك، ويزول به طمعك فى الدنيا وما فيها. وبعد هذا البيان: فإن اهتديت وسلمت لى، واتبعتنى حزت شرفي الدنيا والآخرة، وفزت بأجرك وبأجر جميع من اتبعك، وإلا هلكت، وكان عليك اثمك، ومثل آثام جميع من اتبعك(1).!!!

حاشية:

باطلاعك على ما تدون بالجواب إليك تعلم باطنه، وبه كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى، الذين لا يبالون بما فات من المشهيات، طلبا لعالى الدرجات. وهى جبة ورداء، وسراويل وعمامة، وطاقية وحزام وسبحة!

فإن أنبت إلى الله، وطلبت ما عنده، لا يصعب عليك أن تلبس ذلك وتتوجه لدائم حظك. وهاهو الرسول ﷺ الذى أتى منك واصل إليك مع رسول من عندنا(2)...!!!

---

(1) منشورات الإمام المهدى ج2 ص109 ومابعدها. جغرافية وتاريخ السودان ص 778 ومابعدها.

(2) منشورات الإمام المهدى ج2 ص117.

من غوردون باشا والى السودان إلى محمد أحمد المهدى!

وصلنى كتابك الركيك العبارة، العارى عن المعنى الدال على سوء نيتك وخبث طويتك، وعن قريب ستبلى بجيوش لا طاقة لك بها، وتكون أنت المسئول أمام الله عما يسفك من الدماء، كما أنك أنت المسئول الآن عمن أعميت قلوبهم، وغشيت بصائرهم، ويتمت أطفالهم، وخربت ديارهم وكنت لا أرى حاجة إلي مخاطبة رجل مثلك جاحد النعمة، عادم الذمة لكنى تعلقت بأذيال الأمل، راجيا من الله عز وجل أن يتجلى على فكرتك الخامدة. فتلقى النصيحة بيد القبول، وتعلو متن سلطنة مكنتك منها وكان دون نيلها خرط القتاد. وها أنا مستعد لقدومك، ومعى رجال أقطع بهم أنفاسك، والعاقل من تدبر.. والسلام[1]..!!
(غوردون)

من المهدى إلى غوردون:

من المعتصم بمولاه محمد المهدي بن عبد الله إلى غوردون باشا.. هداه الله قبل أن يتلاشى !!!

نعلمك أن جوابك رد المحرر منا وصل إلينا، وفهمنا مضمونه وقد عذرناك فى عدم إذعانك وإجابتك لنا بالطاعة كما طلبنا منك وذلك لأنك لم تدرالحقيقة التى نحن عليها، وبحسب مقامنا ودلالتنا إلى الله، وشفقتنا على جميع خلق الله. حتى من هو مثلك لم يطب قلبنا بصرف النظر عنك، ولازلنا ندارجك عسى الله أن يهديك إلى سواء السبيل.

فأجب داعى الله، واغتنم سلامتك من الشر الوبيل، فقد رأيت ما حل ونزل ولازلت ترى، ولا طاقة لك، ولا لأعوانك بحرب جند الله عز وجل.

---

(١) جغرافية وتاريخ السودان ـ نعوم شقير ـ ص ٧٨٣.

وقد ذكرت أن "عبد القادر ولد أم مريوم" حبيبك، وتقبل قوله ونصيحته. وطلبت ارساله إليك فعلى ماذا؟ هل أنت منيب إلى الله؟ وقصدك التسليم لنا على يد المذكور؟ أم أنت على تصميمك فى إعراضك ومعاداتك لربك؟ فأفدنا لنعلم طلبك له هو على أى الوجهين، ونرسله لك إن رأينا فى ذلك صلاحا للدين.

وأقول لك: إن عزة الإسلام خير لك وأبقى لدوام احترامك فى الدارين فتحل بها ان عقلت(١)!

"فإن أراد الله سعادتك، وقبلت نصحى، ودخلت فى أماننا وضماننا فهو المطلوب، وإن أردت أن تجتمع على الانجليز الذين أخبرنا رسول الله بهلاكهم نوصلك إليهم.!

فإلى متى تكذيبنا وقد رأيت ما رأيت؟ وقد أخبرنا رسول الله بهلاك من فى الخرطوم قريبا إلا من آمن وسلم ينجيه الله، ولذلك أحببت لك ألا تهلك مع الهالكين، لأنا قد سمعنا مرارا فيك الخير، ولكن على قدر ما كاتبناك للهداية والسعادة ما أجبتنا بكلام يؤدى إلى خيرك كما نسمعه من الواردين والمترددين والآن ما يئسنا من خيرك وسعادتك. وسنكتب لك آية واحدة من كتاب الله عسى الله ييسر هدايتك، وطالما كاتبناك لترجع إلى وطنك(٢).

﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما ﴾ ؟!

هذا هو المهدى فى تفكيره ودعوته، وذلك هو غوردون فى عناده وتصلبه أن القائد الذى لا يقهر لا يريد أن يعترف بقائد آخر لا يهزم ولا يقهر... فلايزال غوردون أسير أمجاده السابقة وأحلامه. ماذا عليه لو حقن الدماء وأوقف

---

(١) منشورات الإمام المهدى ج٢ص٢٥١.

(٢) منشورات الإمام المهدى، ج٢، ص ٢٥٣.

الحرب؟ إنه غرور العظمة، وميراث الصليبية وكبرياء رجل يرى الأفارقة والمسلمين عبيدا و وحوشا مفترسة..!!!

والحروب لاتدار بمثل هذه العقلية، الحرب كر وفر، وإعداد وتخطيط، والقائد الحكيم هو الذى يزن الأمور بتجرد كامل عن هوى النفس.

وغوردون لم يكن حكيما، "كان - كما يصفه اللورد كرومر - مندفعا متهورا، ونادرا ما كان يصبر على رأى، ويبدو أنه كان خلوا من أية موهبة عظيمة القيمة"(١).

وقد دفع فى النهاية ثمن طيشه وتهوره، وانتهت حياته بمأساة لم تكن فى تصوره.

المهدى يزحف إلى العاصمة وجيوشه المظفرة تهتف مهللة ولكنه - أى المهدى - لا يريد حربا، إنه يريد أن يدخل المدينة صلحا، فكتب إلى غوردون فى اللحظات الأخيرة قائلا:

"لولا مراعاة حسم دماء المسلمين لضربت صفحا عن مخاطبتك، فسلم تسلم أنت ومن معك. وقد نصحتك وأنصحك وإلا فالحرب بعد ذلك"(٢).

فكتب إليه غوردون قائلا: " لست أبالى بك ولا بجيوشك.. سترى ما يحل بك.. ففي الكفاءة لأن أعرفك قدرك، ولا تغرنك كثرة أنصارك!"(٣).

وأقبل التاسع من ربيع الآخر سنة ١٣٠٢هـ - الموافق ٢٦ من يناير سنة ١٨٨٥م فأمر غوردون أن تعزف موسيقى الجيش. وكأنما أحس الرجل بدنو أجله فأراد أن يسمع أغنية الوداع! ولكن الجيش الذى يريد أن تعزف موسيقاه

(١) النيل الأبيض، الن مورهيد، ص ٢٧٨.
(٢) جغرافية وتاريخ السودان، ص ٨٤٧.
(٣) المصدر السابق ، ص ٨٤٧.

لا يقدر أفراده على التنفس، لقد أجهدهم الحصار والجوع واليأس، وأصبح الموت أمنية يتمناها الكثيرون من أفراد هذا الجيش...!

ماهى نهاية كل هذا؟ لقد وجه غوردون هذا السؤال إلى نفسه إنها ولا محالة قدر مكتوب فى سجل الأزل أن الخرطوم ستؤخذ عنوة. ولكن إننى لن أنال حيا[١] ثم أمر بوضع الديناميت فى أقبية القصر. كى ينسف بمن فيه إذا لزم الأمر، ولكن الانتحار جريمة، إنها أكبر هزيمة يتعرض لها بطل. وقد كان غوردون فى نظر نفسه بطل الأبطال فكيف ينهزم؟!!

الله أكبر...

لقد انهارت قلاع الظلم، وسقطت الحصون فى يد الأنصار حصنا بعد حصن. وتلاشى كل أثر للمقاومة فى صفوف العدو، وحانت اللحظة الرهيبة بين غوردون وضحاياه فى ساحة القصر.

كان غوردون واقفا عند رأس السلم بثيابه العسكرية، وما كاد يرى جموع الأنصار متجهة نحوه حتى صاح فيهم قائلا[٢]:

- أين محمد أحمد؟

إن غوردون لم يفارقه كبرياؤه حتى هذه اللحظة، وهو موقف شجاع لا يلام عليه فى الحقيقة.

يا ملعون .. هذا يومك[٣]...!!

وقذف أحد المهاجمين بحربة لتستقر فى الصدر، وسقط القائد الذى لا

(١) مهدى الله ، ص ١٠٢.
(٢) جغرافية وتاريخ السودان، ص ٨٦٧.
(٣) مهدى الله، ص ١٠٣.

يقهر مضرجا بدمائه على سلم القصر...!!

وكانت نهاية فصل من فصول المأساة التى تعرض لها الإسلام فى القرن التاسع عشر، وبداية فصل جديد من فصول تلك الغارة التى شنت ـ على الإسلام والمسلمين فى كل أرض وقطر، فقد تناولت الصحف ـ فى انجلترا وأوروبا مأساة الخرطوم بالتعليق والوصف واتسمت لهجتها بالغضب والتهديد والعنف، وحرضت حكوماتها على العمل والأخذ بالثأر.

وكان يوما حزينا فى لندن. فقد مات شهيد المسيحية البطل، وتوقفت ساعات (بج بن) عن العمل، وكانت الملكة فكتوريا كما يصف سكرتيرها ـ فى حالة فظيعة.

كانت تهم بالخروج حين تلقت برقية "وفاة غوردون" فخرجت إلى مسكنى على مسافة ربع ميل، وسارت إلى حجرتى شاحبة ترتجف وقالت لزوجتى ـ التى جزعت لمرآها ـ فات الأوان(1)...!

أجل. فات الأوان، وتحرر السودان ، ورفرفت أعلام المهدية فوق ربوعه فى كل مكان...!!

كان العالم الإسلامى – كما يقول (لو ثروب ستودارد)(2). يغلى غليان الماء على النار، وقد انفجر فى "افغانستان" بركان حقد وعداء عظيم للغرب، فتناولت حممه مسلمى الهند، فألهبت صدورهم إلهابا، فهبوا يشقون عصا الطاعة على الإنجليز الذين ما استطاعوا تسكين العاصفة إلا بشق الأنفس، وركوب الهول، وحدث مثل هذا فى أواسط آسيا حيث ظهرت الطريقة "النقشبندية" فأخذت تمتد وتنتشر شرقا حتى بلغت الأقطار الصينية، فثار مسلمو الصين ثورتهم الكبرى

(1) النيل الأبيض ، ألن مورهيد، ص ٢٧٥.

(2) حاضر العالم الإسلامى، ص ٢٩٢، ٢٩٣.

فى "تركستان" و"ينان" كما اشتعلت فى جزائر الهند الشرقية الهولندية نار الثورات المثالية وهب رجال الدين فى أفريقيا الشمالية يستنفرون المسلمين للحرب والجهاد ومن هذا النوع كانت ثورة مهدى السودان، وهى الثورة التى دامت طويلا وفتت فى عضد الإنجليز فتاً كبيرا .. وأنزلت بهم خسائر فادحة، وقد كانت هذه الثورة المهدية من البواعث على شبوب هذه الثورات، وكان من أهم هذه الثورات التى زلزلت الأرض من تحت أقدام الاستعمار ثورة "المهدى محمد بن عبد الله حسن" فى صوماليا ربع قرن من الزمان حمل فيها هذا البطل لواء الجهاد ضد بريطانيا، وكان فى حربه وجهاده مثال الآباء والبطولة والمثل العليا.

لقد حارب هذا البطل فى ظروف دولية صعبة، وفى أحوال داخلية ممزقة، وبأسلحة قديمة وقليلة، لقد كان الوضع فى الصومال مختلفا عن السودان هذه المرة، وإمكانيات الثورة فيه أقل مما كان فى السودان حيث هبت الثورة، والعدو الذى يحاربه لم يكن واحدا .. بل كان عدد أعدائه أربعة.

لكن .. متى كان للقلة والكثرة تقدير فى موازين البطولة؟ ومتى كان للعدد والعدة حساب فى دخول الجنة..؟ لقد اندفع التتار كاعصار محرق من أواسط آسيا حتى اعتقد الكثيرون أنهم أمنع منالا على الموت.. فكانت صيحة"وا إسلاماه" هى القضاء المبرم الذى نزل بساحتهم فى عين جالوت. واندفع الصليبيون شعوبا وأمما يريدون مكة وفلسطين. فكانت "الله أكبر" هى القاصمة التى مزقتهم إربا على مشارف حطين.

لقد نشأ محمد بن عبد الله حسن، أو المهدى الصومالى فوق هذه الأرض التى شهدت قبل مولده بمئات السنين حركة من حركات الجهاد الخالدة فى تاريخ أفريقيا .. وهى حركة الإمام المجاهد أحمد القرين.

وقد ألف فى هذه الأحداث ـ العالم العربى ابن فقيه ـ كتابه المشهور "فتوح

البلدان" - وهو كتاب يختلف بالطبع عن سميه الآخر الذى ألفه "البلاذرى"، وكانت حيازة هذا الكتاب عند الأحباش جريمة عقوبتها الإعدام لمن يثبت أنه يعرف القراءة.. والسجن المؤبد لمن يثبت جهله بها(١)..!!!

وبالرغم من الفارق الزمنى الكبير بين الرجلين، فقد كانت روايات هذا الجهاد الذى قام به السلطان "أحمد القرين" تتناقلها الألسن والأحاديث كلما داهم بلاد الصومال خطر قريب من الجار.. أو غزو بعيد من بلاد الاستعمار.

* * *

ولد الزعيم محمد بن عبد الله حسن فى ١٧ ابريل عام ١٨٦٤م بالقرب من "بوهوتلى" (Bohotle) فى شمال الصومال، وكان جده الشيخ حسن نور من قبيلة الأوجادين قد استقر هناك وتزوج من إحدى بنات قبائل الدولباهنت، وهى العشيرة المحلية فى بوهول، ولم يعرف إلا القليل عن والد السيد محمد عبد الله، لكنه كان مهتما بتعليم ابنه، فأرسله والده إلى مدارس القرآن الكريم، ومنذ طفولته كان يهوى قيادة الأطفال فى ساحة الألعاب الرياضية، ودخل إحدى المدارس الإسلامية فى الأوجادين للتزود بالعلوم الشرعية، وما أن انتهى من حفظ القرآن حتى شارك أستاذه فى تحفيظ الطلاب لهذا الكتاب الكريم، وبدأت مرحلة جديدة من حياته استهلها بالاتصال بالعلماء والشيوخ المحليين بقصد التزود بالمعارف الإسلامية والعلوم الشرعية والأدبية.

استطاع السيد محمد عبد الله بذكائه وسرعة استجابته أن يحقق لنفسه مكانة مرموقة بين أهل الفقه ورجال الدين الذين أخذوا برأيه، ولمسوا فيه التقوى والصلاح. وكان عليه مثل غيره من شباب الصومال أن يبحث عن مهنة يمارس فيها نشاطه، ووجد فى الصيد والفروسية والملاحة خير من يساعده على صقل

(١) مهدى الصومال، دكتور محمد المعتصم سيد، سلسلة مذاهب وشخصيات ص٨، القاهرة.

قواه البدنية وتدريبه على مواجهة الكوارث والأزمات، والإصرار على تخطى العقبات والمشكلات.

وقبل أن يكمل العقد الثانى من عمره كان رصيده من علوم الدين يؤهله لحمل لقب (شيخ)، وهو اللقب الذى أعطاه حق ممارسة إلقاء الدروس الدينية فى المساجد، حيث بدأ ينتقل من مركز إسلامى إلى آخر فى كل من هرر ومقديشيو ونيروبى وغيرها، فالتقى بالعلماء وخالط رجال الدين، وهذا ما ساعد على صقل مواهبه، وما أن حصل على هذه الجرعة من خلال تلك الزيارات المستمرة حتى أحس بضرورة الاستقرار، فعاد إلى بلاده حيث تزوج وهو فى سن الخامسة والعشرين، وبدأ يكسب لقمة العيش من خلال ممارسة القاء الدروس فى المساجد(١).

قدمت إليه وفود الطلاب والمريدين الذين وجدوا فيه العالم المثقف الذى يساعدهم على فهم علوم الدين، فأنسوا به، ووقفوا معه، وكانوا نواة جنوده المخلصين(٢).

وفى عام ١٨٨٥م قرر السيد محمد عبد الله التوجه إلى الجزيرة العربية لأداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة، وصحبه فى هذه الرحلة مالا يقل عن ثلاثة عشر رجلا من المخلصين لدعوته، ومن خيرة أصدقائه وأتاحت له فرصة الحج التعرف على عدد كبير من الفقهاء والمشايخ حيث قابل الشيخ محمد

---

(١) كان أهل المنطقة التى يستقر بها أحد الشيوخ يقومون بجمع الأموال وإهدائها للشيخ وكانت تسمى زيارة، وكان معلمو القرآن يحصلون على أموال معلومة من كل طفل يعلمونه على فترات معينة.

(٢) تمام همام تمام: تطور حركة الجهاد الوطنى فى الصومال ١٩٠٠-١٩٦٠، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٢٨.

ابن صالح الرشيدى، وانضم إلى طريقته الجديدة، وصار خليفته(١).

وفى الحجاز وقف السيد محمد عبد الله على حال المسلمين، ومحاولات الشعوب الأوربية تقطيع أوصال الأمة الإسلامية، كما وقف على جهود رجال البعثات التبشيرية التى تسعى إلى نشر الديانة المسيحية فى بلاد عرفت الإسلام منذ زمن طويل. كما أتاحت له فرصة الحج معرفة أخبار الثورة العرابية فى مصر، وثورة الزعيم محمد أحمد المهدى فى السودان، وكيف توحدت أهداف الثورتين من أجل استخلاص الوطن إلى أبنائه من حكم الدول الاستعمارية التى راحت تبسط سيطرتها هنا وهناك فى ديار الإسلام والمسلمين.

ولقد كانت كل هذه العوامل سببا فى إزدياد روحه الثورية وسعيه لشن حرب، جهاد ضد قوى الاستعمار الأوروبى التى بدأت هى الأخرى بالسيطرة على أرض الصومال بالإضافة إلى هدفه الأكبر فى نشر الدين الإسلامى بين الشعوب التى عرفت الإسلام اسميا. ناهيك عن مقاومة النفوذ الحبشى الذى يطمع فى السيطرة والتسلط على بلاده. وباختصار كانت رحلة الحج بمثابة مرحلة الاعداد لهذه المهمة الكبرى وتلك الأهداف الكبيرة والنبيلة.

وفى عام ١٨٩٥ قرر العودة إلى بلاده عن طريق عدن، وكانت بريطانيا قد أصبحت صاحبة السيطرة على موانىء بربرة وبلهار وزيلع اثر انسحاب القوات المصرية منها، وعندما هبط أرض عدن أحس بمرارة العداوة للمسيحيين وما أن التقى بأحد البريطانيين حتى طلب منه هذا الرجل مشاهدة المظلة التى يحملها فى يده، ورفض السيد محمد عبد الله الإستجابة لهذا الأجنبى وذهب بعيدا عنه، لكن البريطانى تبعه، وحاول أن يريه المظلة بالقوة فما كان من السيد إلا أن دفعه

(3) Jardine Dovglas The Mad Mvllah of Sowaliland London, 1923. P.39.

بيده فسقط الرجل فى مياه البحر، وتجمع البريطانيون وكلهم دهشة من هذا الرجل الذى يتجرأ على ضرب أحد الأوروبيين ولولا تدخل رجال الشرطة فى عدن لدخل السيد محمد عبد الله السجن هناك.

ومنذ هذه الحادثة أدرك السيد أن التفاهم مع الأجانب أمر صعب، وأن التعامل معهم سيكون أشد صعوبة وقسوة، فازداد حقدا وكراهية لهم، واستقل الباخرة المتجهة إلى بربرة وقلبه ملىء بالمرارة والأسى، فوصلها فى الثانى من أغسطس ١٨٩٥ حيث لقى معاملة قاسية من رجال الجمارك الذين طلبوا منه رسوما جمركية على أمتعته، فكان جوابه ومن الذى أعطاكم تصريحا بالدخول فى بلادنا(١).!!!

واستقر الشيخ فى ميناء بربرة كخليفة للشيخ محمد صالح صاحب الطريقة الصالحية، حيث قام بنشر تعاليم الطريقة، وتعليم الأهالى أصول العبادة، وانتقل من مكان إلى آخر يخطب فى الناس، ويقدم لهم النصح والارشاد، بل أقام مسجدا ليكون له مقرا ومستقرا للقاء الأتباع والمريدين. وكان لجهوده المخلصة الفضل الأكبر فى نشر الطريقة الصالحية التى إزداد أتباعها يوما بعد يوم حتى صارت تنافس الطرق الصوفية الأخرى فى بلاد الصومال. وبدأ السيد محمد عبد الله يحث الناس على الجهاد فى سبيل الله ضد الأوروبيين الذين يتربصون بالإسلام والمسلمين.

وذات يوم التقى بمحض الصدفة بمجموعة من الأطفال الصغار وهم فى طريقهم إلى مدارس البعثة الكاثولوكية الرومانية فى بربرة. وكانت هذه البعثة قد اتخذت لها مقرا فى بربرة

---

(١) تمام همام تمام : مرجع سابق، ص٢٩.

منذ عام ١٨٩١، وبدأت تجمع الأطفال اليتامى وتقوم بتعليمهم مبادئ المسيحية، ولما التقى بهم السيد محمد وعرف حقيقتهم وأن البعثة تقوم بتغيير أسمائهم إلى أسماء مسيحية، ارتعدت فرائصه وقام على الفور بارسال شكوى إلى المقيم السياسى البريطانى فى بربرة يطالب فيها بابعاد المسيحيين والمبشرين عن أرض الصومال الإسلامية.

بدأ السيد محمد عبد الله حملة ضد الأعمال المنافية للشريعة الإسلامية فطالب بالغاء استيراد الخمور إلى بلاده، كما طالب بعدم ارسال الأطفال إلى المدارس المسيحية، وجاءت حادثة عارضة لتزيد من اشتعال الموقف الذى أوشك على الانفجار، تلك هى حادثة القس الذى كان يقطن بجوار أحد المساجد فى بربرة، وكان الأذان يؤرق مضجعه. فقام باطلاق النار على المؤذن فاشتعل بذلك نار الحقد عند المسلمين، وبدأت طلائع الجيش الثورى ضد الأوروبيين، وظهرت حركة مقاومة رجال التبشير والمبشرين. وقام المسلمون بهدم المركز التبشيرى فى ديمول demoil ولاحقوا القسيس فى محاولة الفتح به، وتحطيم كل المراكز التبشيرية. وكان حادث القسيس قد ترك أثرا عميقا فى نفوس الناس وفى نفس السيد محمد عبد الله الذى أدرك أنه لابد من الصراع معهم، وانقاذ ديار الإسلام والمسلمين من تسلط الكفار والوثنيين.

ولما ازداد الموقف اشتعالا اضطرت الحكومة البريطانية إلى طرد المبشرين وفعلا قامت بترحيلهم على ظهر باخرة إلى عدن، وتعهدت هذه السلطات البريطانية بعدم السماح لهم بالعودة إلى الصومال، ومنع بناء الكنائس فى البلاد، وعدم فتح محلات لبيع الخمور.

وجاءت حادثة أخرى جعلت السيد محمد عبد الله حسن يعلن الجهاد ذلك أنه فى ١٩ مارس عام ١٨٩٩ هرب أحد رجال الشرطة ويدعى هيرس من بربرة

إلى السيد محمد حاملا مسدسه، ولم يعرف السيد ما إذا كان الجندى قد اشتراه أم لا. ولما أن سمع القنصل البريطانى فى بربرة بتلك الحادثة حتى أرسل إلى السيد محمد عبد الله يطلب منه إعادة المسدس، فكان رد السيد قائلا: أيها الرجل إننى لم أسرق منك شيئا خذ ما تريد من الذى سرقك واعبد أى إله اخترته لعبادتك، والسلام.!

كان الصومال فى ذلك الوقت ممزقا بين دول الاستعمار والطغيان، فبريطانيا تحتل منه جزءا، وفرنسا تحتل جزءا، وإيطاليا تحتل جزءا، والحبشة تريد منه أجزاء لا جزءا واحدا، أضف إلى كل ذلك، تفرق الكلمة فى الداخل بسبب التنازع بين شيوخ القبائل، ووقوف بعض مشايخ الطرق الصوفية موقفا ممالئا للاستعمار الغاشم(١).

لقد بدأت حركة الجهاد التى حمل لواءها مهدى الصومال، بحملة واسعة أوضح فيها أهدافه من هذه الحركة، وكان أسلوبه فى الكلام أسلوبا بالغ الروعة، وقد ساعده فى ذلك ثقافته الإسلامية، واستشهاده الدقيق بالكتاب والسنة، أضف إلى هذا شخصيته القوية التى أضفت على كلامه سحرا.. عذوبة، وقد وصف "الملا" هذه المرحلة من مراحل الجهاد والحركة فقال فى كلمات مثيرة معبرة:

"فشرعت فى استعداد سريع سرى من جهة، وخطب ومواعظ مؤثرة من جهة أخرى، وكنت أدعو القبائل الصومالية للتحرر من الشك والتكاسل، إلى اليقين والعمل، ومن التخالف والتخاذل، إلى التعاون والتكاتف، ومن الخوف والهلع، إلى الإقدام والجرأة، ومن الاستسلام والذلة، إلى الاستبسال والعزة،

---

(١) مهدى الصومال ص ٤٢.

هذا الكلام من غير شك لا ينطبق على جميع الطرق الصوفية، إنها حالات شاذة فقط. وقد كان مهدى الصومال صوفيا، والمهدى السودان صوفيا، وأكثر زعماء الجهاد والثورة كانوا من الصوفية.

فاجتمع لدى عدد كبير من القبائل الصومالية، فغرست فى نفوسهم محبة دينهم ووطنهم، وبغض عدوهم من الكافرين ومن يساندهم، وانطبعت معانى القرآن الكريم في نفوسهم، وفهموا المقصد منها، وتعاهدوا على الجهاد والدفاع عن الدين والوطن والشرف، وأخذوا فى الاستعداد بالرماح والسيوف، والبنادق القليلة.

ومرت سنوات .. والمهدى الصومالى يتحين الفرصة للدخول مع قوات الاحتلال فى معركة، ثم حانت هذه الفرصة بارسال بريطانيا أربع حملات مجهزة، فقضى عليها المهدى الصومالى واحدة بعد واحدة.!!!

بعد هذه الهزيمة الساحقة التى لحقت بالقوات البريطانية، رأت بريطانيا أن تشرك معها فرنسا وإيطاليا فى هذه المعركة، وقدمت للدولتين ـ من أجل ذلك ـ تنازلات كثيرة، ولم تكتف بريطانيا بفرنسا وإيطاليا فأشركت معهما الحبشة فى هذه اللعبة.!

فبالنسبة لفرنسا رأت بريطانيا أن تبرم معها اتفاقا لمنع تسرب الأسلحة من ميناء "جيبوتى" إلى قوات "الملا" وبالنسبة لإيطاليا فإنها رأت فى حركة المهدى الصومالى تهديدا لممتلكاتها فى البلاد الإسلامية التى سيطرت عليها، فقررت أن تقف بجوار بريطانيا مساعدة لها وحماية لمصالحها.

أما الأحباش فإن دورهم ـ فى حرب الإسلام والمسلمين ـ أصبح جزءا لا يتجزأ من تركيبهم العضوى. وقد وجدوا فى هذا التحالف مع طواغيت الاستعمار فرصتهم الذهبية للانتقام والثأر والتشفى.

إنها معركة غير متكافئة من غير شك.. وكان على مهدى الصومال، أو "الملا" أن يحارب فى هذه الجبهات جميعا. إنه قدر كتب على الأمة الإسلامية فى هذه المرحلة الحالكة من تاريخها. وقد مضى المهدى الصومالى فى طريقه

غير عابئ بالتضحيات التى يتعرض لها.. انه منطق الإيمان، ومنطق الإيمان لا يضع فى حسبانه قيمة للخسران والربح.. ذلك شأن التجار والسماسرة من أدعياء الحرية والفكر.. إنها إحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر.

وكما فعل غوردون مع المهدى السودانى حين كتب إليه قائلا: إنى قادم إليك بجنود أقطع بهم أنفاسك.. فقد أرسل الجنرال "كوفل" القائد العام للقوات البريطانية هذه الرسالة إلى "الملا"[1]:

"سننسفك نسفا إذا لم ترجع عن غيك.. وإذا لم تخمد ثورتك الجنونية، واعلم أن حكومة صاحبة الجلالة عظيمة جدا.. ولا يستطيع مجنون مثلك أن ينال منها شيئا.. فارجع عما أنت فيه، وعد إلى صوابك قبل أن تقع المصيبة عليك وتندم على أعمالك السيئة".!

وقد رد عليه المهدى الصومالى قائلا:

" من السيد محمد بن عبد الله حسن قائد القوات الإسلامية الصومالية إلى الجنرال كوفل. قائد الشيطان.!

وقد اطلعت على رسالتك وفهمت منها جميع أغراضك الدنيئة، وأغراض حكومتك الوضيعة.. واعلم أن قواتك التى تفاخرون بها لا تساوى لدى شيئا، واعلمك أيضا أنكم إذا كنتم تحاربوننى بقواتكم الهائلة الكثيرة العدد، فإنى أقاتلكم بنيتى الصالحة، وبإيمانى القوى، وبعزيمتى التى لا تعرف الملل، ومهما تكن الظروف لن أستسلم لك وأكون للشرك عبدا".!!!

لقد طار صواب الاستعمار البريطانى بعد هذا الرد الحاسم.. وبدأ الجنرال "كوفل" يجمع قواته لخوض معركة فاصلة مع هذا الأبى الثائر.

(١) الملا: كلمة أصلها فارسى - ومعناها الشيخ أو الإمام.

إن مأساة "غوردون" تتكرر هذه المرة مع الجنرال "كوفل".. والغرور الذى أدى إلى مصرعه فى الخرطوم يقود خلفه على أرض الصومال إلى المصير نفسه.

لقد بدأت المعركة.. وسقط الجنرال المغرور تحت سنابك خيول المجاهدين وأقدامهم.. وكان وقع هذه الهزيمة كوقع سابقتها- فى الخرطوم - أليما ومريرا ومفزعا.. وقد رأت بريطانيا بعد هذه الهزيمة سلوك طريق آخر.

ان حيلها كثيرة فى اصطياد الزعماء والمجاهدين فى العالم الإسلامى.. إن سيف المعز وذهبه مثل معروف فى التاريخ كله.. ومن يدرى فلعل الملا محمد عبد الله حسن يريد ملكا ويريد ذهبا.

وبدأت المفاوضات .. وكان طلب الحكومة البريطانية يتركز فى ضرورة وقف القتال والقاء السلاح.. وفى نظير ذلك تعترف الحكومة البريطانية بمهدى الصومال (محمد بن عبد الله حسن) ملكا متوجا على الصومال كله.

لقد تكرر هنا أيضا ما فعله "غوردون" مع المهدى السودانى بتعيينه سلطانا على كردفان.. إن التاريخ يعيد نفسه بالرغم مما يقال.. وسنرى كيف كان رد مهدى الصومال، كما عرفنا قبل ذلك رد مهدى السودان.

لقد أمر رجاله أولا برد الهدايا التى بعث بها إليه نائب الملكة فى الهند ثم وجه حديثه بعد ذلك إلى رئيس الوفد:

اننى لم أفكر فى يوم من الأيام أن أكون ملكا.. ولم يكن ذلك هدفى لا فى الحاضر ولا فى المستقبل.. ولكن هدفى الوحيد هو أن أطرد الاستعمارمن بلادى وأعيد إليها حقوقها المغتصبة.. وأطهرها من النفاق والشرك.. ولست أبالى بعد ذلك أن أحيا أو أموت(١)..!!!

(١) مهدى الصومال- ص٥٠.

مَنْ منَ الأجيال المعاصرة يعرف شيئا عن أفريقيا وعن الإسلام والمسلمين فى أفريقيا؟

من يعلم. أن المسلمين فى "جنوب السودان" أكثر من المسيحيين؟!!

وأن كلمة (موزمبيق) أصلها (موسى بك)؟! لقد وصل الأتراك العثمانيون إلى هذه المنطقة حين كانت تركيا دولة عظمى !! وقد زار السفاح البرتغالى "فاسكودى جاما" هذه البلاد والجزر التى حولها وقال فى مذكراته عن أهلها وسكانها .. (انهم مسلمون)!! ويحكمهم سلطان يسمى (نائب الملك) أى الخليفة ويقول "دى جاما":

لقد حسبونا من الأتراك[1]..! لهذا سألونا عن مكة وطلبوا منا كتب الشريعة.!!!

وسواء أكانت هذه "التسمية" صحيحة أو غير صحيحة فمن المؤكد أنه كان للمسلمين فى هذه البلاد دولة.. وكانت دولة غنية وقوية.

إن هذه الظاهرة.. ظاهرة تغيير الأسماء وتحريفها.. تجدها فى أسماء المدن كما تجدها فى أسماء الزعماء والرجال.. فعلا:

(سيكوتورى) أصلها الشيخ تورى..!

(مود يبو كيتا) الذى كان رئيسا لجمهورية "مالى" إن اسمه الأصلى (المؤدب).. لا.. "مود يبو".

و(ممادو) الذى كان رئيسا لحكومة السنغال بعد استقلالها كان اسمه فى الأصل (محمد) "لا" "ممادو".

---

(١) رحلة فاسكو دى جاما ـ ترجمة: د/عبد الله الشيخ، الهيئة العامة للكتاب.

ولكن.. ما موقفنا نحن العرب والمسلمين من هذا التجهيل والتعتيم على تاريخنا وحضارتنا؟ وما دور المؤسسات التعليمية والثقافية فى بلادنا؟ أسئلة إجابتها معروفة. والكلام عن هذه المؤسسات أو الجامعات يصيبنا بغصة..!

وإلا فبماذا تفسر هذا الجهل "العام" بين أبنائنا وشبابنا؟

ماذا تقول عن خريج الجامعة الذى لا يعرف من بنى الهرم الأكبر وهل هو "خوفو" أو "عمرو"..؟!

وماذا تقول عن فتاة تقدمت لامتحان وظيفة اعلامية ولا تعرف عن "العقاد" أكان كاتبا أم كان "طبالا" فى فرقة "كوكب" الشرق!!! أو عن "عرابى" وهل كان زعيما وطنيا.. أم كان صاحب "مقهى" فى ميدان "التوفيقية"!!!

منذ خمسة عشر عاما نشرت منظمة اليونسكو إحصائية عن مستوى القراءة فى العالم.

كانت أعلى نسبة فى "اليابان". فالرجل اليابانى يقرأ ٣٥ "خمسة وثلاثين" كتابا فى العام الواحد..!!

أما فى أوروبا وأمريكا. فكانت نسبة القراءة !!" أحد عشر" كتابا فى العام.

أما فى عالمنا العربى. فكانت نسبة القراء ١٠/١"عشر" كتاب أكرر (عُشْر) كتاب بضم العين واسكان الشين..!!!

بل حدثنى أمين عام إحدى الجامعات فى المملكة العربية السعودية قال:

- لم أصدق ما سمعته أذنياى من "خبير" في المناهج الدراسية من إحدى الدول العربية عندما وصل إلى المملكة أردنا تكريمه بأداء مناسك العمرة وزيارة المسجد النبوى فى المدينة.

سافرنا به إلى (مكة) للطواف حول الكعبة والسعى بين الصفا والمروة وبعد أن انتهى من أداء مناسك "العمرة" طلبنا منه الاستعداد للسفر إلى المدينة.

فسألنا قائلا:

- ولماذا السفر إلى المدينة؟!!!

- قلنا لزيارة الرسول والمسجد النبوى.

- فقال : وياليته ما قال ..!

- لقد قال:

- أليس الرسول مدفونا هنا فى داخل الكعبة..!!!

* وألغيت زيارته.. وعاد خبير المناهج الدراسية إلى بلده!!!

إن أفريقيا هى ثانية قارات العالم من حيث المساحة. إذ تبلغ مساحتها حوالى ٣٠ مليون كيلومترا مربعا وهى تشكل خمس مساحة اليابسة فى العالم أما عدد سكانها فهو نحو ٦٤٠ مليونا (ثمن سكان العالم). أطلق الرومان اسم أفريقيا على الجزء الذى سماه الأغريق ليبيا والذى كان يشمل المناطق المعروفة للقدماء آنذاك مع استثناء مصر والحبشة وقد استمد الرومان هذا الاسم من الاسم الذى أطلقه سكان تلك المناطق على أنفسهم.

وقد استخدم هذا الاسم الشاعر الرومانى (أنيوس) الذى كتب أشعاره أثناء الحرب القرطاجية التى نشبت بين الرومان والفينيقيين. ويقال أيضا أفريكا اس سام بمعنى "منفصل" أى أنها مناطق فينيقية منفصلة عن فينيقيا الآسيوية، كما تفسر بأنها مقتبسة من كلمة (فريقى) أو (فاريقيا)، ومعناها الفواكه، ويعزو المؤرخ الفرنسى (تشارل تيسو) إلى قبائل البربر الكبرى "أروكا" والتى يمكن نطقها "أفروقا". وأقدم الحضارات الأفريقية أقامها قدماء المصريين فى مصر

منذ نحو ٣٤٠٠ ق.م ومنذ القرن السابع طغت على كل هذه المناطق الحضارة العربية الإسلامية وعم الإسلام مناطق ما بعد الصحراء الكبرى.

ويشير د. عبد الفتاح الغنيمى فى كتابه (دور مصر الحضارى فى القارة الأفريقية) إلى أحد الدلائل الحية الباقية إلى اليوم والمتمثلة فى نهاية طريق مصر إلى غرب القارة الممتدة من "غات" على ساحل المحيط الأطلنطى إلى بولاق الدكرور (التكرور) بجوار سفح أهرامات مصر.. وهى المعالم التى تبين الصلات القوية التى ربطت مصر بغرب أفريقيا، وكيف أن بولاق الدكرور محرفة عن "التكرور" حيث ينسب ذلك الحى إلى أحد رجال الدين العلماء من غرب أفريقيا الذين دفنوا فى ذلك المكان، ولايزال مقامه موجودا فيه وهو الشيخ الصالح أبو محمد يوسف بن عبد الله التكرورى (نسبة إلى تكرور بغرب أفريقيا)، والذى تولى مناصب فى العصر الفاطمى، وهو بالمناسبة ليس الشخصية الأفريقية المهمة الوحيدة التى دفن رفاتها فى أرض مصر.

وتظهر أهمية موقع مصر.. الذى أعطاها كل هذا الثقل.. فى أنها كانت محطة رئيسية، ولا غنى عنها لمسلمى وسط غرب أفريقيا لأداء فريضة الحج.. فكانت قوافل الحجيج تمر بمصر ذهابا وإيابا.. وتستقر لفترات طويلة للدرس والتعليم والاستمتاع وإقامة الصلات السياسية. أى أن المرور بمصر لم يكن على سبيل (الترانزيت).. بل لإدراك الأفارقة لفوائد الاستفادة من مظاهر الحضارة المصرية.

وكان مرور سلاطين بلاد وسط وغرب القارة بمصر فرصة لتطوير العلاقات الثنائية مع مصر.. وذلك فى مختلف العهود.. وعندما كان الخليفة العباسى مقيما بالقاهرة كان السلاطين الأفارقة يسعون للحصول على الاعتراف الرسمى بهم كحكام لبلادهم.. وما يتطلبه ذلك من الحصول على تفويض شرعى من الخليفة.

وكان سلاطين وسط وغرب أفريقيا يستقرون بالقاهرة فترة طويلة وهم فى طريقهم إلى الأراضى الحجازية.. حتى يتجمع ركب الحجيج ويخرج المحمل والكسوة التى كانت ترسلها مصر سنويا للكعبة المشرفة.. وكانوا خلال هذه الفترة يختلطون بحكام مصر وعلمائها وقضاتها ويحضرون دروس العلم والفقه والشريعة واللغة العربية بالجامع الأزهر، كما كان أهم ما يحملونه معهم من القاهرة الكتب الدينية.. وكانوا يقتبسون الكثير من أنظمة الحكم والإدارة والطرق التى يسير عليها دولاب الحكم فى مصر ويقتبسون أيضا من الأمور الفقهية والقضائية على المذهب المالكى السائد فى بلادهم.

ومن أشهر القصص التى تناقلتها كتب التاريخ زيارة السلطان موسى سلطان مالى.. الذى زار مصر فى عهد الناصر محمد بن قلاوون، وبحشد كبير بلغ ١٢ ألف شخص، حيث تقدم للخزانة المصرية بحوالى ٥٠ ألف دينار من الذهب .. كما أغدق على كثير من المصريين الذهب حتى أن أسعار الذهب انخفضت بالقاهرة بسبب هذا "الإغراق" الذهبى !! ورد عليه سلطان مصر باغداقات مقابلة لدى عودته إلى بلاده (مالى).

ومن الأمثلة الأخرى رحلة الاسكيا محمد بن أبى بكر التورى سلطان سنغاى، حيث تم تقليده نائبا للخليفة العباسى "المتوكل" فى حكم بلاد غرب أفريقيا.

وتحولت القاهرة فى عهد المماليك إلى مركز لشبكة واسعة فى العلاقات الخارجية حتى أصبح ديوان الإنشاء المصرى (وزارة الخارجية) أضخم وزارة خارجية فى العالم أجمع فى ذلك الوقت...!!

وهل تعلم أن الامبراطور الأثيوبى (ليج ياسو) قد أسلم؟! ولولا تدخل القوى الصليبية لكانت الحبشة الآن من أهم مراكز القوة الإسلامية فى العالم؟!

إن قصة هذا الامبراطور الأثيوبى المسلم قصة جديرة بأن تروى:

كان أول عمل قام به هذا الامبراطور - بعد إسلامه - أن طلق زوجاته المسيحيات ثم تزوج من مسلمات..! ثم عاد وأعلن: أنه ليس من أحفاد الملكة "بلقيس" أو "النبى سليمان" بل من أحفاد النبى محمد ﷺ ؟!

ثم ألغى العلم "الأثيوبى" واستبدله بعلم جديد كتب عليه (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله)..!!

ثم أقام علاقات سياسية ووثيقة بين الحبشة وبين دولة الخلافة العثمانية.

وقد مضى الامبراطور "ليج ياسو" فى "أسلمة" كل شىء فى "أثيوبيا" وسعى سعيا حثيثا لإقامة وحدة إسلامية شاملة فى شرق أفريقيا.!

إلى هنا وتحركت أوربا بكل ثقلها.. لم تتخلف دولة واحدة عن ضرب هذه القوة الإسلامية الصاعدة، وقد وجدت هذه الدول الأوربية فى "هيلاسلاسى" الشخصية المناسبة.. أو "الدمية" الأثيوبية الملائمة لاجهاض هذه الحركة..!

* * *

لقد كانت "مالى" ... امبراطورية إسلامية من أكبر الامبراطوريات فى أفريقيا، وقد بلغت هذه الامبراطورية أوج عظمتها فى عهد السلطان (منسى موسى).. كما كانت "مالى" ملتقى لجميع القوافل القادمة من مصر ومن شمال وغرب أفريقيا.

وكل لمنسى موسى سفراء فى مدينة فاس، وكان أسلافه يحجون بيت الله الحرام كل عام، ولكن زيارة منسى موسى للأراضى المقدسة كان لها دوى كبير فى مصر وبلاد العرب. فلقد كانت حاشيته تضم خمسمائة عبد. وقيل أنه أخذ

معه خمسين ألف أوقية من الذهب وزع أكثرها على الناس هدايا وصدقات. ولما عاد إلى بلاده أحضر معه طائفة من مشاهير العلماء أقاموا فى مالى وتمبكتو. ومن أشهر هؤلاء العلماء أبو إسحاق الساحلى أو السهلى من أهل "غرناطة" ببلاد الأندلس، وقد مات "بتمبكتو" ، وإليه يرجع الفضل فى إدخال فن البناء بالأجر فى غرب السودان، وقد بنى مسجدا عظيما فى "جوا" ومسجدا آخر فى "تمبكتو" وغيره من المساجد كمركز ثقافى وتجارى، كما بنى قصر"منسى موسى".

ويذكر ابن بطوطة(١) عن كرم "منسى موسى" أنه أعطى أبا إسحاق الساحلى أربعة آلاف مثقال من الذهب فى يوم واحد، وأعطى غيره منه ثلاثة آلاف مثقال فى يوم واحد، وقد قيل أن رجلا من أهل تلمسان أعطى "منسى موسى" سبعة مثاقيل وثلث وهو صبى، ثم جاء إليه هذا الرجل وهو سلطان، فعرفه وقربه إليه، وقال للأمراء:

" ما جزاء من فعل ما فعله من الخير؟

فقالوا: الحسنة بعشر أمثالها، فأعطه سبعين مثقالا، فأعطاه عند ذلك سبعمائة مثقال وكسوة وعبيدا وخدما".!!!

وقد تنقل ابن بطوطة فى بلاد مالى فى أواسط القرن الرابع عشر الميلادى وزار بلاط منسى سليمان، واتصل بأمراء دولته وفقهائها، ولكنه ندد ببخل هذا السلطان وبتقصيره فى ضيافته وضآلة هديته إليه، على أن هذا السلطان عاد فأمر بانزال ابن بطوطة دارا خاصة وقرر له نفقة تجرى عليه، ولما حل اليوم

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المشهورة باسم رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص١٩٩-٢٠٠.

السابع والعشرون من شهر رمضان، وزع السلطان على القاضى والخطيب والفقهاء أموالا يسمونها الزكاة، وأعطى ابن بطوطة ثلاثة وثلاثين مثقالا وثلثا من الذهب، ثم أعطاه عند سفره مائة مثقال من الذهب.

وقد وصف هذا الرحالة قصر السلطان وطبقاته المغشاة بصفائح الذهب والفضة، أو بصفائح الفضة المذهبة على الأصح، وذكر أنه إذا جلس بالقبة، رفعت الستور، وضربت الطبول، ونفخت الأبواق المصنوعة من أنياب الفيلة، ثم يخرج من باب القصر نحو ثلثمائة من العبيد يحمل بعضهم القسى وبعضهم يحمل الرماح والدرق، ويقفون على ميمنة السلطان وميسرته، ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين، ومعهما كبشان يقال أنها تنفع من العين، ثم يأخذ الأمراء والخطيب والفقهاء أماكنهم. ومن أراد أن يكلم السلطان تقدم إلى رجل وأسر إليه بما يريد أن يقوله، فيتقدم هذا الرجل إلى رجل آخر يتولى نقل هذا الحديث إلى السلطان.!

كذلك وصف ابن بطوطة جلوس سلطان مالى على مصطبة تحت شجرة ذات ثلاث درجات يسمونها البنبى[1]. وتفرش هذه المصطبة بالحرير، وتوضع عليها الوسائد، وترفع عليها قبة من الحرير يعلوها طائر من ذهب على شكل البازى. ثم يخرج السلطان يحمل قوسه بيده وكنانته (جعبته) بين كتفيه، وعلى رأسه شاسية من ذهب مشدودة بعصابة من ذهب، ويرتدى جبة حمراء، وبين يديه المغنون، وخلفه نحو ثلثمائة يحملون السلاح، فإذا جلس السلطان ضربت الطبول ونفخت الأبواق، والتف حوله العبيد والأمراء على النحو الذى يجلس عليه فى قصره[2].!

---

(١) بفتح الباء الأولى وسكون النون وكسر الباء الثانية.

(٢) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص١٩٤ـ١٩٦.

وإذا أقبل العيد ارتدى الناس الثياب البيض، وعلى رؤوسهم الطيالسة وخرجوا إلى المصلى القريب من قصر السلطان، ثم يخرج السلطان ويأخذ الناس فى التهليل والتكبير. وإذا ألقيت الخطبة وأقيمت الصلاة نزل الخطيب وجلس بين يدى السلطان، وأشاد بفضائل العيد، وأثنى على السلطان، وحث على وجوب طاعته، فينقل أحدهم كلام الخطيب إلى الناس: ثم يجلس السلطان بعد عصر يوم العيد على عادته أيام الجلوس، ويقف على رأسه أربعة من الأمراء يطردون الذباب عنه، ثم يأتى أحد الأمراء بنساء السلطان الأربع وجواريه، مرتديات الملابس الجميلة، وعلى رؤوسهن عصابة الذهب والفضة، ويغنى هذا الأمير بشعر يمدح فيه السلطان ويشيد بما أحرزه من نصر فى غزواته ويمجد أفعاله، ويشترك النساء والجوارى فى الغناء، ويلعبن بالقسى ويساعدهن ثلاثون من الغلمان الذين يضربون الطبول. ثم يأتى الصبيان فيلعبون ألعابا بديعة تتسم بالخفة والرشاقة ويلعبون بالسيوف. ثم يوزع عليهم مثاقيل الذهب على حسب مراتبهم ثم ينشد الشعراء قصائدهم، وهى نوع من الوعظ وسرد سير الملوك الذين سبقوا السلطان وما قاموا به من أعمال الخير، جريا على التقاليد التى استمرت بعد تحولهم إلى الإسلام(١).

وأهل مالى أكثر زنوج افريقية رقيا وأشدهم ذكاء، ويمتدح الرحالة المحدثون صناعتهم ومهارتهم وأمانتهم ونظافة قراهم وشدة تمسكهم بالإسلام(٢).

وقد ذكر ابن بطوطة أنهم يشتهرون ببسط العدل واستتباب الأمن فى بلادهم، "فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب، ومنها عدم

(١) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص ١٩٧-١٩٨.

(٢) سير توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام - ترجمة ، ص ٢٧٥ .

تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان"[1] ولو كان القناطير المقنطرة، إنما يتركونه بيد ثقة حتى يأخذه مستحقه، ومنهامواظبتهم على الصلاة والتزامهم إياها فى الجماعات، وضربهم أولادهم عليها، وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلى لكثرة الزحام.. ولباسهم الثياب البيض يوم الجمعة، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة. ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم. وهم يحملون لأولادهم القيود إذا ظهر فى حقهم التقصير فى حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه[2].!!!

وكانت تمبكتو إلى جانب شهرتها التجارية، مدينة إسلامية منذ البداية ما دسنتها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن، وبعد ذلك بسنين أصبحت تمبكتو ذات شأن باعتبارها مركزا للتعاليم الإسلامية والعبادة، وتوافد عليها الطلاب وعلماء الدين فى جموع كبيرة، مدفوعين بما كانوا يلاقونه فيها من تشجيع ورعاية.

ولمدينة تمبكتو فى أفريقية الغربية ميزتان: الأولى أنها دليل على انتشار الإسلام ناحية الجنوب، والثانية أنها كانت إحدى الحواضر الإسلامية المهمة. وكانت لها جامعة شهيرة تخرج فيها علماء ومؤرخون كان لهم فضل كبير فى نشر الإسلام والحضارة العربية.

فى "باماكو" عاصمة (مالى) أنزلونا فى فندق إسمه "لاماتيه" وهى كلمة فرنسية معناها "الصداقة" إن مصر هى التى أنشأت هذا الفندق وكان ذلك فى عهد عبد الناصر والرئيس المالى الأسبق "موديبو كيتا" أو المؤدب كيتا.! كما شيدت مصر أيضا جسرا (أى : كوبرى) فوق نهر النيجر.. لن أتحدث عن

---

(١) يعنى بذلك الوافدين على بلادهم من بلاد المغرب.

(٢) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص٢٠٠.

الفندق. فقد صار موحشا ومخيفا بسبب الإهمال.. كما أن المصعد لم يكن آمنا لا فى الصعود ولا الهبوط..!

الشيء الوحيد الذى عشقته هو نهر النيجر.. صورة مكررة من النيل العظيم.. غير أن نهر النيجر كان أنظف..! فلم تكن هناك مصانع تلقى نفايتها فيه! كما لم تكن هناك سفن سياحية تلوث مجراه بفضلات الآدميين..!

على شاطئ نهر النيجر تجد كل أنواع السمك، والصيادون البسطاء يعرضون ـ عليك ـ بضاعتهم بأرخص سعر. صورة من أيام زمان.. حين كنت تمر على شواطئ النيل فى القاهرة أو فى الصعيد أو الريف فتجد طلبك جاهزا، وسعره رخيصا..!

كنا نريد السفر إلى "تمبكتو"... إنها من أهم المدن فى "مالى" فقد كانت أهم مركز إسلامى فى عموم غرب أفريقيا. ولكن "فرنسا" خربت كل الطرق المؤدية إليها؟! إن الاستعمار لم يكن ساذجا.. كان يعرف أن هذا المركز وأمثاله مصدر خطر. ففى هذه المراكز يتعلم المسلمون دروس العزة كما يعرفون فضل الجهاد والفداء دفاعا عن الأمة والعقيدة..!!

وقد "غصت" فى أعماق مدينة "باماكو" من شارع إلى شارع.. مشيا على القدم حينا.. وأحيانا فى داخل سيارة.. كان المشى هو المفضل.. فقد رأيت الناس على طبيعتهم. دخلت الدكاكين.. جلست مع باعة الفاكهة على الأرصفة.! تحدثت إلى من يعرف كلمة واحدة عربية.. لقد اكتشفت أن "اللغة العربية" مفتاح سحرى لقلوب الناس البسطاء..!

فى القصر الجمهورى التقينا برئيس الجمهورية "ألفا عمر كونارى" رجل بسيط وإن كان مثقفا.. لقد كان استاذا فى الجامعة قبل أن يصبح رئيسا للجمهورية.كما كان "يساريا" قبل أن يقول إمامنا للأئمة والدعاة من علماء مالى:

أيها العلماء : لقد اخترناكم لتكونوا "أدلتنا" إلى الله.. فاصدقونا القول عن الله..!!! نحن نثق بكم وفيكم فلتكن هذه الثقة حافزا إلى العمل وإلى إعادة روح التقوى والإيمان إلى قلب كل مسلم ومسلمة.!!!

كانت آخر زيارة - لى - إلى افريقيا.. تلك الزيارة التى قمت بها إلى "جمهورية تشاد" بدعوة من القيادة الإسلامية العالمية التى دعت إلى عقد مؤتمر إسلامى هناك فى العاصمة "انجامينا".. لكن أية عاصمة تلك التى اسمها "انجامينا".؟!!

لقد ترك الاستعمار الفرنسى هذه البلاد بعد أن امتص آخر قطرة من دمها! شأنه فى ذلك كشأنه فى معظم مستعمراته فى أفريقيا. فالعاصمة "انجامينا" لم تكن تختلف كثيرا عن أية مدينة تقع فى جنوب الصعيد أو فى شمال الدلتا.. وبالرغم من وفرة المياه فى "تشاد" حيث يجرى بين أراضيها نهران هما نهر "الكاميرون" ونهر "شار" بالإضافة إلى بحيرة "تشاد" فلا تكاد عيناك تقع على زرع أو نبات.. فقد كان الهم الأكبر للاستعمار الفرنسى هو السلطة والنفوذ ومطاردة الإسلام.. لم يكن يهمه استغلال هذه الثروات الهائلة لصالح الشعوب.. فهذه الشعوب لم تكن تزيد فى نظره على قطيع كغيره من قطعان الغنم والوحوش..!

حتى المطار فى العاصمة "انجامينا" لم يكن يختلف كثيرا عن أية محطة إقليمية للسكة الحديد، والحشرات تزحف فوق جدرانه بشكلها الكئيب.

وكان أسوأ ما تعرضت له الوفود فى المؤتمر الإسلامى العالمى .. امتناع الشركة الفرنسية التى تحتكر توزيع البترول TOTAL .. امتناع هذه الشركة عن تزويد الطائرة - التى تقل هذه الوفود بالوقود..! لقد كشرت الصليبية عن أنيابها.. ونسيت فرنسا بلد النور والتنوير أن للطيران حرمة يجب احترامها..!

لقد بقينا أكثر من ثمانية عشرة ساعة فى العراء دون أية رعاية. وافترش بعضنا أرض المطار فى محاولة للنوم أو الراحة.. ولم أنس حتى هذه اللحظة صورة "الشيخ علاء أبو العزايم" شيخ الطريقة العزمية وقد افترش عباءته خارج مبنى المطار.. وبالقرب من مهبط الطائرات فى احتجاج صوفى صامت.! ولولا لطف الله لرحل "الشيخ علاء" بروحه فقط..! إلى جده الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزايم..!!

إن الاستقلال فى معظم أقطار أفريقيا استقلال وهمى.. دعك من الأعلام المرفوعة فوق أبنية الحكومة. ومن النشيد الوطنى الذى يعزف فى كل مناسبة. فقد وقف رئيس المجلس الإسلامى الأعلى فى "تشاد" ليقول لنا أثناء أزمة الطائرة الجاثمة كجثة هامدة فوق المطار: قال:

أصدقكم القول أيها الأخوة.. إن الاستعمار الفرنسى لايزال جاثما فوق صدورنا.. فعلى بعد مئات الأمتار من هذا المطار توجد قاعدة فرنسية تتحكم فى مصائرنا، وقد كان انعقاد مؤتمركم الإسلامى هنا كارثة على فرنسا وعملاء فرنسا..!

والناس في "تشاد" مسلمون عميقو التدين.. فما يكاد المؤذن يرفع صوته بالأذان حتى يسرع الناس إلى المسجد، فإذا لم يكن هناك مسجد قريب.. افترشوا الأرض وخروا سجدا لله الواحد الأحد! وقد طفرت من عينى الدموع وبكيت حين رأيت الألوف من الرجال والنساء والأطفال وهم يهتفون بشهادة التوحيد، وبالرغم من مظاهر المسكنة والفقر، فقد أكد هؤلاء البسطاء والفقراء أن إيمانهم أقوى وأشد من الحديد.!

تقول (جلورا ويزنر):

إن الإسلام يجتذب الأفريقيين لأن عبادته لا تنطوى على شيء من العنصرية فأيا كان لون بشرة الرجل، وأيا كان مركزه الاجتماعى. وأيا كانت حالته الاقتصادية أو المادية، فإنه يجد فى واحة الإسلام أخوة ومساواة لا يجده فى أية دين آخر..

ويقول (اديسون سميث):

إن كثيرا من الرجال الإنجليز الذين يعتبرون أنفسهم مسيحيين طيبين لا يعترفون لغيرهم من الأجناس الأخرى بالأخوة والمساواة أما فى الإسلام .. فلا تجد شيئا من هذه العنصرية التى تفرق بين الإنسان وأخيه الإنسان.

وكما يقول شاعر أفريقى مسلم:

لقد عرفت معنى الحياة..

حين عرفت الإسلام..

لقد تلاشى فى نفسى. الإحساس بالدونية والنقص.

وعادت إلىّ كرامتى الضائعة التى استلبها المبشر الكاذب..

لقد أوهمونا بأحلام لم يتحقق شيء منها..

وجعلوا منا رقيقا وعبيدا للسيد الأبيض..

لم يأخذوا من المسيح النبى الطيب ذرة واحدة من الحب والتسامح..

لقد كانوا وحوشا أشد دموية من وحش الغابة أو تمساح النهر..!!!

وجوههم بيضاء

نعم ...

غير أن قلوبهم أشد سوادا من "القار"(١)

المسال فوق نيران الكراهية والحقد.!!!

إن الإسلام هو دين الغالبية العظمى فى أفريقيا - حتى الآن - وتنخفض نسبة هذه الأغلبية فى أفريقيا بنسب متفاوتة فى كل من أنجولا. زائير. رواندا. بورندى . زمبابوى. ملاوى. زامبيا. واتحاد جنوب أفريقيا.

كانت الحبشة أو ما يعرف الآن باسم أثيوبيا أول دولة أفريقية عرفها الإسلام وذلك حين هاجر المسلمون إلى الحبشة أيام النبى ﷺ ولجأوا إليها فرارا من اضطهاد قريش.

وقد لعبت الطرق الصوفية - التيجانية والقادرية دورا بارزا فى نشر الإسلام فى هذه القارة وبخاصة فى البلاد الواقعة على الشاطئ الشرقى للمحيط الأطلسى... أى فى غرب أفريقيا.

غير أن أهم هذه الطرق - على الإطلاق - كانت الطريقة السنوسية التى أسسها الإمام محمد بن على السنوسى فى ليبيا ولم يمت السنوسى حتى كان قد نجح فى تأسيس دولة دينية، وذلك بقوة عبقريته الصافية واستخدام كل وسائل الترغيب فى نشر دعوته. ويدين أتباعه بالطاعة والولاء لهذه الدولة. ويلزم أفراد هذه الجماعة القيام بأوامر القرآن فى دقة بما يتفق وأكثر مبادئ التوحيد المطلق، تلك المبادئ التى تجعل التعبد لله وحده وتحرم التضرع للأولياء وزيارة قبورهم تحريما تاما. وقد أوجبوا على أنفسهم أن يمتنعوا عن شرب القهوة والتدخين، وأن يسهموا بنصيب معين من دخلهم يضاف إلى أموال الجماعة إذا لم يستطيعوا أن يكرسوا أنفسهم لخدمتها.

---

(١) القار هو الزفت الذى يستعمل فى رصف الطرق.

وتنتشر طائفة السنوسية فى أفريقيا الشمالية كلها، وتنتشر زواياها من مصر إلى مراكش، كما تمتد إلى الداخل فى واحات الصحراء وفى السودان. وكان مركز السنوسية واحة جغبوب فى الصحراء الليبية بين مصر وطرابلس وفى هذه القرية كان يتعلم كل عام مئات من الدعاة، ثم يرسلون إلى كافة أجزاء افريقية الشمالية دعاة للإسلام. وكانت زواياهم الفرعية، التى قيل أنها بلغت ١٢١ زاوية، تتلقى من زاويتهم الرئيسية فى جغبوب التعليمات والأوامر فى كل المسائل المتعلقة بتدبير وتوسيع هذه الدولة الدينية الكبرى، التى كانت تضم فى نظام رائع آلافا من أشخاص ذوى جنسيات وقوميات متباينة، ولم يقتصر وجود أتباعهم على افريقية الشمالية من مصر إلى مراكش وفى أرجاء السودان وسنغامبيا وبلاد الصومال كافة، بل تجدهم كذلك فى بلاد العرب والعراق وجزائر أرخبيل الملايو..!!

وقد كان "شيخ المجاهدين" الشهيد (عمر المختار) الذى كانت حياته واستشهاده ملحمة من ملاحم البطولة الإسلامية، إبنا من أبناء هذه الطريقة التى تركت بصماتها فى عموم أفريقيا. لم أنس حتى هذا اليوم وبالرغم من مرور تسعين عاما على هذه الملحمة.

لم أنس هذا الاحتفال الذى أقامته (جمعية تحرير شمال أفريقيا) والتى اختارت القاهرة مقرا لها.. لم أنس هذا الاحتفال الذى أقيم فى (جمعية الشبان المسلمين) إحياء لذكرى هذا البطل المجاهد فقد تحدث فى هذا الاحتفال صفوة من زعماء مصر وفى مقدمتهم (حمد الباسل باشا) و(عبد الرحمن باشا عزام)، والصاغ محمود لبيب، وصالح باشا حرب ومحمد على علوبة باشا، وغيرهم من زعماء الجهاد والتحرير فى شمال أفريقيا.

منهم محيى الدين القليبى وعبد العزيز الثعالبى، والحبيب بورقيبه.. وعلال الفاسى.

لقد قال (القليبى) أو (الثعالبى):

فى تاريخ الإسلام ... ثلاثة اسمهم عمر:

عمر بن الخطاب.

وعمر بن عبد العزيز.

وعمر المختار..!!!

يقول منتسكيو:

"إن المرء لأشد ارتباطا بالدين الحافل بالشعائر، منه بأى دين آخر أقل منه احتفالا بالشعائر، وذلك لأن المرء شديد التعلق بالأمور التى تسيطر دائما على تفكيره".

إن دين المسلم يتمثل دائما فى مخيلته، وفى الصلوات اليومية.

يتجلى هذا الدين فى طريقة خاشعة مؤثرة، لا تستطيع أن تترك العابد والمشاهد كليهما غير متأثرين.

يتحدث سعيد بن الحسن، أحد يهود الاسكندرية، الذى اعتنق الإسلام عن مشهد صلاة الجمعة فى مسجد باعتباره عاملا حاسما فى تحوله إلى الإسلام.

فى خلال مرض شديد كان قد انتابه، رأى فى المنام أن صوتا يأمره بأن يجهر بالإسلام.(وعندما دخلت المسجد). ويستمر فى حديثه إلى أن يقول: (ورأيت المسلمين يقفون صفوفا كأنهم الملائكة..!

سمعت هاتفا يقول : هذه هى الجماعة التى أخبر الأنبياء (صلوات الله عليهم) بقدومها .!

ولما ظهر الخطيب مرتديا عباءته السوداء، استولى عليّ شعور عميق من الرهبة.. ولما ختم خطبته بالكلمات،

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾ [النحل].

ولما بدأت الصلاة، أحسست بقوة تدفعني إلى النهوض، لأن صفوف المسلمين بدت أمامى كأنها صفوف الملائكة. الذين يتجلى الله القدير فى سجداتهم.!

ثم سمعت هاتفا يهتف بى:

إذا كان الله قد تحدث مرتين إلى بنى إسرائيل فى كل العصور فإنه يتحدث إلى هذه الجماعة فى كل وقت من أوقات الصلاة، وأيقنت فى نفسى أنى خلقت لأكون مسلما..!

يقول رينان:

(ما دخلت مسجدا قط، دون أن تهزنى عاطفة حادة، أو بعبارة أخرى، دون أن يصيبنى أسف محقق على أننى لم أكن مسلما).!!!

لذلك... كان من السهل أن ندرك كيف أن منظر التاجر المسلم فى صلاته، وسجداته الكثيرة، وعبادته للإله الذى لا يراه، فى سكينة واستغراق، قد يؤثر فى الأفريقى الوثنى.

وقد أكد ذلك كثير من الباحثين(١)، ولكن حسبنا فى هذا المقام أن ننقل كلمات أسقف مسيحى مشهور.

---

(١) نقلا عن كتاب "الدعوة إلى الإسلام" تأليف "توماس ارنولد".

حيث يقول :

ما من فرد يتصل بالمسلمين لأول مرة إلا أخذ بمظهر دينهم هذا... وحيثما يمكن أن يوجد، فى الطريق العام، أو فى محطة السكة الحديدية، أوفى الحقل، فإن من أكثر الأشياء شيوعا أن ترى الرجل منهم، يترك عمله فى اللحظة التى يقوم فيها بأداء أعماله أيا كانت، بدون تأثر بالرياء أو الظهور، وفى سكينة وتواضع، لكى يؤدى صلواته فى أوقاتها المحددة.

وأكثر من ذلك أنه ما من فرد رأى يوما ساحة الجامع[1] الكبير يوم الجمعة الأخيرة من شهر رمضان. وهى غاصة بما قد يربو على ١٥٠٠٠ خمسة عشرة ألف مصل، وكلهم جميعا منهمكين في صلاتهم ، مظهرون أعمق آيات الإجلال والخشوع فى كل إشارة يبدونها، إلا تأثر بهذا المشهد، أو أخذ فكرة عابرة عن تلك القوى التى ينضوى مثل هذا النظام تحت لوائها، على حين نجد النظام الدقيق الذى يتجلى فى دعوة الناس اليومية إلى الصلاة، عندما يؤذن الداعى فى وقت السحر، قبل أن يتنفس الصبح، أو بين ضوضاء ساعات العمل وضجيجها. أو عندما يرخى الليل سدوله، وتبدأ ساعات الاسترخاء والنوم.!

فى نيجيريا كان للدور الكبير الذى قام به الإمام الداعية المجاهد الشيخ "عثمان بن فودى" أثره فى انتشار الإسلام فى إمارات شعب الحوصا (سكوتو)، (زاريا)، (كانو)، (باوتشى) و(جوبير)..

لقد ولد الشيخ عثمان فى قرية (مارشا) إحدى قرى ولاية (جوبير) وقد نشأ صوفيا فى رحاب الطريقة القادرية، إلا أنه أدخل بعد ذلك على هذه الطريقة اصلاحات جذرية جعلته يقترب من المذهب السلفي وبخاصة بعد أدائه فريضة

(١) مسجد عمرو بن العاص.

الحج وتأثره بحركة محمد بن عبد الوهاب، وقد أطلق عليه بعد هذا الجهاد والدعوة إلى الله (ساركين مسلمان) أى أمير المؤمنين.

وقد ألف مجموعة من الكتب.. يقال : إنها بلغت مائة كتاب، ومن الغريب أننا وجدنا بين هذه الكتب كتابا اسمه (كف الطالبين عن تكفير عوام المسلمين)...!

كما قام الأزهر بطبع أحد كتبه واسمه (إحياء السنة وإخماد البدعة).

ومن الأشياء اللطيفة أننا نجد فى بعض مؤلفات العلماء النيجيريين أن الإمام السيوطى المصرى صاحب المؤلفات الشهيرة والكثيرة قام برحلة إلى نيجيريا عن طريق السودان وتشاد والنيجر قطعها فى ثلاث سنوات متنقلا من بلد إلى بلد على ظهر دابة عبرت به الصحراء، وهذا يؤكد العلاقة والصلة التى كانت بين الأزهر وعلمائه وبين العلماء والدعاة فى هذه الأقطار...!!!

لقد تجاوز عدد سكان شعب نيجيريا ١٠٠ مائة مليون من الناس وتبلغ نسبة المسلمين فى نيجيريا حوالى ٨٥٪ من مجموع السكان كلهم مدينون لهذا الشيخ العالم الذى كان خلقه وزهده، وورعه، وجهاده السبب الأول لدخولهم فى الإسلام.

وقصة الشيخ عثمان بن "فودى" مثل وعبرة لغيره من العلماء والدعاة فى هذا الزمان.

يقول المؤرخون لسيرة الشيخ عثمان:

أثناء تجوله وإقامته فى بعض الأماكن للدعوة فى سبيل الله كان الشيخ عثمان بن فودى يعقد مجلسين للوعظ والارشاد، أحدهما للخاصة والآخر للعامة. والخاصة هؤلاء هم طلبته وبعض العلماء الذين لازموه فى الحضر والسفر. وكان

من الطبيعى أن تختلف الموضوعات والمناهج والأساليب التى يطرح بها تلك الموضوعات للعامة عن التى يطرحها للخاصة.

رأيته غير[1] مرة إذا أراد الخروج إلى الناس يقف فى زاوية الدار هنيهة ويتكلم بكلام ثم ينصرف إلى الناس، فسألته عن ذلك فقال أجدد النية وأعاهد الله على الإخلاص فيما أخرج له وأسأله أن يفهم الحاضرين ما أحدث به ومع ذلك كنت أجدد النية فى المجلس وأتذكر العهد. وكان إذا وصل إلى المجلس سلم بسلام عام يسمعه جميع الحاضرين وإذا صعد الكرسى حياهم بتحية عامة ثلاث مرات ببشاشة، وطلاقة وجه، وحسن خلق، ثم ينصت الناس فلا يضجر ولا يحقد ولا يسأم مع كونه مبتلى بجماعة من العوام ذوى أدب ناقص إذا أنصتهم لا يسكنون وإذا منعهم من السؤال لا ينتهون ...!

وكان الشيخ عثمان بن فودى فى نهاية دعوته يحدث الناس فى خمسة أمور رئيسية، أولها ما فرضته الشريعة من الأصول والفروع الظاهرة والباطنة والثانى ما يتعلق باتباع السنة وترك مادونها من البدع والمنكرات.

والثالث فى رد الأوهام والآراء الخاطئة فى أذهان الطلبة مما تلقوه من علم الكلام وتكفيرهم عامة الناس بلا مبرر شرعى، وخاصة أنه شاع فى ذلك الزمان أن بعض العلماء كانوا يحرمون أكل ذبائح العامة أو التزاوج معهم لجهلهم بحقيقة التوحيد! عالج الشيخ عثمان ابن فودى هذه الأفكار الخاطئة وأكد إيمان العامة، وبين أن خوض الطلاب فى هذه المتاهات الكلامية يصرفهم عن الواجب الشرعى وعن الدعوة إلى الكتاب والسنة. أما الرابع فيدور حول إخماد البدع الشيطانية التى أحدثها الناس فى دين الإسلام ورد العوائد المخالفة للشرع. ويختص الأمر الخامس بتعليم العلوم الشرعية وتبسيط مشكلاتها وتقريبها من فهم العوام.

(١) الترجمان عن كيفية وعظ الشيخ عثمان - محمد بيللو - نيجيريا.

وقد لعبت (الأروقة) التى ألحقت بالأزهر، والتى تشبه فى يومنا هذا (المدن الجامعية) التى يسكنها الطلبة المغتربون لعبت دورا كبيرا فى تعميق معانى الأخوة بين أبناء العالم الإسلامى فى كل دولة كما كانت الحياة فى هذه الأروقة أشبه بحلقات العلم التى يناقش فيها الدارسون مختلف القضايا والشئون العامة والخاصة، كما كانت فرصة لتبادل الآراء حول أهم هذه القضايا والوسائل التى تساعد على نشر الإسلام والنهوض بالدعوة.

إن كلمة "مجاور" .. و "مجاورين" التى كانت تطلق فيما مضى على طلبة الأزهر تعنى هؤلاء الطلاب الوافدين من أقطار آسيا وأفريقيا.

كثير منهم رفضوا العودة إلى بلادهم بعد التخرج. عاشوا وماتوا ودفنوا فى مقبرة خاصة بهم تعرف بقرافة "المجاورين" فى سفح جبل المقطم.!!!

إن قصة الشيخ "موسى أبو بكر" التكرورى(1) المجاور القديم فى "رواق التكارنة" تعتبر نموذجا من نماذج هؤلاء "المجاورين" الذين قضوا زمنا طويلا فى سبيل الحصول على "عالمية الأغراب" التى كانت تمنح إلى الطلاب الوافدين من أقطار آسيا وأفريقيا.

الشيخ موسى هذا قضى أكثر من ثلاثين عاما. فى سبيل الحصول على الشهادة. وتقدم للامتحان أكثر من مرة. غير أن الحظ لم يحالفه طوال هذه السنوات كلها فقرر العودة إلى "تمبكتو" لاستئناف المحاولة هناك مرة أخرى.

وفى حالة من اليأس... صلى الشيخ "موسى أبو بكر" صلاة العصر فى الجامع الأزهر.. ثم ركن بجسده إلى عمود من أعمدة الأزهر فشاهد "نملة" تحمل بقية من فتات الخبز وتصعد بها إلى أعلى العمود. حتى إذا اقتربت من السقف، وكادت تصل إلى الهدف سقطت النملة وسقط معها حملها من فتات

(1) نسبة إلى "تكرور" مقاطعة في جمهورية مالي.

الخبز..!

فبدأت النملة محاولتها من جديد.. تلتقط الفتات ثم تصعد ثانية على العمود. وما تكاد تصل إلى السقف حتى تسقط ثانية على الأرض.!

إن"النملة" لم تيأس..! وكررت المحاولة بعد ذلك مرتين وثلاث.. وفى النهاية وصلت إلي الهدف، واستراحت بعد العناء واليأس.!!

الشيخ "موسى أبو بكر" تابع هذا كله. ورآه وشاهده.. فاذا به ينهض واقفا.. ويمضى إلي الرواق مسرعا.

لقد فوجيء أخوانه بهذه الحيوية التى حلت عليه فجأة، وجعلت منه إنسانا مختلفا عما كان عليه قبل ساعة.

وهنا قص عليهم الشيخ موسى قصة "النملة"! ثم قال فى طمأنينة وثقة!

إن هذه النملة علمتنى ما لم أكن أعلم. أن يد الله الحانية الرحيمة تجسدت فى قصة هذه النملة، أفأكون أنا الإنسان العاقل أقل أملا واصرارا من هذه النملة.؟!

لقد خلق الشيخ موسى من جديد.. فتقدم للامتحان للمرة الأخيرة وفاز فيه بعد يأس أكيد.!

* * *

نحن الآن نستعد للسفر إلى ممباسا(١)... فقد حجزوا لنا على متن طائرة صغيرة اسمها "داكوتا" لا تتسع لأكثر من خمسة عشر مسافرا.

---

(١) ممباسا الميناء الرئيسى لدولة كينيا ويقع على شاطئ المحيط الهندى. وكانت هذه المنطقة خاضعة لحكم المسلمين قبل هجوم الاستعمار الغربى.

إن المسلمين فى ميناء "ممباسا" اتصلوا بالسلطان "فنذكيرا" يسألون عن موعد قيام الرحلة ووصولها إلى الميناء العربى القديم على شاطئ المحيط الهندى.

فجأة دخل علينا الشيخ "عبيد بن موند" يستأذننا فى السماح لأسرة هندية بالمقابلة للأهمية.

ترى ماذا يكون هذا الأمر؟ وفجأة دخل شاب هندى فى رفقة والده ووالدته.

ما الحكاية؟

وهنا قال الأب نيابة عن ولده الذى كانت تبدو عليه إمارات الحزن والبؤس.

قال : إن "حبيبة" ابنى هجرته إلى هندى آخر بعد سنوات طويلة من الهيام والحب..! وقد لجأنا إلى آلهتنا جميعا لتعيد هذه الحبيبة إلى الابن غير أن هذه الآلهة لم تستجب لطلبنا حتى هذا الوقت.!

وكما ترى فإن ابنى أوشك على الموت. فجئنا إليك لنطلب تدخل "إله المسلمين" ليعيد الحبيبة القاسية إلى الابن؟!!

ونعاهدك.. أننا سوف نعبد إلهكم إذا انقذ ابنى من الموت. أو أعاد إليه حبيبة القلب..!!!

قلت للأب:

إن إله المسلمين ليس "قاض غرام" يفصل بين المحبين فى قضايا العشق! إنه أجل وأعظم من هذه الخرافات التى تؤمنون بها فى الهند.

غير أنى سأدعو الله لابنك. ولا أحد يدرى ماذا يخبئ القدر فى الغد، فرحمة الله تتسع لجميع البشر. المسلم منهم والكافر وأبواب السماء لا تغلق فى

وجه أحد. والرحيم الرحمن لا يتوقف عطاؤه إلى الأبد.

العجيب أن الفتاة عادت، عادت بعد أن اكتشفت فى حبيبها الجديد. الكذب والغش..!

لقد أصابت الشاب الهندى "لال" نوبة من "الهستريا" فخرج إلى الشارع وهو يصرخ بأعلى صوته قائلا:

إن إله المسلمين هو أحسن إله فى هذه الدنيا!!!

* * *

فـى
الهنـد
أو
بلاد العجـب !

الهنــد ... و ... الســند

اسمان أو كلمتان أحفظهما منذ أيام الطفولة.

كانت الأساطير والحكايات تروى عن هذه البلاد فى ليالى السمر المقمرة ومن خلال تلك القصص التى يرددها العجائز على مصاطب القرية.

ماذا كنت أتصور عن هذه البلاد البعيدة؟... إننى لا أزال أذكر حكاية المركب المسافرة إلى "اسطنبول" وعلى ظهرها حبيب يغنى مع طيور البحر أغنية الوداع للأرض الحبيبة..!

أما الهند فماذا نعرف عنها؟ كنت أسمع أنها بعيدة.. بعيدة.. وأن السفر إليها أشبه برحلة من الدنيا إلى الآخرة..!

وتمر سنوات العمر فى طريقها مسرعة.. وتبدأ الحرب العالمية الثانية وأسافر إلى القاهرة طالبا للعلم فى جامعة الأزهر العريقة.

وفى الجامع العتيق تعودت الاستذكار بعد فترة الدراسة.. كانت الحياة فى الجامع الأزهر متعة.. ألوف من الطلاب يجتمعون فيه كل ليلة.. وفى "صحنه" الذى شهد الكثير الكثير من حركات الطلبة، ومن سهر العلماء على البحث والدراسة كنت أرى جنود الحلفاء من كل جنس ودولة يجيئون للزيارة.. هذا إنجليزى. وذاك أمريكى وآخرون من مختلف شعوب آسيا وأفريقيا.

وقد لفت نظرى من بين هؤلاء جنود يلبسون عمامة غريبة، وإذا دخلوا المسجد دخلوه بوقار وخشية.

وكان من طلاب الأزهر "الكبار" فى هذا الوقت رجل اسمه الشيخ إسماعيل لم أكن أعرف عنه شيئا أكثر من سكناه فى "التكية" وعرضه أعواد

البخور للبيع على صغار الطلبة. وكان الشيخ متعودا الجلوس بجوار باب المئذنة الكبير على يمين الداخل إلى الساحة.

الشيخ إسماعيل هذا كان يستقبل هؤلاء الجنود بحفاوة فائقة، ويتكلم معهم بلغة غريبة.

ولأول مرة أسمع أن هؤلاء الجنود مسلمون وأنهم من الهند، وكان ذلك قبل تقسيم شبه القارة إلى باكستان وهندستان.. وكنت أرى هؤلاء الجنود يخرجون من المسجد... ثم يتوجهون إلى حي"الباطنية" فإذا سألنا عن سر هذه الزيارة إلى هذه الأحياء القديمة قيل : إنهم ذاهبون لزيارة مسجد"بنيامين" شقيق سيدنا يوسف..! بشارع "حيضان الموصلي".. وأعود لأتساءل هل هذا المسجد؟ هو مسجد "بنيامين" حقا؟ وهل المدفون فيه هو "بنيامين" شقيق سيدنا يوسف فعلا؟



وفى شوارع القاهرة كان الناس يقابلون هؤلاء الجنود بسؤال لم يزل عالقا فى ذهنى حتى هذه اللحظة.."مسلمان"؟ أى هل أنت مسلم؟.. فاذا كان مسلما قال: الحمد لله.. وإذا كان غير ذلك قال:"سك"!!! أى أنه من طائفة"السيخ"وغير مسلم!!

* * *

وانتهت الحرب العالمية الثانية.. اختفى هؤلاء الجنود من الساحة.. غير أن الحديث عن "الهند" لم ينقطع لحظة واحدة.. كانت حركات الاستقلال فى العالم قد اشتد ساعدها فى مواجهة قوى البغى، كان"غاندى" زعيم الهند يتردد اسمه على صفحات الجرائد، وفى نشرات الأخبار، وعلى ألسنة الساسة.

لم تكن "باكستان" قد ظهرت أو عرفت.. حتى كان عام الاستقلال أو عام

التقسيم[1] وبدأت الصحف تكتب عن هذه القضية ومن وجهات نظر مختلفة.. وتحررت الهند. وتحقق حلم الشاعر الأعظم"محمد اقبال" بقيام دولة باكستان المسلمة.

* * *

كان دور المسلمن[2] فى حركة تحرير الهند دورا رئيسيا- وكان ذلك طبيعيا- لأنهم كانوا ولاة البلاد وسادتها حين احتل الانجليز هذه البلاد وبدأ الأخطبوط الإنجليزى ينفث سمومه، ويبتلع هذه البلاد قطعة قطعة وإمارة إمارة، وأول من انتبه لهذا الخطر الملك الهمام الشهم الغيور "فتح على خان" المشهور بالسلطان تيبو(١٢١٣-هـ-١٧٩٩م) الذى عرف ببعد نظره وألمعيته أن الإنجليز سيزدردون هذه البلاد كلقمة سائغة، إذا لم تقم فى وجههم قوة منظمة، فحارب الانجليز بكل ما كان يملكه من قوة حربية وعدة وعتاد، وحرض أمراء الهند وأقيالها على القضاء على هذه الجرثومة الإنجليزية السامة، وحاول الاتصال بالسلطان سليم العثمانى والملوك المسلمين وأمراء الهند، وراسلهم وظل يحارب الإنجليز حربا عنيفة لا هوادة فيها، وكاد ينهار ما بناه الانجليز وأملوه فى الهند لولا أنهم نجحوا فى ضم أمراء الهند، فى جنوب الهند إلى معسكرهم، وسقط الملك المجاهد صريعا في المعركة، (فى اليوم الرابع من مايو سنة ١٧٩٩م) وفضل الموت فى المعترك على الأسر فى يد الانجليز والحياة فى ظلهم وتحت رحمتهم وقال كلمته الخالدة المأثورة فى التاريخ:

(يوم فى حياة الأسد خير من مائة سنة من حياة ابن آوى)،

---

(١) حدث تقسيم الهند إلي دولتين فى عام ١٩٤٧ وفى شهر أغسطس.

(٢) المسلمون فى الهند- العلامة أبو الحسن الندوى- الناشر: المجمع الإسلامى العلمى. لكهنو-الهند.

ولما بلغ القائد (Horse) شهادة السلطان، حضر ووقف على جثته وقال: (اليوم الهند لنا)..!!

ولم تعرف الهند - في تاريخها الطويل - قائدا أعلى همة، وأبعد نظرا، وأشد غيرة على الدين والوطن، وأعظم عداء وبغضا للمحتل الأجنبى من (تيبو سلطان) ولم تكن فى الهند شخصية أبغض إلى الانجليز وأثقل عليهم من تيبو، حتى ظلوا زمنا طويلا- وقد أدركنا ذلك العصر- يسمون كلابهم باسمه شفاء لقلوبهم وإهانة لرمز الوطنية والجهاد[1]..!!

وثارت الجنود الانجليزية فى مايو سنة ١٨٥٧م بعدما جرب الهنديون الحكم الإنجليزى وغطرسة الانجليز، وانتهابهم لثروة البلاد وقلة احتفالهم بالعاطفة الدينية وكرامة أهل البلاد، وانتشرت الثورة فى الهند انتشار النار فى الهشيم، فكانت ثورة شعبية عامة ساهم فيها المسلمون والهنادك سواء بسواء، وتوجه الثوار إلى دهلى مقر الملك المغولى الأخير"سراج الدين بهادرشاه"[2]. وجعلوه قائدا للثورة ورمزا للوطنية الموحدة والكفاح الشعبى ونادوا به ملكا للهند شرعيا، وخليفة آبائه ملوك الهند الصناديد المغول الأباطرة، وقاتل الثوار فى كل بقعة من بقاع الهند تحت رايته وباسمه، ينظرون إليه كزعيم للجهاد الدينى والوطنى، وينظرون إلي دهلى كعاصمة الحكومة الهندية الدائمة ولم يشذ عن ذلك شاذ[3].

وبالرغم من أن هذه الثورة أو حرب التحرير- كما يصح أن تسمى- كانت شعبية عامة يقاتل فيها المسلمون والهنادك جنبا بجنب، ولم تعرف الهند حماسة

(١) كتب الزعيم غاندى مقالة فى صحيفة (الهند الفتاة) (Young india) أشاد فيها بعظمة السلطان ووطنيته وتسامحه وقال: لانعرف أعظم منه فى شهداء الوطن والأمة.

(٢) كان حكمه محدودا فى القلعة الحمراء والإنجليز يحكمون البلاد باسمه ونيابة عنه.

(٣) الا السيخ "مع الأسف" وبعض الأمراء الذين قمع الانجليز بهم الثورة.

وطنية ووحدة شعبية قبل هذه، كان للمسلمين السهم الأكبر فى القيادة والتوجيه، وكان منهم العدد الأكبر من القادة والزعماء.

ولما أخفقت هذه الثورة صب الانجليز على أهل الهند جام غضبهم وانتقموا منهم انتقاما شديدا[1] وبطشوا بطشة جبار لا يعرف الرحمة ولا يعرف العدل ولا يعرف الإنسانية ولا يعرف الحدود، وكانت مجزرة هائلة جددت ذكرى مذابح"جنكيز وهولاكو"، وقد قتلوا ثلاثة من أبناء الملك الشبان المأسورين بعد ماأعطوهم الأمان والعهد والميثاق بهمجية وقساوة امتعض منها كثير من الانجليز وشنقوا ثلاثة وعشرين من أبناء الأسرة الملكية فيهم مرضى وزمنى وشيوخ[2] وأهانوا الملك وحاكموه محاكمة مهينة ذليلة، وكانوا حريصين على قتله أشنع قتلة إلا أن ضابطا منهم كان قد وعد أن يحافظ على حياته، ليسلم نفسه إليه فحكموا عليه بالنفى المؤبد إلى "رنجون"[3] حيث مات طريدا وشريدا مقتراً عليه فى الرزق مضيقا عليه.

ودخلت الجيوش الانجليزية فى دهلى فكان تفسيرا لقوله تعالى :

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) ﴾ [النمل] ،

وقد أذن للجيوش فى نهب العاصمة ثلاثة أيام فطبقته تطبيقا فظيعا، وقد

---

(١) وقع مع الثوار- المسلمين وغير المسلمين- الاعتداء على النفوس البريئة والضعيفة والنساء والأطفال من الانجليز فى بعض المناسبات، وتخطوا حدود الدين والأخلاق والمروءة فى شدة ثورتهم ولعدم النظام ولكن ما وقع من الانجليز مقابل ذلك لا يعلل إلا بالجنون والهمجية والضراوة بالدم الإنسانى، ولا يليق بأمة مثقفة تتزعم العلم والمدنية.

(٢) الأستاذ"ذكاء الله" فى عروج سلطنت أنكلشية جـ٢ ص٧٠٨.

(٣) عاصمنة "بورما".

كتب"جون لورنس" الحاكم الانجليزى المشهور فى ديسمبر ١٨٥٧م إلى القائد الإنجليزى:

(أعتقد أن الطريقة التى انتهبنا بها جميع الطبقات من غير تمييز بينها ستصب علينا السخط العام وستصب علينا اللعنات إلى الأبد وإننا نستحق ذلك)(١).

وقامت سوق القتل والنهب فى"دهلى"(٢) على قدم وساق، والدماء تسفك والرقاب تضرب، والرصاص يطلق من غير تمييز والبيوت تنهب، وقد خرج كل من استطاع أن ينجو بنفسه وأهله وعرضه حتى أصبحت المدينة التى كانت عروس البلاد وعاصمة الهند مقفرة موحشة ليس فيها إلا البيوت الخاوية، والأنقاض المتراكمة، والجثث المتعفنة، أو الجنود المفترسة، أو كما يقول قائد قواد الجيوش الانجليزية: (Lord Roberts) وقد كان مسافرا بجيشه من دهلى إلى كانبور يقمع الثورة وكان ذلك فى اليوم الرابع والعشرين من سبتمبر١٨٥٧م بعد ما استولى الجنود الانجليز على دهلى وتملكوا القلعة الحمراء(٣). يقول (روبرتى) فى كتابه (إحدى وأربعون سنة فى الهند):

كان المسير من دهلى فى نور الصباح الباكر وكان منظرا هائلا خرجنا من القلعة من بابها الذى يسمه باب لاهور، ومررنا بالشارع الكبير الذى هو مركز البلد وأكبر أسواقها"جاندنى جوك" لقد كانت دهلى فى الحقيقة مدينة الأموات ليس بها داع ولا مجيب، فلا صوت إلا صوت سنابك الخيل ولم يقع

(١) Basworth Smith Lifedflord Lawrence V-2-P'158.

(٢) هو الاسم القديم لعاصمة الهند قبل أن يغير الانجليز اسمها إلى الاسم الحالى"نيودلهى".

(٣) القلعة الحمراء بناها الامبراطور شاهجان، وكانت مركز الحكومة المغولية وكان فيها فى العهد الأخير بهادر شاه.

بصرنا على عرق ينبض أو عين تطرف، لم تكن هناك إلا جثث هامدة مبعثرة هنا وهناك، وقد كانت هذه الجثث فى أوضاع مختلفة خلفها صراع الحياة والموت فى أدوار مختلفة من التفكك، وكنا لا نتكلم إلا همسا حتى لا نزعج هؤلاء الأشيقاء الذين كانوا مستغرقين فى نومة الموت، إن ما رأيناه من المناظر كانت هائلة مفزعة وكانت مؤسفة محزنة، وقد كانت بعض الجثث ينتهشها كلب، وكان عند بعضها نسر يرفرف جناحه ويحاول أن يطير فلا يستطيع بفرط الشبع والثقل، وقد كان بعض الأموات يترأون أحياء فقد رفع بعضهم يده فى الاحتضار فبقيت مرفوعة كأنه يشير إلى جانب، لقد كان منظرا مهيبا موحشا لايمكن تصويره وكأن خيلنا قد استولى عليها الذعر فكانت تجفل وتنتفخ مناخرها، وقد كان المحيط كله مروعا ولا يمكن تصوره، وقد كان تعفن بروائح مضرة تولد الأمراض.

لقد كانت المجزرة شعبية وطنية عامة، ولكن كان المسلمون بصفة خاصة هدف هذه الإهانات والفتك الذريع لأن كثيرا من الانجليز المسئولون كانوا يعتقدون أنها ثورة إسلامية، وأن المسلمين هم مصدر الثورة وهم الذين تولوا كبرها.

يقول مؤرخ معاصر اسمه"هومز":

وقد كان شعار بعض رؤساء الانجليز أنهم كانوا يعتبرون كل مسلم ثائرا وكانوا يسألون الرجل أنت هندوكى أو مسلم؟ فإذا قال مسلم قتله بالرصاص[1].

ويقول: إن هؤلاء الإنجليز كلما رأوا مسلمًا عليه مسحة من جمال أو له جسم قوى اقتصوه وشقوا قلوبهم بقتله، وقد قتل عدد كبير من الوجهاء والأشراف وأصحاب البيوتات الذين بقوا فى البلد، كانوا يقتلون الأبناء الشبان

(١) الأستاذ ذكاء الله الدهلوى "عروج سلطنت انكلشية" ص٧١٢

أمام آبائهم الشيوخ، ويقولون للوالد العجوز أنج بنفسك، وقلما أفلت من أيديهم مسلم جميل الوجه صاحب حسب ووجاهة حتى أثر ذلك فى النسل، وأصبح لا يولد فى دهلى مولود فيه الوسامة والجمال فإذا قارن أحد بين المسلمين بعدها رأى فارقا واسعا بين الجيلين فى الجمال والوسامة(١).

ثم جاء دور الشنق، ونصبت مشانق وأعواد على الطرق العامة والشوارع وأصبحت مواضع نزهة عامة يتفرج عليها الانجليز ويتمتعون بمناظر احتضار المشنوقين وهم يدخنون ويتحدثون فإذا تم عمل الشنق ولفظ المشنوق نفسه الأخير استقبلوه بالضحك والابتسام، وفى هؤلاء الأشقياء أصحاب الإمارات وكبار الأشراف. وقد شنق بعض الأحياء الإسلامية على بكرة أبيها.

ويذكر مؤرخ معاصر:

"أن سبعة وعشرين ألفا من المسلمين قتلوا شنقا، واستمرت المجزرة سبعة أيام متواليات لا يحصى من قتل فيها.

أما السلالة التيمورية فقد حاول الإنجليز أن يستأصلوا شأفتها فقتلوا حتى الصبيان وعاملوا النساء معاملة همجية تقشعر منها الجلود(٢).

يقول ميلى سن:

"إن ضباط جيوشنا كانوا يقتلون المجرمين من كل نوع وكانوا يشنقون من غير رحمة وألم كأنهم كلاب أو بنات آوى أو حشرات خسيسة(٣).

* * *

---

(١) المصدر السابق.
(٢) السيد كمال الدين حيدر فى "قيصر التواريخ" المجلد الثانى ص ٤٥٤.
(٣) ميلى سن ، جـ٣ ص١٧٧.

ومنذ ذلك الحين بدأت معارفى تنمو وتتسع حول هذه البلاد التى كانت أشبه بالأساطير والخيال فى تصورى الساذج.

فقد دخل المسلمون[1] الهند وهم أرقى أمة فى الشرق. بل فى العالم المتمدن المعمور فى ذلك العهد يحملون دينا جديدا سهلا، سمحا. وعلوما اختمرت وتوسعت، وحضارة تهذبت، وكان أغرب ما كانوا يحملون فى الدين "عقيدة التوحيد" النقى الذى لايرى وساطة بين العبد وربه، ولا يعترف بالآلهة والمظاهر.

وقد قرر هذه الحقيقة رئيس وزراء الهند الأسبق (جواهر لال نهرو) حيث قال:

إن دخول الإسلام كان له أهمية كبيرة في تاريخ الهند.. إنه قد فضح الفساد الذى كان قد انتشر فى المجتمع. وأن نظرية الأخوة الإسلامية، والمساواة التى كان المسلمون يؤمنون بها أثرت تأثيرا عميقا فى أذهان الهندوس، وكان أكثر خضوعا لهذا التأثير البؤساء الذين حرم عليهم المجتمع الهندى المساواة والتمتع بالحقوق الإنسانية[2].

وإذا أردنا أن نعرف ما أضافه المسلمون إلى ثروة هذه البلاد ومدنيتها يجب علينا أن نستعرض ما كانت عليه الهند قبل وصولهم إليها، ثم ما فعلوه بعد ذلك حين أقاموا فيها.

يقول (باير) التركى فى مذكراته:

لم يكن هناك فى الهند وجود للخيل، ولم يكن يسمع عن العنب والبطيخ.. فالثلج مفقود، والماء البارد قليل نادر، والحمام لم يعرف والشموع لا وجود لها،

(١) "المسلمون فى الهند" - للعلامة أبو الحسن الندوى - ص١٢ ومابعدها.
(٢) المصدر السابق، ص١٤.

وكذلك الفوانيس. كان الظلام يغطى كل شىء، ظلام فكرى، وظلام حقيقى.

وقد كان من عادة السيدات الهنديات أن يحرقن أنفسهن بالنار حدادا على وفاة أزواجهن، فحاول الحكام المسلمون إبطال هذه العادة بالإقناع والحيلة وحين لا تثمر عملية الاقناع كان الحاكم من هؤلاء يرسلها إلى حريمه لتقلع عن ارادتها باقناعهن. ولم يكن يسمح الحاكم للمرأة باحراق نفسها إلا إذا تأكد لديه عزمها واصرارها على إتمام عملية الحرق..!

يقول M.C.MEHTA فى كتابه "الحضارة الهندية والإسلام":

إن الإسلام قد حمل إلى الهند مشعلا من نور قد انجلت به الظلمات التى كانت تغشى الحياة الإنسانية فى عصر مالت فيه المدنيات القديمة إلى الانحطاط والتدلى. وقد كانت فتوح الإسلام فى عالم الأفكار أوسع وأعظم منها فى حقل السياسة. شأنه فى الأقطار الأخرى.

لقد كان من سوء الحظ أن ظل تاريخ الإسلام فى هذا القطر مرتبطا بالحكومة فبقيت حقيقة الإسلام فى حجاب وبقيت هباته وأياديه البيضاء الجميلة مختفية عن الأنظار..!

* * *

وما من مرة سافرت فيها إلى الهند إلا وأحسست بهذا الشعور متدفقا فى الوجوه والمشاعر فالمسلم هناك متميز فى سمته وهيئته. وفى شوارع بومباى تعرف المرأة المسلمة من أول وهلة تقع عيناك عليها.. الوقار والحشمة، والثوب السابغ يغطى منها كل ناحية وفى شارع Mohmma daly rd. تحس وكأنك تعيش فى القاهرة.. وبالذات فى "خان الخليلى" والغورية..!

وحين أتيح لى العمل فى إمارات الخليج قبل ثلاثين عاما فوجئت أثناء

سيرى فى شوارع إمارة "دبى" كأنى غريب عن هذه المدينة... فالوجوه السمراء تملأ شوارعها وأزقتها.. والمتاجر ذات الأسماء الغربية تملأ جوانبها وأحياءها، ورائحة الأطعمة النفاذة تنتشر فى سمائها وأجوائها.. كل شىء هنا عجيب غريب.. أما أجهزة المذياع فلا تسمع منها إلا تلك الأغنيات الغربية. أنغام بسيطة وحزينة.. وأناس يروحون ويجيئون بنفس البساطة والمسكنة.. انهم هنود.. والصلة بين بلادهم وإمارات الخليج صلة وثيقة عميقة فالعرب الأصليون يتحدثون اللغة الهندية ولا يكاد بيت يخلو من زوجة من "حيدر أبادالدكن" أو من"بومباى".. كنت أسمع من الطلاب أحاديث هذه الزيجات بدهشة وغرابة.. إن أى مسافر إلي الهند يستطيع الحصول على زوجة بعدد قليل من الروبيات.. والخدم والعمال الكادحون فى البيوت كلهم من الهند..!!

وفى أفريقيا.. وفى الدول الواقعة فى شرقها على المحيط الهندى تجد نفس الصورة ويتكرر المشهد هناك بدرجات متفاوتة..

أيتها الهند! كم أنت عجيبة.. وأعجب منك هذه الحياة التى يعيشها أبناؤك فى بلاد الغربة..!

* * *

وهانحن نتجهز للسفر إلى "مدراس" بقرار من الإمام الأكبر شيخ الأزهر(١).. ذلك لأن جامعة (دار السلام) تستعد للاحتفال بعيدها الذهبى فى مدينة "عمرآباد" وقد رأى فضيلة شيخ الأزهر أن يمثل الأزهر فى هذا الاحتفال بالدكتور عبدالجليل شلبى أمين عام المجمع، والدكتور عبد الودود شلبى مدير مجلة الأزهر..

أقلعت بنا الطائرة فى تمام التاسعة والنصف صباح يوم جمعة متجهة إلى

(١) المرحوم الإمام الأكبر د.عبد الحليم محمود شيخ الأزهر.

بومباى... لقد انشغل كل راكب بحاله، وغاص فى أعماق نفسه.. أخرج الدكتور عبد الجليل شلبى مصحفا وبدأ يقرأ.. وفى المقعد الذى يقع خلفى شاهدت شابا يمسك بالمصحف واقترب منى شاب آخر يسأل عن حكم الدين فى الجمع بين صلاتين فى السفر.. إن الشاب القارئ والشاب السائل كانا مهندسين من العاملين فى شركة مصر للطيران، وكعادة الشركة فى منح موظفيها تذاكر سفر مجانية. فقد آثر هذان الشابان السفر إلى طوكيو للسياحة غير أنهما لم ينسيا عقيدتهما فى هذه الرحلة الطويلة وانتهزا فرصة وجودنا للسؤال فى قضايا الدين والعقيدة.. إنهما مصريان حقا مصريان بهذه العقيدة التى لا تهتز غير، أن هذه الصورة الوضيئة للمصرى الأصيل لم تكتمل.. كان معنا فى الدرجة الأولى رجل قارب الستين من العمر، وبجواره إمرأة لا تقل عنه سنوات بحساب الزمن.. هذا الرجل أخرج من حقيبته زجاجة.. وبدأ يعب منها ويشرب.. ولم يكن يحمل من الحياء شيئا يعصمه من هذه الزلة، أو يثير فى نفسه شيئا من الاحترام للمصحف الذى يقرأ بجواره..!

إنهم فى الهند لايشربون الخمر.. فالعقائد الوثنية بالرغم من زيفها لها طقوس تحترم.. وقد رأيت حارس الفندق "السيخى" يعتذر عن قبول سيجارة من أحد النزلاء لأن- دينه يرفض ذلك- ورأينا نحن فى طريق العودة من "مدراس"، طفلين مسلمين يرفضان الطعام الذى قدمته المضيفة لأنه لم يطبخ بطريقة شرعية! وحدثنى صديق يشغل مركزا اقتصاديا مهما أن وفدا هنديا حضر إلى القاهرة. وحين عرض عليه المسئولون فى مصر تصدير نوع من الخمر رفض الوفد الهندى ذلك لأن "الزعيم غاندى"- على حد قولهم- يعتبر تناول الخمر جريمة!!!



لندع جانبا أحاديث السكارى والخمر، فالطائرة تقترب من بومباى لقد طلبت المضيفة ربط الأحزمة استعدادا للهبوط فى مطار"سانت كروز".. ظننت لأول وهلة أننا سنهبط فى جزيرة نائية بالمحيط.. فهذه أول مرة أسمع فيها هذا الاسم.. لم يخطر ببالى أن هذا هو مطار بومباى فقد سافرت إلى الهند ثلاث مرات ولم أسمع فيها بهذا الاسم.. وكأن قائد الطائرة المصرى أراد أن يضيف إلى معلوماتنا جديدا من المعرفة، أو يكشف عن تفوقه الكبير فى علوم التاريخ والجغرافيا..!



فى فندق Holiday inn قضينا ليلة واحدة فى انتظار الطائرة المتجهة إلى الشرق.. ذلك لأن مدراس تقع على خليج البنغال فى شرق الهند.. وبومباى تقع فى غربها على شاطئ بحر العرب.. وعرفنا في تلك الليلة أن هذا الفندق يقع فى منطقة اسمها"سانت كروز" وأن مطار بومباى يطلق عليه هذا الاسم لوقوعه فى نفس المنطقة التى يقع فيها الفندق.



وصلنا إلى "مدراس" كان فى انتظارنا بالمطار مندوب من الجامعة لمصاحبتنا فى رحلة خلوية عبر أشجار المانجو، والجوز، والتمر هندى.! إن الطريق إلى الجامعة مثير شيق.. أكثر من مائة ميل وسط الحدائق والمعابد والقرى والمدن.. وهاهى الجامعة"جامعة دار السلام" تبدو كعروس أخذت زخرفها وازينت.

لكن متى نشأت هذه الجامعة؟ وماهى الأسباب التى دفعت المخلصين لاقامتها فى هذه المنطقة..؟؟

"إن كل من له المام بتاريخ الهند وتطوراتها، يعرف أن العلاقات التجارية والثقافية كانت قائمة بين الهند والعرب من قديم الزمان، وقد أعانت هذه العلاقات على انتشار الإسلام، وتعاليمه الراقية فى الهند وخاصة فى الأطراف التى تقع على السواحل الجنوبية والغربية منها.

هكذا يعد جنوب الهند من أول المناطق التى تأثرت بالإسلام.

ولكنه من المؤسف جدا أن فئات المسلمين الذين قدموا إلى الهند عن طريق ممر خيبر غفلوا عن هذه البقاع النائية التى كانت مهد الإسلام الأول فيها، ونتيجة لهذه الغفلة التى حدثت منهم من غير قصد، أصبحت آثار العقيدة الإسلامية تضعف فى هذه الجهات.

كما أصبح الطريق مفتوحا أمام حركات التنصير والتخريب من كيرالا ومليبار.

* * *

إن المسافة بين "مدراس" و "عمر أباد" تزيد على مائة وسبعين كيلو مترا مربعا .. والطريق الذى نسير فيه يقع بين غابات وأشجار تسكنها بالطبع الوحوش والفيلة، فجأة توقفت السيارة. كما توقفت كل السيارات فى الإتجاه الآخر من الطريق.

أما لماذا حدث هذا التوقف فلسبب غاية فى الطرافة، وغاية فى التعجب والدهشة.

فقد خرج من الأحراش الواقعة على جانبى الطريق ثعبانان من نوع "الكوبرا" يبلغ طول الواحد منهما خمسة أمتار. واشتبكا فى معركة تشيب لها الولدان.!

أما لماذا كانت هذه المعركة وهذا الاشتباك، فلأن أحدهما اكتشف أن الثعبان الآخر خطف زوجته التي لاذت بالفرار ولم تعد إلي بيت الزوجية في الغابة منذ أيام..!

وعندما اكتشف الزوج هذه الخيانة قرر الدخول في معركة فاصلة مع الثعبان"الخائن".. كما قرر أن تكون هذه المعركة علنا على طريقة فرسان القرون الوسطى في الزمن الغابر..!

إن هذه الأسطورة.. أسطورة الخيانة الزوجية بين الثعابين سمعتها قريتي منذ زمن بعيد. ومن حكايات هذا الزمان أن "ثعبانا" تقيأ السم في "زير ماء" بأحد البيوت.. لأنه أي الثعبان- ظن بعد أن اختفت زوجته الأفعى، أنها قتلت على أيدي أصحاب هذا البيت.

غير أن "الثعبان" عثر على زوجته فجأة مع صديق خائن..!

فما كان منه إلا أن قتلها. ثم عاد إلى "زير الماء" ليلف جسده حوله ثم يكسره حتى لا يموت الناس بعد أن ظهرت براءتهم من قتل هذه الزوجة الخائنة.!

أن قصة الصراع والاشتباك بين الثعابين قصة حقيقية رأيتها بنفسي أما عن السبب الذي سمعته من الناس في الهند أو في مصر فأترك تفسيره لعلماء"الانثروبولوجيا"[1] فربما يعثرون على سبب يقرب المسافة والغرابة. بين الإنسان والثعابين في هذه الدنيا.!!!

* * *

---

(١) علم الأجناس.

فى كلية البنات بمدراس شاهدت نموذجا من الاخلاص الذى يندر وجوده فى ميدان التعليم والتربية .. إنها كلية بنيت على أحدث طراز، والمناهج المطبقة فيها تتنوع وتتعدد لتشمل كل فروع الثقافة والمعرفة .. إنها كلية عصرية بمعنى الكلمة، وكلية إسلامية فى الواقع والحقيقة، فالصلاة فى المسجد إجبارية والمسجد فى هذه الكلية قريب من حوض السباحة! وليس لرجل أن يقترب من هذه المنطقة أو يحوم بجوارها! وتدريس مادة التدبير المنزلى تأخذ صورة جديدة فى التطبيق والعمل.. هناك نموذج كامل "لبيت" داخل هذه الكلية، وعلى الطالبة أن تقضى فيه فترة من الوقت لتعرف كيف تطبخ؟ وكيف تنظم شئون البيت؟ وكيف تستقبل الضيوف والزوار وتعاملهم؟

كما أن هناك معملا لتفريخ الدجاج، وآخر لدراسة أحوال الطفل وتطورات نموه.

والشىء الجميل حقا أن السيد/ بشير أحمد مؤسس هذه الكلية Mrjustice Basheer Ahmed sayeed يؤدى عمله بالرغم من بلوغه سن التقاعد، أن عمره يزيد على السبعين عاما، غير أنه- والحمد لله- يتمتع بنشاط يتحدى شباب العشرين قوة وحركة.

قابلنى على باب الكلية مرحبا.. وكان ترحيبه من ذلك النوع الذى يشعرك بدفء العاطفة وحرارة المودة، وعمق الاخلاص والمحبة، أضف إلى ذلك "ظرفه" الذى يشيع فى الجميع سرورا وبهجة، لقد أخذنى من يدى.. وأصر على التقاط بعض الصور معه، كما أصر على إشراك بعض الطالبات معنا فى هذه الصور وحين أخبرته مداعبا أن ذلك خطر على حياتى "كزوج" فى القاهرة..! زاد تمسكا بهذه المحاولة وقال : إذن نزوجك لنضمن بقاءك وسلامتك..!

وبعد أن طاف بى فى أرجاء الكلية أخذنى إلى المسجد وقال: هنا صلى

شيخ الأزهر إماما بالطالبات وحين سألته كيف يكون المسجد وحمام السباحة فى بقعة واحدة؟ ضحك ضحكة عالية ثم قال: هنا طهارة. وهناك طهارة، إن كليتنا تمزج بين الدين والحياة مزجا يتسم بالورع والفضيلة..!

والشىء الظريف فى هذه الكلية أن السيدة/فاطمة اختر"حرم السيد/بشير أحمد تشاركه العمل الجاد فى هذه الكلية، وكانت مفاجأة أن عميدة هذه الكلية السيدة"رجنم كريشنا" هندوكية Rajnamkrish nan .. وأنها من السيدات الممتازات عملا وتضحية.. والحق أن السيدة/"رجنم" جديرة بهذه الثقة. وكانت فى تصرفها مثالا لما ينبغى أن تكون عليه العلاقة بين أبناء الأمة الواحدة.

* * *

وفى الكلية الجديدة بمدراس كانت زيارتى الثانية. نفس المشاعر والحفاوة، وقد أصر الدكتور خليفة الله الأستاذ بهذه الكلية على زيارتى لجمعية"أنجمن حمايات اسلام"The Anjuman-E-Himayoth-Islam مكان فسيح جدا بمدراس. يتوسطه مبنى عتيق يشعرك من أول وهلة بالفقر والمسكنة والحرمان أنه بيت لإيواء أطفال المسلمين اليتامى"بنين وبنات" الأطفال الصغار جلسوا على الأرض يحفظون القرآن.. المدرس لا يكاد يتماسك فى وقفته من الارهاق. وفى الجانب الآخر من هذه الصورة فتيات من مختلفى الأعمار.. وقد وزع هؤلاء الفتيات بحسب أعمارهن فى الفصول والحجرات.. صورة لا تغيب عنى. لا تفتأ تثير الهموم والشجن فى قلبى. هؤلاء الصبية والصبيات يعيشون وراء هذه الجدر في حرمان وصمت.. لقد مات الآباء والأمهات. ليس هناك عائل ولا مورد.. ماذا يكون المصير إن لم توجد هذه الجمعية، وهذه القلوب الرحيمة أن المأساة لايدركها إلا الذين يعيشون فى بلاد الهند.. هناك حيث يمارس التبشير الصليبى جريمته تحت ستار مزيف بالإنسانية والرحمة.. أو حيث عصابات الرقيق الأبيض والأسود..!

لقد دخلت بعض هذه الفصول.. وقف الأطفال لتحيتى ك"عربى" مقدس! وفى حجرات الفتيات أحسست أن كل واحدة منهن سهم موجه إلى صدرى.

أين أنتم يا اخوة الإسلام؟

أيها العرب والمسلمون لماذا تتركوننا للجوع والحرمان والضياع؟

نحن لم نؤمن إلا بكم..

وقد بسط الله لكم من رزقه الكثير الوافر..

وأسبغ عليكم من نعمه ما هو أكثر..

فلماذا تتركون بنات الإسلام فى مهب رياح الشر.

وتفرطون فى يتامى المسلمين على هذا النحو..

يا أيها العرب.. الأغنياء!!

اذهبوا إلى الهند وانظروا كيف يعيش اليتامى.. يتامى المسلمين من البنين والبنات..

ان أبواب الجنة مفتحة الأبواب فى هذه الأماكن.. لمن يريد..!

* * *

إن تاريخ التعليم الإسلامى فى الهند حافل بتلك الصور الوضيئة لرجال وهبوا أنفسهم عن تجرد وإخلاص لخدمة الدين والعلم.

يقول العلامة الندوى:

كانت الميزة الكبرى التى كان يتسم بها الأساتذة فى العهد الماضى والتى كانت شعارهم الخاص، هى الاخلاص والإيثار.

وأن تاريخ العلم وطبقات العلماء فى الهند، حافل بذكر هؤلاء الأساتذة العظام، وزهدهم فى الحياة وإيثارهم الفقر والجوع الذى احتملوه فى حياتهم، وابتعادهم عن ملذات الحياة، ومن بين القصص المؤثرة للإيثار وتحمل المكروه نورد هنا قصة غريبة تدل على ما أسلفنا.

يحكى مؤرخ الهند مولانا غلام على آزاد البلكرامى فى "مآثر الكرام" قصة لمحدث بلكرام الشهير، والأستاذ الكبير، مير سيد مبارك (١١١٥هـ) نقلا عن أستاذه مير طفيل محمد.

"حضرت مرة في مجلس مير مبارك وكان قد نهض من مجلسه للوضوء إذ زلت قدمه وسقط، فأسرعت إليه وأخذت بيده، وأردت أن أجلسه وقد أغمى عليه، فلما أفاق سألته عن سبب هذا الضعف والنقاهة، فلم يقل كلمة وظل صامتا، فلما أصررت على، قال : إنه لم يأكل لقمة واحدة منذ ثلاثة أيام، ولم يتضح أمر مير مبارك على أحد، لأنه كتم أمره ولم يقبل شيئا من أحد. وقد أثر ذلك على نفسى ورق له قلبى، فذهبت إلى بيتى وأحضرت لأستاذى طعاما كنت أظن أنه مرغوب لديه فلما رأى الخوان بين يديه أظهر سروره ودعا لى بخير، ثم قال: بارك الله فيك وفى طعامك، ولكن هل تقبل عذرى فيه يا ولدي، ثم قال بعد برهة، إنه طعام أشراف لما اصطلح عليه الصوفية ولو أن مثل هذا الطعام مباح باعتبار الفقه، وأن الشريعة تبيح أكل الميتة بعد ثلاثة أيام من الجوع، لكن فى مذهب التصوف والزهد لايجوز أكل طعام الأشراف[١].

سمعت كلام أستاذى فلم أقل شيئا، ورجعت عن مجلسه، وحملت الخوان وتوقفت برهة على الباب وانتظرت، ثم عدت ثانية أحمل الصنية فوق رأسى وقلت هل كنت ياسيدى تتوقع هذا الطعام بعد رجوعى؟ قال لا، قلت إذا لا حرج الآن

---

(١) طعام الأشراف هو الطعام الذى أشرفت إليه النفس وتوقعه الأكل.

فى تناوله، وأعجب أستاذى بكلامى وحجتى وقال لقد غلبتنى بذكائك وتأويلك، ثم أكله برغبة وشوق(١)..

إن هذه القصة رغم كونها غريبة وغير عادية، ليست فريدة من نوعها فى تاريخ الهند العلمي والدينى، الذى هو حافل بقصص الأساتذة وزهدهم وقناعتهم، حتى أن الفقر والجوع أصبح ميزة هذه الطبقة وطبيعتها(٢).

ولا تقل عن ذلك أثرا قصة أخرى تدل على الإيثار والعمل باخلاص وتركيز كامل للمعلمين، يرجع عهدها إلى القرن الثالث عشر للهجرة.

"كان الشيخ عبد الرحيم (١٢٣٤هـ) يدرس في رامبور، وعرض عليه والى منطقة روهيل كهند الانجليزى المستر هاكنس منصب التدريس فى كلية بريلى، براتب شهرى يبلغ مائتين وخمسين روبية (تقدر قيمته الآن باكثر من ألفي روبية)ووعده بأن راتبه سيزاد فيه ويرفع مستواه، فاعتذر قائلا بأن إمارته تدفع إليه عشر روبيات، وستوقف هذه المنحة، فقال له هاكنس انه عرض عليه أضعاف هذا القدر، وما قيمة عشر روبيات أمام مائتين وخمسين روبية، فقال ان فى بيتى شجرة سدر حلوة وهى محببة إلىَّ كثيرا، فكيف السبيل إليها فى بريلى ولم يتطرق ذهن هذا الانجليزى إلى حقيقة الأمر الذى كان يدور بخلد الشيخ فقال إنى سأرتب لايصال ثمرة هذه الشجرة إليك فى بريلى، فقال : إن لى تلاميذ فى امبور، فكيف اتركهم وسأحرم فرصة خدمتهم، وحاول الانجليزى إقناعه، فقال إنى سأقدم إليهم المنح الدراسية وسيواصلون دراستهم فى بريلى، ولم يبق في جعبة الشيخ إلا سهمه الأخير، فأطلقه وقال: صحيح ما تقول، ولكن مايكون جوابى يوم القيامة على الارتزاق بالتدريس(٣).

---

(١) مآثر الكرام صفحة ٩٦ . ٩٧.

(٢) نزهة الخواطر ١ . ٢ ومآثر الكرام، وتذكرة علماء الهند، نظام تعليم وتربيت.

(٣) ماذا خسر العالم للعلامة الندوى نقلا عن نزهة الخواطر ص٣٢٤.

بعد الفراغ من زيارة "انجمن حمايت اسلام" قابلت فى الفضاء الفسيح المحيط بمبنى هذه الجمعية بعض أعضاء جماعة التبليغ.

لقد قدموا- إلى هنا للإقامة بضع ليال- يتجولون فيها بين الناس. وحين عرفتهم بنفسى أحاطونى بقلوبهم وأذرعتهم! إنهم نوع من الدعاة الصادقين حقا.. إن الرجل الذى يترك أهله داعيا إلى الله بالحكمة لايمكن لمثل هذا الرجل أن يكون "دعيا" أو"كاذبا" لقد سافر بعضهم إلى نيويورك منذ عشر سنوات.. كانوا يقصدون صديقا لهم فى الشارع الخامس والثمانين فى المدينة الكبرى.. ذهبوا إلى البيت.. لكن الصديق الذى بحثوا عنه كان مسافرا إلى ولاية بعيدة ماذا يفعلون إذن؟ إن ما معهم من المال لايكفى ليلة واحدة فى فندق من الدرجة الثالثة. استأذنوا صاحب البيت فى المبيت بالحديقة حتى الصباح. وافق الرجل عطفا وشفقة.. وحان وقت الصلاة فوقف أحدهم ليؤذن بصوت رخيم شجى. ثم دخلوا فى الصلاة وبدأ إمامهم يقرأ.. وبدأت دموعه تنهمر وتتساقط ليروا هذا المنظر الجليل الخاشع..

وبعد خمس عشرة دقيقة.. نزل صاحب البيت ودعاهم للإقامة عنده وأقبل جيرانه يشتركون معه فى هذه الحفاوة وكانت المفاجأة التى لم تدر بخلد واحد من أفراد هذه الجماعة.

ولكن كيف بدأت هذه الحركة.. حركة جماعة التبليغ الإسلامى فى شبه القارةالهندية؟

يقول العلامة الندوى[١]:

صحبت "مولانا محمد الياس" مركز هذا النشاط مدة طويلة، ورافقته فى السفر والحضر فرأيت نواحى من الحياة لم تتكشف لى من قبل، فمن أغرب ما

(١) الدعوة الإسلامية فى الهند وتطوراتها- ص٣٦.

رأيت يقينه الذى استطعت به أن أفهم يقين الصحابة، فكان يؤمن بما جاءت به الرسل إيمانا يختلف عن إيماننا اختلافا واضحا كاختلاف الصورة والحقيقة، إيمانا بحقائق الإسلام أشد وأرسخ من إيماننا بالماديات والمحسوسات وبخواص الأشياء والأدوية ومضارها ومنافعها وبتجارب حياتنا، فكان كل شيء صح فى الشرائع وثبت من الكتاب والسنة حقيقة لاشك فيها، وكأنه يرى الجنة والنار رأى عين.

ورأيته فى حالة عجيبة من التألم والتوجع والقلق الدائم كأنه علي حسك السعدان، يتململ تململ السليم، ويتنفس الصعداء لما يرى حوله من الغفلة عن مقصد الحياة، وعن غاية هذا السفر العظيم وعن خالق هذا الكون ومن الاستهانة بقيمة الحياة وتضييعها فى غير محل، ولا أجد له مثلا إلا كالذى يرى الحريق فى بيت وقد أحاطت النيران بأولاده وأسرته ونفائسه، فيصرخ ويضطرب ولا يقر له قرار، وعرفت برؤيته معنى الحب، وفهمت ما روى عن العشاق ومن استولى عليه الحب، وصدقت ما نقل عن الأنبياء من الحزن والقلق والحرص على الهداية.

ثالثا وأخيرا رأيت فى هذا الجسم النحيل الذى كاد يعجز عن أن يحمل ثقله روحا قوية جدا، وقوة إرادة لم أجد مثلها فى الشبان الأقوياء والأبطال الأشداء، فكان يتحمل من المشاق ما ينوء بالعصبة أولى القوة، وقد يظل فى أسفاره أياما متوالية لا يأكل فيها لشدة الاشتغال والعمل، وأعجب ما رأيت أنه كان في مرضه الذي توفى فيه لايستطيع القيام والقعود، ولكنه يأتى إلى الصف يتهادى بين رجلين ويقوم للصلاة ولايستقل بنفسه، فإذا كبر الإمام تركه الرجلان وقام بنفسه كأنه غير الرجل ويقوم ويركع ويسجد من دون مساعدة، حتى إذا سلم الإمام خارت قوته وعاد ضعيفا لا يستطيع النهوض وبقى هكذا شهورا. وما فاتته فى مرضه صلاة إلى الليلة التى توفى فيها.



نعود بعد ذلك إلى مدراس..

إنها مدينة نظيفة وجميلة.. أليس عجبا ألا تقع عيناك على شيء من القذارة فى هذه المدينة الكبيرة! إن "مدراس" تقع على خليج البنجال "Bengal Bay" و"البنجال" هى الأرض أو المقاطعة التى يعيش فيها البنجاليون، والبنجال قسمان: قسم غربى تابع للهند، وقسم شرقى كان فيما مضى يعرف باسم "باكستان الشرقية" أما الآن فقد صار اسمه بعد الانفصال بنجالاديش Bengaldish والناس يتحدثون هنا بلغة تختلف عن لغة بقية الولايات الهندية الأخرى. انها لغة التامل Tamil ولهذا تسمى هذه المنطقة من الهند أرض التاميل Tamilland ولو عبرت الخليج أى خليج البنجال من "مدراس" إلى الجانب الآخر جهة الشرق.. فستجد نفسك فى "تايلاند" أو "بورما" ولو أبحرت جنوبا من الميناء فستجد نفسك بعد ساعات فى سيلان أو "سرى لانكا".

إنها منطقة تتشابك فيها "الجغرافيا" و"التاريخ" والجمال والسحر، والغموض والفقر! والسلام والحرب!.

* * *

وبالرغم من أن المسلمين حكموا الهند سبعة قرون، وكان لهم فيها الكلمة العليا وكانت لهم دولة مرهوبة وحضارة متقدمة حتى أن ملك انجلترا "جيمس الأول" أرسل أحد سفرائه لمقابلة الامبراطور(جهانجير) لخطب وده وإقامة علاقات دبلوماسية معه، فبقى السفير الانجليزى عامين حاول فيهما مقابلة الامبراطور المسلم فلم يتم له شرف المقابلة!

ان تاريخ المسلمين فى الهند عجيب، وأعجب من هذا أن لا يعرف المسلمون هذا التاريخ.

كنت فى زيارة لإحدى الجامعات فى المملكة العربية السعودية وقال محدثى- وهو أمين عام لهذه الجامعة : هل تصدق ؟ لقد استدعينا خبيراً فى التعليم من بلد عربى لمراجعة المناهج التى وضعت لهذه الجامعة .. وأردنا تكريم هذا الخبير بتنظيم زيارته للأماكن المقدسة .. وبعد أن أدى عمرة. وانتهى من طوافه حول الكعبة قلنا له : ستسافر غداً لزيارة المسجد النبوى فى المدينة ، فقال الخبير الذى استدعى لإصلاح مناهج التعليم في الجامعة .. ولماذا الذهاب إلى المدينة ؟ أليس الرسول مدفوناً هنا فى الكعبة.

قال محدثى : وصعقنا من هول المفاجأة هل يعقل أن يكون هذا الخبير التعليمى والدكتور الكبير ذو الشهرة الواسعة جاهلاً إلى هذه الدرجة..؟

فإذا كان الأمر على هذ الصورة بالنسبة لأقدس المعالم الإسلامية وبالنسبة لشخصية الرسول الكريمة فكيف يكون الأمر بالنسبة لرجال ليسوا فى هذه الدرجة ...؟ وفى قضايا إسلامية مختلفة ..؟

لقد حفزنى إلى هذه المقدمة ما قرأته أخيراً عن شخصية. أعتقد من غير شك . أنها من أعظم الشخصيات الإسلامية ، بطل من أبطال الإسلام فى شبه القارة الهندية . رجل من خيرة الرجال الذين عبروا هذه الحياة فى موكب من الجلال والإيمان والعظمة إنه الإمام السيد أحمد الشهيد المولود فى "رائى بريلى" عام ١٢٠١هـ، والذى نظم جماعة إسلامية كبيرة أحسن تربيتها الدينية والحربية، وهاجر معها من طريق "بلوخستان" و"أفغانستان" إلى حدود الهند الشمالية واتخذها مركزاً لدعوته ليتقدم منها إلى الهند لإجلاء الإنجليز وتأسيس دولة إسلامية على الكتاب والسنة . وقد انتصر هؤلاء المجاهدون على المسيخ الذين احتلوا البنجاب ، واستولوا على "بشاور" وما حولها من القرى والمدن ، وطبقوا النظام الإسلامى فى كل شبر حرروه من يد الاستعمار الإنجليزى والوثنى

واستطاعوا فى فترة وجيزة السيطرة على معظم الولايات فى الحدود الشمالية الغربية.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى :

لقد شرح الله صدرى لأن أختار روايات من هذا التاريخ العجيب فأصوغها فى اللغة العربية بأسلوب أدبى تدل على مكانة قائد هذه الحركة العبقرى ، وعلى مدى نجاحه فى تربية النفوس وتزكيتها ، وعلى إخلاصه وتجرده للغاية التى يسعى لها وتدل على نفسية هذا الجيل المؤمن المجاهد ، وخلقه ، ومبلغ تأثير الدعوة الإسلامية فى بنائه وتقويمه ويستطيع القارئ الذكى أن يكون من هذه الشذرات الملتقطة من هنا وهناك فكرة جامعة متناسقة عن هذا الجهاد الطويل لهذه الجماعة المؤمنة وعن شخصية قائدها الإمام البطل وعن هذه المدرسة المنتجة المنجبة فيكون فى ذلك سد لهذا الفراغ الواقع فى المكتبة الإسلامية المعاصرة ورى لكثير من النفوس المتعطشة إلى معرفة هذا الفصل الرائع من الجهاد الإسلامى وتاريخ التجديد الدينى فى الهند.

إن هذه القصة أشبه بفيلم أخرج بالألوان الطبيعية لحياة هذا الإمام المجاهد وجماعته المؤمنة أو هى صورة حية لمبادئ الإسلام فى الدين والعقيدة . لقد قام السيد الإمام أحمد الشهيد بجولة إصلاحية فيما بين "دهلى وسهارنور" عام ١٢٣٣هـ وزار المدن والقرى ومكث بها أياماً وأسابيع يدعو الناس إلى الله وقد هدى الله فى هذه الجولة الموفقة خلقاً يبلغ عددهم الألوف وتاب على يده من عصاة المسلمين خلق لا يعلم عددهم إلا الله . نزل السيد وأصحابه فى "لكنؤ" وكان جالساً فى مسجد المدينة كالمعتاد .. دخل المسجد جماعة فى مقدمتهم أمان الله خان ، وسبحان خان، ومرزا همايون بك وحانت التفاتة من أصحاب السيد الجالسين حوله فتقطبت جباههم وظهرت الكراهية فى وجوههم لرؤية هؤلاء الثلاثة وشعر بذلك السيد . وسأل عن السبب فقال أصحابه : إنهم رجال

سوء وشر ، لم يتركوا نوعاً من أنواع اللصوصية والشطارة إلا وقد فاقوا فيه ، واشتهروا به . قال السيد/ إياكم أن تفشوا السر وإنى لأرجو الله أن يكره إليهم الفسوق والعصيان ويحبب إليهم الإيمان . ويوفقهم إلى التوبة ويختم لهم بالحسنى وما أتم السيد كلامه حتى وصل هؤلاء النفر إلى مجلسه وصافحوه وعانقوه فأجلسهم السيد بجواره وأسبغ عليهم من عطفه ، وحين أرادوا الانصراف سألهم السيد عن مهنتهم وصناعتهم . فقالوا فى حياء وخجل : لا تسألنا عن ذلك واعفنا من هذا السؤال .. فقال بعض أصدقائهم الذين جاءوا معهم : لا تتحرجوا من الصراحة وأخبروا السيد بالحقيقة . فاعترفوا أمام السيد بكل شيء.

لقد عاشوا على القتل والسرقة والنهب وكل أنواع الجريمة والفسق . ثم قالوا موجهين كلامهم إلى السيد : حين قصدنا مكانك جئنا فقط للتفرج والمتعة ، وحين جلسنا إليك وسمعنا منك أنكرنا نفوسنا وقلوبنا ، فإذا هى غير ما كنا نعرفه وإذا بها تحدثنا أن نهجر بيوتنا وأهلنا ونلزمك فلا نفارقك . فاسمح لنا أن نبايعك ونتوب إلى الله على يدك . ولما هاجر السيد للجهاد رافقه هؤلاء فمنهم من استشهد فى سبيل الله ، ومنهم من عاش على الصلاح والعفاف وخدمة الإسلام والسعى لإعلاء كلمة الله.

وحين أراد الإنجليز إلغاء رحلات الحج من الهند إلى مكة ، واستعملوا لهذه الغاية علماء سوء يفتون لحساب الهوى والشيطان بحجة فقدان الأمن والطاقة اللازمين لكل من يريد الحج ، قرر السيد أحمد الشهيد أن يتصدى لهذه الحملة المزيفة المزورة فنادى فى الناس بالحج ، وأرسل الكتب والبعوث إلى جميع الأطراف الهندية وتكفل بنفقات كل من ليس عنده زاد ولا راحلة، فالتهبت جمرات الشوق الخامدة ، وقويت الهمم الفاترة ودبت فى المسلمين حياة إيمانية جديدة وجاء اليوم الموعود ، وتوكل السد على الله وخرج مع الناس فعبر النهر الصغير

الذى يجرى أمام قريته ، وتوجه إلى "دلو" ليركب منها السفن المسافرة إلى "كلكتا" ومنها يركب البحر إلى جدة.

وحين وصل السيد ورفاقه إلى بلد على شاطئ النهر اسمه "مرزابور" فإذا بسفينة لنقل البضائع تعترض طريق النهر توقفت القافلة حيرى من هذه المفاجأة. وحين سأل السيد عن السبب قالوا : هذه سفينة حمولة تعترض الطريق ، وهى تنتظر التفريغ ، والحمالون غائبون . فقال السيد : ومن يمنعنا من أن نباشر هذا العمل بدل الحمالين ؟ أم أن أيدينا مكتوفة أم مغلولة ..؟ ولم يتم الإمام كلمته حتى وثب الناس - وفيهم العلماء والأغنياء وأبناء الأشراف . إلى السفينة وأفرغوا حمولتها فى مدة قصيرة.

ووقف الناس على الشاطئ يشاهدون هذه الحركة العجيبة ويقولون:

عجباً لهؤلاء الحجاج . يقومون بهذا العمل الشاق تطوعاً واحتساباً وليس بينهم وبين هذا التاجر سابق معرفة إنهم نوع آخر من الرجال أو الملائكة . تقول إحدى الروايات :

عندما رؤى المسيح خارجاً من بيت "مريم المجدلية" تصايح الحواريون فى وجهه قائلين : كيف تزور مومساً بغياً ياروح الله.

وحين أقيم الحد على الغامدية التى اعترفت بجنايتها أمام النبى صاح أحد الصحابة يا فاجرة . فغضب النبى ﷺ قائلاً ألقها من فمك .. لقد تابت توبة لو وزعت على أهل المدينة لوسعتهم.

وفي قافلة الإمام الشهيد كان الشيخ "عبد الحى البرهانوى" قائماً بالدعوة والوعظ فساق الله إليه امرأة مومساً فتابت وندمت على حياتها السابقة ثم بايعت الإمام أحمد .. على الإيمان والطاعة .. ولما تابت هذه المرأة السعيدة .. أمر السيد ابن أخته بأن يركبها فى سفينة من سفن النساء .. فذهب بها إلى سفينة

من سفن الجماعة فرفض النسوة ركوب التائبة معهن وكلما ذهب بها إلى سفينة من سفن النساء قلن : مومس .. لا نسمح لها بالمرافقة .

ولما سمع السيد بذلك ذهب إلى السفينة وهتف قائلاً : لماذا لا تسمحن بركوب هذه المرأة السعيدة .. إنها تابت عن جميع ذنوبها فهى اليوم أقرب منكن جميعا إلى الله .

ثم وقف الشيخ عبد الحى البرهانوى ونادى على زوجته ثم قال لها والناس يسمعون : ألم آخذ عليك عهداً أن تعملى بأحكام الشريعة فى هذا السفر ..؟ فكيف ترفضين أختاً تائبة هى أقرب إلى الله منى ومنك ؟ افسحى لهذه المرأة السعيدة المكان .. وأجلسيها فى جوارك وعلميها الدين والآداب الإسلامية . وتفضلى يا أختنا العزيزة . وأهلاً وسهلاً ومرحباً .

* * *

ورجع السيد من الحج ليبدأ مسيرة الجهاد الكبرى . وسارت جيوش المجاهدين معقوداً لها لواء النصر من "بنجتار" و "بهلزة" و "مردان" و "بشاور" حتى كانت الوقعة الفاصلة فى بالاكوت.. واستشهاد الإمام المجاهد.

إن هذه الحقبة من التاريخ الإسلامى فى الهند لا مثيل لها في تاريخنا المعاصر .. إن المعارك التى خاضها هؤلاء الأبطال أجل وأسمى من أن توصف فى إطار محدود من الكتابة ... إنها شىء فوق تصورنا البشرى المحدود المعرفة والإدراك.

إن "الياذة" هوميروس اليونانى لا ترتفع إلى أعتاب هؤلاء الرجال الذين صيغوا من معدن الإسلام الإلهى الصافى ..؟

يقول الأستاذ أبو الحسن على الندوى:

أسفر صباح اليوم الرابع والعشرين من ذى القعدة ١٢٤٦ هـ أذّن للفجر وتوضأ الناس ولبسوا السلاح، وصلى الإمام المجاهد بالناس فكانت صلاة أخيرة ولما ارتفعت الشمس صلى صلاة الضحى ثم توضأ وابتهل إلى الله أن يرزقه الشهادة.

وتمثلت الجنة للمجاهدين الذين طالما تغنوا بذكرها طويلاً وأعدوا لها العدة وقوى إيمانهم ورفع الغطاء عن عيونهم فإذا بهم يبصرون ما لا يبصره غيرهم . لقد بدأت ريح الجنة تهب من قسم روابى جبل بالاكوت.

يقول أحد شهود هذه الواقعة .. كان السيد " جراغ على البنيالوى" قد نصب قدراً من الطعام على النار .. كان يحمل بيد سلاحاً وبيد أخرى مغرفة يقلب بها الطعام فكان ينظر إلى جنود المسيخ المرابطين على الجبل مرة .. ويعيد تقليب الطعام بمغرفته مرة ثانية وحانت منه التفاته إلى السماء فصاح قائلاً: انظروا إلى هذه العروس القادمة من السماء تنادينى وهى فى أجمل ثيابها ثم رمى المغرفة على القدر وقال : ساكل اليوم من طبقك أيتها الحورية فى الجنة .. ثم انطلق إلى جنود المسيخ يقاتلهم والناس يقولون له : انتظر حتى نرافقك لم يبال وقاتل حتى قتل شهيداً.

ودخل السيد الإمام المجاهد أحمد الشهيد إلي المسجد وقد غلقت الأبواب والنوافذ واستغرق فى صلاة عميقة يدعو الله أن ينصره أو يتقبله شهيداً فى يومه .. وكأنما سمع صوتاً يناديه يا أحمد .. ففتح النافذة ليرد على السائل فلم يجد أحداً .. وتكرر ذلك مرات عديدة وهو لا يرى إنساناً . لقد كان الصوت قادماً من وراء الغمام يبشره بالجنة ..!

وكان أخر أمر السيد أن رآه الناس جالساً على هضبة مستقبلاً القبلة . يطلق البنادق وجثث الشهداء من حوله .. وبينما هم كذلك إذ توارى السيد عن

عيونهم فى غمرة الغبار والدخان ونيران المدافع .. لقد زف الإمام أحمد الشهيد إلى الجنة فى موكب من الحور -والملائكة .. وسيق من بقى من المجاهدين إلى المحاكمات والسجون وفى إحدى هذه المحاكمات التعسفية وجه القاضى إلى أحد الشبان كلمات غاضبة تفيض حقداً على هذه العصبة المؤمنة . كان الشاب الواقف أمام القاضى اسمه "جعفر" وارتفع صوت القاضى موجهاً كلامه إلى هذا الشاب المؤمن : إنك يا جعفر رجل عاقل ومتعلم وتعرف القانون الذى يعاقب بشدة كل من تسول له نفسه شق عصا الطاعة ولكنك أوغلت فى المؤامرة والثورة على الحكومة . وها أنذا أحكم عليك بالإعدام ومصادرة أملاكك . ولن يسلم جسدك بعد الشنق إلى ورثتك . وساكون سعيداً ومسروراً حين أراك معلقاً من رقبتك.

استمع الشاب فى سكينة إلى كلام القاضى .. الجلاد الذي وضع على منصة القضاء ليجعل من القانون حبالاً وخناجر ، ولما انتهى من كلامه قال محمد جعفر:

إن النفوس والأرواح بيد الله وحده يحيى ويميت . وإنك أيها القاضى لا تملك حياة ولا مماتاً ولا تدرى من السابق منا إلى الموت.

وجن جنون القاضى من هذه الروح العجيبة فتقدم من "محمد جعفر" ضابط إنجليزى اسمه "يارسن" وقال له : لم أر فى حياتى إنساناً يحكم عليه بالموت وهو فى هذا البشر والمسرة ؟ فأجابه محمد جعفر : لماذا لا أفرح وقد زرقنى الله الشهادة فى سبيله وأنت يا مسكين لا تعرف حلاوتها.

وشاع الخبر بين الناس من إنجليز وهنادك فكانوا يزورون محمد جعفر وزملاءه المحكوم عليهم بالإعدام ليروا هذه الآية الرائعة من الفداء والتضحية والشجاعة . ولما علم الحاكم الإنجليزى بهذا الأمر استبدل حكم الإعدام بالنفى

والأشغال الشاقة المؤبدة وقال في حيثيات حكمه : إنكم أيها الثوار تحبون الشنق وتعتبرونه شهادة في سبيل الله ولن نبلغكم مرادكم لذلك نحكم عليكم بالنفي المؤبد إلى جزائر سيلان.

وتشاء الأقدار أن يموت القاضي الإنجليزي الذي أصدر حكمه على المجاهدين بالإعدام عقب صدور الحكم . وكذلك جن الضابط "بارسن" ومات في جنونه شر ميتة . وعرف الناس معنى الإيمان وهم يسترجعون كلمات محمد جعفر للقاضي الإنجليزي عقب صدور الحكم عليه بالموت .

* * *

لقد وقف مولانا "محمد علي" يومين في قفص الاتهام يترافع عن نفسه وعن شقيقه في محاكمة "كراتشي" الشهيرة عام ١٩٢١م. أمام هيئة محلفين من خمسة أشخاص اثنان منهم هندوكيان والآخرون مسيحيون منهم واحد بريطاني.

كانت جريمتهم أنهم اشتركوا في مؤتمر رأسه محمد علي زعيم مسلمي الهند قبل التقسيم وأصدروا قراراً مدعماً بالقرآن والسنة يدعو المسلمين إلى مقاطعة وظائف الحكومة البريطانية في الهند وبخاصة العمل في القوات المسلحة، وقد استجاب المسلمون للقرار فاعتقل الألوف منهم.

لم ينكر محمد علي التهمة التي وجهوها إليه بل اعترف بها وجهر بحكم الله فيها وما أتم مرافعته حتى استحالت القاعة محراباً خاشعاً واقشعر كل من فيها رهبة لهذا الرابض في القفص.

وبالرغم من جهامة الموقف وصرامته فقد بدأ مولانا محمد علي مرافعته بإثارة جو من المرح والسخرية .. قبل أن يوجه محمد علي كلامه إلى هيئة المحلفين التفت إلى ناحية هيئة المحكمة فقال :

" ألا يمكن أن يجلس المحلفون ليكونوا منى في هذا الجانب ؟ إننى حتى الآن لم أر وجوههم .. إننى أريد إغراءهم كما أغريت القوات المسلحة .

واستمر محمد على فى مرافعته متهكماً . لقد قلت إننى أريد إغراء المحلفين لقد كان فى الحقيقة من وراء ذلك أمر آخر.

لقد كان مرادى أن تكونوا بمثابة ستر بينى وبين السيدات اللواتى يجلسن الآن خلفكم وإلا فقد يزيد علىّ المدعى العام تهمة إغراء أخرى.

ثم يرتفع صوت محمد مجلجلاً فى قاعة المحكمة .

أيها المحلفون .. إنه ليس بيننا وبينكم قضية .. إن القضية ليست بين محمد على وستة آخرين من جهة .. وبين الحكومة من جهة أخرى .. إنها قضية الله مع البشر والمشكل كله .. هل سيكون السلطان لله على الإنسان أم للإنسان على الله ..؟

إنكم عند تسجيل أسماء الجنود تأخذون عليهم تعهداً كتابياً وتلزمونهم بقسم مخصوص ثم توجهون إليهم هذا السؤال :

هل تتعهد بالذهاب حيثما تؤمر فى البر والبحر؟

فلنفرض أن هذا الجندى هندوكى .. وأن الضابط أمره بذبح بقرة ليجهز له لحمها .. سوف يرفض هذا الجندى أوامر الضابط ويقرأ على هذا الضابط كلمات من كتابه المقدس ينهى عن ذبح البقرة.

فهل يحاكم هذا الجندى لاحترامه شعائر دينه ..؟

وإذا ذهب جندى مسلم إلى عالم وسأل عن حكم الله فى قتال المسلم ضد أخيه المسلم ، وقال للعالم : إننى مطلوب للسفر إلى "ميسوبوتاميا" للقتال ضد دولة الخلافة فأجابه العالم : إن ذلك غير جائز شرعا فهل يعتبر هذا الجندى

المسلم مجرماً ؟

لقد أصدر كاتب إنجليزى مسيحى غير مسلم يدعى (ه.ج. ولز) كتاباً رمزياً عن الشعب البريطانى ولا أدرى إن كان قد اتفق لأحدكم أن قرآه واسم هذا الكتاب (مستر برتلنج يبصرها) فماذا يقول ؟ ماذا يرى مستر برتلنج المفروض فيه أن يكون الإنجليزى الهادئ ؟

إنه يقول : إن رأس الأمر الدين ، وإن غاية الأمر الدين ، والمرء الذى لم يبدأ حياته به لا يتمتع بحياة حقيقية ولا يجد المعنى الحقيقى للحياة .. إن ولاءه الأول وواجبه الأول لله قد يتمتع ببعض التكريم وقد ينال شيئاً من الولاء غير أن هذا الولاء وهذا التكريم بمقابلته بالولاء والإخلاص لله يذوى كالورقة التى يلفحها اللهب المشبوب فتذروها الرياح الأربع.

ثم يمضى محمد على متحدياً الحكومة ومتحديا المحكمة ، ومتحديا قوانين القتل التى تفرض على المسلم قتال أخيه المسلم .. يمضى في كل ذلك مؤمناً أن حياته التى يحملها قليلة فى سبيل هذ الحقيقة التى غابت عن كثير من مسلمى هذا العصر حين يتحولون إلى أدوات صماء فى أيدى أعداء دينهم فيقتلون باسمه إخوانهم فى العقيدة وإخوانهم فى الدين والملة.

إن المسلم الذى يرتضى الإسلام ديناً ويهتدى بسنة رسول الله ﷺ موافق ضمناً على عدم شرعية انضمامه إلى جيش يحارب المسلمين ويقتلهم بغير وجه حق.

وعلى ذلك فالقرار الذى تتهموننا باتخاذه فى مؤتمر جماعة العلماء لم يكن سوى حكم معلوم من الدين بالضرورة.

وعلى هذا فجريمتنا أننا أعلنا حكماً في الإسلام .. فإذا كان فى إعلان حكم الإسلام ذنب فقولوا فى هذه الحالة : إن إعلانكم لأحكام المسيحية جريمة

أيضاً .. وكذلك الهندوك الذين يعلنون أحكام دينهم اتباعاً لتعاليمه مجرمون . فإذا طلبوا من هندوكي ألا يقتل بقرة يكونون مذنبين لاتفاقهم على ارتكاب جناية أو مؤامرة إجرامية.

ثم يمضي محمد على في مرافعته متهكماً بالمحكمة وقوانينها والتهم الموجهة إليه منها قائلاً.

اسمحوا لي أن أنشد قصيدة من نظمي . إنه نظم هزيل لي .. وكما قال : -أتشون- عندما قتل يوليوس قيصر، وجن جنون الشعب بسحر خطبة انطونيوس تجمع الناس على "سنا" الشاعر يريدون قتله يحسبونه "سنا" المشترك في مؤامرة لقتل القيصر فصاح كلا .. كلا أنا لست "سنا" المتآمر . إنما أنا "سنا" الشاعر.

فقالوا : اقتلوه .. اقتلوه لشعره الرديء ...!

إنني أخاطب بني وطني وإخواني في العقيدة وأقول لهم إنني أذكركم بواجبكم أذكركم بإخلاصكم ، أذكركم بالشرف وأطلب إليكم أن تكونوا أمناء على العهد الذي قطعتموه على أنفسكم أمام الله والأمة .

أو ليس لي الحق أن أقول للمحلفين إذ لم يصدق هؤلاء القوم مع ربهم فاستباحوا مخالفة أمره ، أينتظر منهم بعد ذلك صدق في ولائهم لملكهم في جيشه ؟

ربهم الذي وهبهم الحياة .. الشرف .. العقيدة .. الإخلاص نفسه .. حتى الملك .. لا .. الله فوق كل شيء ... الله فوق الإخلاص .. الله فوق الملك ... الله فوق الوطن ... الله فوق بلادي ووالدي .. ووالدتي وطفلي.

تلك هي عقيدتي فاشنقوني إن شئتم . ولكن اعلموا أنكم بذلك تنتحرون إذ

تقتلون أرواحكم . ستكونون أجساداً تتحرك بلا روح .. وجيفا تلقي طعاماً للغربان.

وينفعل محمد على حين تقاطعه المحكمة وهو يتحدث عن رسول الله ﷺ في حجة الوداع يعلن إلى البشرية كلمة الله التى تقوم عليها موازين العدل والحق فى هذه الأرض.

لا تقاطعنى أيها القاضى حين أتكلم عن رسول الله .. اسحب كلمتك ... ويقول أخوه "شوكت على " هذا بهتان وسفاهة .. ويزيد محمد على : عليك أيها القاضى أن تسحب قولك .. لابد أن تستدرك أن واجبى الإهتمام بشأن رسول الله . وعلى أن أقطع عنق من يسىء في حقه عليه الصلاة والسلام.

إن دفاعى أيها السادة إنما هو فى سبيل الله . ومن أجل وطنى . إننا الآن في قاعة المحكمة كسجناء ولكن عندما يجمعنا موقف الحشر أمام الله أحكم الحاكمين فالقاضى والمحلفون والمتهمون والمدعى العام ومساعده .. الملك نفسه . وكل إنسان – يحشر ويسأل أمام الله . لمن الملك اليوم ؟ ماذا يكون جوابكم ؟ إن الملك لك .. إنكم تقولون إذ تصلون لله. "ليأت ملكوتك" وقد أتى ملكوت الله . إن ملكوت الله هنا اليوم وفى هذه الساحة . إنه ليس ملك الملك جورج ولكنه ملكوت الله . وعليكم أن تتخذوا قراركم على هذا الأساس.

ثم ختم مولانا محمد على مرافعته قائلاً:

إننى لن أقف موقف الخائف ..

ولا موقف الجبان..

إن المسلم يقابل الموت مبتسما .. لأن الموت فى عقيدة الإسلام مرحلة إلي عالم آخر جديد عالم منزه عن الأحقاد وعن الظلم ، عالم يقف فيه الإنسان

بوجود جديد يختلف عن وجودنا الأرضى .. فإذا كنت أرفض القتل فلأن الله يأمرنى ألا أفعل . ودينى يوصى بالرحمة والعدل مع العدو قبل الصديق ، ولكنى فى سبيل الله مستعد أن أقتل كل من يأمر الله بقتله ولو كان ذلك أخى الشقيق أو أمى العزيزة ، أو زوجى وأطفالى .

* * *

وصدر الحكم .. فكان مفاجأة .. كان الكل ينتظر من هيئة ليس فيها مسلم أن - تحكم بالموت . أو النفى المؤبد . فإذا هو الحكم بالبراءة .

وهنا خان مولانا محمد على صوته . وتحدرت قطرات الدمع من عينيه وجلس متشحاً بالجلال والروعة وبهاء الإيمان .

* * *



باكستان

زندة باد .. !

باكستان زنده باد .. !

أى .. تعيش .. باكستان : تحيا ..

ومن لا يتمنى لباكستان أن تحيا وتعيش . !

إننى أحفظ هذا الهتاف منذ عام ١٩٤٧م بعد تقسيم شبه القارة الهندية إلى دولتين .. دولة مسلمة ، ودولة هندوكية .

وكانت باكستان تتكون من جناحين جناح شرقى وهو ما يعرف الآن باسم "بنجلاديش" !

وجناح غربى وهو ما يعرف الآن باسم باكستان .. كيف حدث هذا ؟ ولماذا ؟

المأساة كبرى .. وأسبابها تبكى وتدمى .. ولكن انتظر حتى تفرغ من قراءة هذا الفصل من الكتاب .!

عندما قررت السفر إلى باكستان – لأول مرة – قررت أن أسافر على متن خطوطها الجوية المعروفة باسم (P.I.A) أردت أن أعرف باكستان منذ أول خطوة . وكانت الخطوط الجوية الباكستانية (P.I.A) هى هذه الخطوة الأولى .

أخذت مكانى فى الطائرة المتجهة إلى "كراتشى" وقبل أن تقلع الطائرة بقليل جاء صوت المضيفة يعلن بدء قيام الرحلة :

حضرات .. خواتين .. ! "أى .. أيها السيدات والسادة .. :

السلام عليكم .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. إننى أسمع هذه التحية للمرة الأولى فى طائرة ..!

فما أحوج المسافر إلى السلام والرحمة وهو معلق بين السماء والأرض .!

ثم عادت المذيعة تقول :

– إن شاء الله– نصل إلى (كراتشى) فى تمام الساعة كذا .. لقد كدت أطير من الفرحة .. فتعليق وصولنا وهبوطنا .. فى مطار (كراتى) لا يتحقق إلا بمشيئة الله فعلا .!

وفى قسم الجوازات بالمطار بادرنى الضابط بالتحية –السلام عليكم ..!

قلت فى نفسى أن هذا بلد يعيش بالإسلام وللإسلام فعلا ! فكل ما تراه وكل ما تسمعه مسلم حتى الطائرة كانت تسبح بحمد الله فى السموات العلا .!

نزلت فى فندق "انتركونتننتال"فى مدينة "كراتشى" لمدة يومين .. فقدكنت –أصلا– مسافرا إلى (لاهور) .. والمسافة بين (كراتشى) و(لاهور) .. حوالى ثمانمائة ميل . ثم إنه ليس من المعقول أن أترك (كراتشى) ولا أعرف عنها إلا القشور ..!

* * *

خرجت من الفندق فى التاسعة صباحا .. ثم ناديت على "ركشا" .. و"الركشا" يا صديقى القارئ كانت فيما مضى عربة يجرها رجل ! كما رأينا ذلك فى فيلم (ثمانين يوما حول العالم) الذي كتبه "جون فيرن" .

سألنى السائق إلى أين ؟

قلت له : "سيده" وهى كلمة أردية معناها "امشى" على طول ولكن دون تحديد جهة معينة.. فقد أردت أن أكون "سندباد" هذا العصر ، فتركت للسائق حرية السير فى أى إتجاه يحب !

إن فى باكستان أربع عواصم لكل عاصمة منها صفة خاصة بها (كراتشى) العاصمة التجارية .. و(لاهور) العاصمة الثقافية ، وراو لبندى) العاصمة العسكرية ، أما (إسلام أباد) فهى العاصمة السياسية .. إن كلمة "أباد" معناها مدينة .. فمعنى "اسلام أباد" أى مدينة الإسلام .. !!

* * *

بعد يومين .. أخذت مكانى فى عربة القطار "المكيفة" من "كراتشى" إلى "لاهور" .. المسافة بين "كراتشى" و "لاهور" يقطعها القطار فى حوالى خمس عشرة ساعة.

كنت حريصا على أن أرى باكستان من الجنوب إلى الشمال من خلال نافذة القطار .. غير أن "الليل" حال بينى وبين هذه الرؤية على مدى عشر ساعات .. فانكفأت على نفسى شبه نائم ..!

وفى محطة (حيدر أباد) (السند) شاركنى الحجرة ضابط برتبة جنرال ..! لم ينطق بكلمة .! ربما ظننى هنديا ! وفى أحسن الأحوال فأنا لست باكستانيا! أغمضت عينى فى محاولة للنوم ولكنى هيهات أن يغمض جفن فى هذه الحجرة التى تحولت إلى سجن ! أو إلى معسكر يتسم بالانضباط والربط ..!

نظرت إلى الساعة فوجدتها تشير إلى الرابعة والنصف صباحا وبدون قصد، وبحركة عفوية لا تنم عن شيء سألت الجنرال عن الوقت. وهل حان وقت صلاة الفجر أم أن الوقت لم يحن بعد.. ؟

فجأة انقلب الرجل رأسا على عقب .. ! لقد نطق "التمثال" الجامد .. !

ووقف الجنرال منتصبا ليعتذر عن موقفه السابق ..

إذن فأنت مسلم .. ! قالها الرجل وهو يتأسف . لأن واجبه كقائد عسكرى

يفرض عليه التحفظ فى الكلام مع من لا يعرف .. !

أما بعد أن عرف أننى مسلم فقد تصرف معى كما يتصرف الأخ .. وحين علم أننى من مصر أصر على تناول وجبة الافطار معه بعد الفراغ من صلاة الفجر .. !!

* * *

لم تغب عنى حتى هذه اللحظة ذكرياتى فى "لاهور" وباد شاهى مسجد وأجهرة .. و"أنا ركلى" .. وجامعة البنجاب .. والقلعة الحمراء .. والمكتبة العلمية ، والدكان الذي كان يستقبلنى صاحبه بنشيد (اسلمى يا مصر) .. لم تغب عنى حتى هذه اللحظة أطياف شاليمار وقائدى أعظم مزار .. وضريح العلامة اقبال.



لقد قامت باكستان بالإسلام .. وللإسلام .. ولولا ذلك ما كان لقيامها معنى ... ولكن الأمر استحال علاجه بسبب التناقضات الصارخة فى العقائد ، وبسبب الطبقية الجائرة فى نظام الحكم ، وبسبب التفرقة الهائلة فى العرق والجنس .. وقد كان السؤال -ولا يزال- هل يعبد المسلم البقرة أم يذبحها ؟ وكما يقول المرحوم محمد اقبال :

إننا وإن كنا ولدنا فى بلاد عريقة فى الوثنية ...

رفضنا أن نعبد الثور والبقرة ...

وأبينا أن نطأطئ رءوسنا أمام الكهان والسدنة .. فلم نخر بين يدى الآلهة القديمة ...

كانت "لا إله إلا الله" هى فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة ...

* * *

ومنذ قامت باكستان ... ونحن هنا فى مصر نتابع أحداثها، ونحلل أخبارها ونرصد ما يقع فيها ... إن باكستان عزيزة علينا لأنها تجسيد للعقيدة وواحة للإيمان وارفة ... والعقيدة هى الرباط الأوثق بين المؤمنين في أى أرض والحبل المتين الذى يربط بين المسلمين فى الشرق والغرب .

لقد قامت باكستان .. وكان لقيامها معنى كبير فى دنيا السياسة ، هاهنا دولة تذوب فيها فوارق اللون ، وفوارق الجنس ، وفوارق اللغة . دولة تقوم بعقيدة دينية لا تفرق بين الناس ، وبروح إسلامية لا تعرف التعصب .

ما الذى جمع "البنغال" إلى "البنجاب" ؟ وما الذي وحد بين "السند" و"بلوجستان" وما الذى جعل "اردو" لغة تعلو على غيرها من اللغات ؟ انه الإسلام ... العقيدة التى انتشلت مسلمى الهند من الذلة والهوان .

* * *

ولما كان لله سبحانه وتعالى الملك كله .. ولما شاءت إرادة الله جلت قدرته أن يمنح دولة الباكستان السلطة والقوة تزاولها بواسطة شعبها فى الحدود التى رسمها لها وهو الوديعة المقدسة .

قرر المجلس التأسيسى الذي يمثل شعب الباكستان أن يضع دستورا تسير وفقه باكستان المستقلة ذات السيادة . دستورا تمارس الدولة به وظائفها مقتفية أثر التعاليم التى توحى بها الديمقراطية والحرية والمساواة والتسامح والعدالة الاجتماعية كما جاءت فى تعاليم الإسلام .. دستورا يكيف حياة المسلمين أفرادا وجماعات حسب تعاليم ومعتقدات الإسلام كما وردت فى الكتابوالسنة(١) .

---

(١) دستور باكستان.

لقد كان هذا الدستور حدثا تاريخيا بالنسبة لشعوبنا .. كنا فى هذا الوقت لا نزال شبابا يمتلىء قلبه بالإيمان والحماسة، وقد وجدنا فى باكستان ودستورها الأمل الذى تخفق به قلوبنا فى كل نبضة .

ولكن هذه العملية - التى قفزت إلي الوجود لأسباب تاريخية وسياسية- لم تجد فرصة تهيئة هذا الجيل وإعداد هذه القيادة ، وقد عجز نظام التعليم الغربى السائد فى الأقطار الشرقية ، وعجزت الجامعات الغربية التى تلقى فيها زعماء هذه البلاد ثقافتهم عن أن تقدم خيرا منهم ، وعن أن تنتج غير هذا الطراز من التفكير ، وغير هذا الأسلوب من الحياة .

ومن المؤسف ، أنه فى هذه المدة غير اليسيرة- منذ أنشئت باكستان لم يقم زعماؤها بخطوة جريئة نحو توجيه المعارف - التى هى العمود الفقرى لتوجيه الدولة ، وانشائها إنشاء جديدا يتفق مع روح الإسلام وأهدافه وصياغة المجتمع صياغة إسلامية جديدة . ووضع دستور إسلامى ، وسد منابع الفساد والتفسخ الخلقى والفوضى الفكرية ، ولم تكن هناك محاولة جدية تدل على أن باكستان (معمل) إسلامى جديد تثبت فيه أهمية الحياة الإسلامية وصلاحية القانون الإسلامى ، وتفوق الحضارة الإسلامية ، وتقدم فيه نموذجا عمليا للأقطار الإسلامية الناهضة - بل - بالعكس من ذلك - قد برهنت بعض التشريعات ، وبعض الاصلاحات وبعض الاتجاهات على أن واضعى الدستور فى باكستان ، وولاة أمرها - ليسوا مأخوذين بالأقطار الغربية فحسب- بل يعتبرونها أساسا للتشريع ، وشرطا لتقدم البلاد .

وقد كان انصراف باكستان عن أهدافها الأساسية الأولية ، مأساة ضخمة وغدرا بذمة الملايين من المسلمين الذين تحملوا فى سبيلها من المصائب ما يشيب لهولها الولدان ، وقدموا لها ثمنا من الدماء والأرواح والأعراض .. ثم

إن هذا النكر والانحراف يخمدان العاطفة الدينية التى لم تزل تراود نفوس العاملين للإسلام ، ويزهدهم فى محاولة إعادة هذه التجربة(١) ...

أكثر من هذا .. أن تمزق باكستان كان نتيجة طبيعية للتنكر للإسلام وإهمال مبادئه فى أسلوب الحياة والحكم ، والوقوع فى شراك القومية البغيضة التى شطرت الدولة إلى دولتين فى الشرق والغرب .

لقد كان "البنغاليون" من أسبق الناس هتافا لباكستان قبل قيامها بل إن -مجيب الرحمن- كان من أشد الناس حرصا على قيام هذه الدولة وتضحية فى سبيلها فما الذى حدث ، وغير قلب الأخ على أخيه ، وجعل من شقيق الأمس عدوا لشقيقه ، وجعل من -العدو المشترك- حليفا ومنقذا بعد ربع قرن من الحروب والقطيعة ؟

إن النظرة الخاطفة تجاه هذه المأساة تعزو ذلك إلى اختلاف اللغة والجنس ولكن هذه اللغة وهذا الجنس لم يقفا حائلا عند قيام الدولة .

وكانت باكستان الشرقية قلعة من قلاع الصمود في وجه أية محاولة للقضاء ، على هذه الدولة .. لقد اختفت سمة الإسلام من وجه الحياة الباكستانية . وتسلم الحكم طائفة من الطغاة والمردة ، وابتليت باكستان بزعماء يعبدون أنفسهم من دون الله سبحانه ، وإذا كان " ذو الفقار بوتو - حوكم بجريمة قتل منفردة ، فإن الجريمة الكبرى التى ارتكبها كانت أضعاف أضعاف هذه الجريمة مليون مرة !!

لو استجاب لنداء العقيدة والعقل ، لما تمرد "حزب عوامى" وزعيمه فى الشرق ولو خضع لمنطق الحياة والإيمان لما كانت المأساة التى لطخت وجه

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية - العلامة أبو الحسن الندوى .
Isiam in Modern History.

الأشقاء بالدم ولكن عبادة "الذات" ، وحب التملك والتسلط ، وإهدار مبادئ الشورى والعدل والاستهجان بكل ما هو "ليس منى" ، قاد باكستان المسلمة إلى إتخاذ مواقف لم تكن فى حسبان أى فرد من شعبها ؟ ولا فى تقدير أى جندى من جيشها .

وليسمع شعب "باكستان" هذه الكلمة التى يقولها البروفسور سمث (١)... "ربما يتخيل الباكستانيون أن عملية تكوين المجتمع الإسلامى صعبة وعسيرة أكثر مما قدروها أول الأمر ، ولكننا إذا تأملنا في هذه القضية رأينا أنه لا مفر لهم الآن .. لقد كانت وعودهم ومزاعمهم صريحة واضحة إلى حد لا يمكن التخلص منها، والإغماض عنها سيكون تاريخهم "تاريخ الإسلام" .. لقد وقعت على عواتقهم مسئولية ضخمة ، إنهم لا يستطيعون راضين أو كارهين - أن يصرفوا النظر عن فكرة "الحكم الإسلامى" ، أو يتركوها لمدة طويلة ... ذلك بأن القضاء على هذه الفكرة لا يعنى التعديل فى الأسلوب والمنهج ... بل إنه يعنى الضربة القاضية على الدين والوطن ، ويستنتج العالم منه شيئا واحدا ، وهو : أن نظرية الدولة الإسلامية نظرية فارغة ، وأن شعارها وهتافها تضليل وخداع لا غير ، وهى لا تستطيع أن تساير مطالب الحياة المعاصرة . ويؤمن بأن أهل باكستان أخفقوا فى تطبيقها على حياتهم القومية كأمة وشعب ، وفى هذه الحال تصبح معتقدات المسلمين موضع شك ومحل نقاش ونقد فى نظر العالم ...!

وهذا الكلام ... خطير ... وصادق.

فالتجربة الباكستانية لم تعد ملك باكستان وحدها ... إنها للمسلمين جميعا .. لقد تجسدت فيها العقيدة ... نظاما وأسلوبا ومنهجا وما يحدث فى باكستان سوف ينعكس تلقائيا على هذه العقيدة ونظامها وأسلوبها ومنهجها... وأى خطأ

---

(١) نقلا عن العلامة الندوى .

يرتكب ضد هذه العقيدة ... فلسوف يفسر تفسيرات (مجدفة)... وينحرف بالناس عن الحق والحقيقة.

* * *

لقد عشت فى باكستان عاما كاملا[1] .. تجاوزت فيه تأثير العاطفة إلى صوت العقل ... كنت أرصد ما أراه وأسمعه فيزداد ألمى بما أرى وبما أسمع فليس معقولا أن يتحول الحكم إلى قوة غاشمة لحساب نفر أو زعيم أو حزب وطائفة .. وغير ممكن أبدا ولا مقبول أن تحرم الباكستان من حكم الشورى والديمقراطية ويسير شعبها المؤمن إلى كارثة وطنية ، وتكمم أفواه الدعاة والمخلصين للدين والأمة

غير ممكن ولا مقبول هذه الصيحات والشعارات التى تحمل فى ثناياها الموت والخراب لهذه الدولة ... مستحيل هذا الذي أراه من القادة ورجال الحكم والسياسة . من تحلل وإباحية ، وإهدار لجميع القيم الأخلاقية والدينية . إن هؤلاء الزعماء يدمرون أنفسهم وبلادهم بهذه الطريقة ... فإذا وهن الإسلام وأهدرت قيمة .. فقد ذهب المبرر الوحيد لقيام هذه الدولة ، وخرجت - من جحورها - الثعابين والأفاعى لتنفث سموم الفتنة.

أين محمد اقبال ؟ بل أين محمد على جناح ؟ بل أين أرواح الألوف من الضحايا والشهداء الذين قدموا حياتهم رخيصة فى سبيل باكستان المسلمة المؤمنة ؟ لم أكن أتصور أن تحيط بمقام "اقبال" أماكن اللهو والمجانة ؟ لم يكن يخطر ببالى ما أراه فى الفنادق التى لا تبالى بأية فضيلة ؟

كنت أحدث نفسى بألم .. وأتحدث إلى الناس بصراحة .. ما تركت وزيرا أو أستاذا أو تاجرا .. أو طالبا إلا أفضيت إليه بما فى نفسى من ألم ومرارة .

(١) ١٣٩٥ هـ- ١٩٧٥م.

بل كنت أتابع انتخابات (اتحاد الطلبة) فى جامعة البنجاب فارثى للذين يهتفون بالعلمانية ، والاشتراكية وأقول للعقلاء منهم .. إن باكستان قامت بغير هذه الشعارات القاتلة .. وحين تسيطر عليها هذه النزعات الهدامة فلن تقوم لكم قائمة وسينتهى وجودكم من الحياة فى أول "كميونة" . !!

ولقد رأيت من واجبى كمسلم .. وكمواطن "باكستانى" يستحق هذه "المواطنة" كمسلم .. رأيت أن أسهم بنصيب فى هذه المعارك التى كانت تدور خارج مسكنى فى نيوكمبس" New. Campus.

كنت ألتقى بممثلى الطلبة المسلمين لأمنحهم تجاربى فى مثل هذه المعركة .. وكنت أنتفض من سريرى خارجا كلما سمعت هتافات "اشيا صرخة هى" أى آسيا حمراء .. نفس الهتاف الذى كان يردده القمر الصينى حين أطلق لأول مرة فى الفضاء ليعلن (أن الشرق أحمر).

كنت أتفرس فى وجوه هؤلاء المساكين الذين يطالبون بالموت والخراب فى الوقت الذى يظنون فيه أنهم أحياء .. وأظل فى مكانى جالسا .. حتى تجىء مظاهرة أخرى تتقدمها الأغصان الخضر والمشاعل .. وشبابها يهتف بإيمان وعمق الله أكبر.. "اشيا سبزه هى "أى آسيا خضراء"..

وبحركة لا شعورية أذهب لأشترى بعض الحلوى وأوزعها على هؤلاء كى تجلو أصواتهم وهى تهتف الله أكبر : اشيا سبزهه هى .

لم أنس حتى هذا الوقت .. الطالب عبد الشكور رئيس إسلامى جمعية طلبة .. ولم أنس أيضا - على الرغم منى- الطالب غلام عباس مرشح الشيوعيين والـ (P.P.P) وغيرهما من أحزاب الدمار والموت.. !!

* * *

لقد تركت باكستان فى أوائل ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م .. ولكن قلبى بقى هناك يشارك رجال الله معاركهم ضد جحافل الكفر والشيطان.

لقد عرفت أناسا كثيرين من مختلف الاتجاهات والأحزاب .. من الجماعة الإسلامية . والرابطة الإسلامية .. وحزب مارشال الجو السابق "أصغر خان".

ومن حزب " بوتو" أو باكستان بيبلز(P.P.P) بارتى.

كنت أرى التضييق فى كل مكان على كل إنسان .. وكان صدرى يضيق بالاضطهادات المتلاحقة لـ"جماعت اسلامى" .. هذه الجماعة التى بقيت وحدها وسط هذا الإعصار تقاوم التجديف والتزييف ومعاول الهدم التى تهوى على رأس باكستان كل يوم والأغرب من ذلك كله .. أن القيادة الدينية أسندت إلى رجال سيئى السمعة ولم يبق فى باكستان كلها صحيفة أو مجلة تنطق بالحق والصحيفة أو المجلة التى تحاول ذلك ينتهى أمرها بالإعدام أو المصادرة ، وقد رأيت بعينى ما حدث لصحيفة "جسارت" فى كراتشى .. وما وقع لمجلة "أوردو داجست" فى لاهور.

إن المأساة فى العالم الإسلامى .. إن الذين جرعوه الذل ، وصفدوا شعوبه بالاغلال وادعوا رعايتهم للفقراء تحت شعارات خادعة وكاذبة .. كانوا فى حياتهم أباطرة من أباطرة القرون الوسطى.

لقد أممت أكثر المصانع ، وصودرت أكثر الأراضى والممتلكات. ولكن زعيم الـ (P.P.P) بقى وحده مالك الملك .. وأصبحت "لاركانا" فى عهده "ملكة المدن"..!

ويكفى أنه وعد كل فقير ببيت يسكنه ، وكل فلاح بحقل يملكه، وكل سائق "ركشا" بـ(ركشا)[1] جديدة تطعمه وتحمله .. !!

(١) "الركشا" سيارة تمشى على ثلاث عجلات .!

لقد كان (محمد اقبال) أول من دعا .. ونادى بقيام دولة باكستان.

فهل "باكستان" اليوم .. هى باكستان التى كان يحلم بها محمد اقبال ..؟

* * *

إن الذى يحدث فى باكستان مخيف و"بشع" وينذر بالخطر وبعاصفة لا تبقي ولا تذر .. ما هذا الهراء الذى نسمعه عن جيش "للصحابة" وجيش "لمحمد".

(محمد) من هذا الذى يقاتل هؤلاء الجهلاء باسمه .. ؟!

و(صحابة) من هؤلاء الذين يشعلون النار في البيت والشارع والمسجد ..!

إن باكستان تتعرض لخطر أكيد وبوادر الانفصال والتمزق تظهر من جديد.

أؤكد ذلك لمعرفة سابقة بالواقع الباكستانى ، فهناك فى "كراتشى" حركات تطالب بانفصال "السند" وإقامة "سيندو ديش".. كما سبق أن انفصلت باكستان الشرقية عن الغربية لتقيم دولة (بنجلاديش) وهناك حركات أخرى تستهدف عودة باكستان مرة أخرى إلى الهند .. !!!

إن باكستان تعيش فى (كانتونات) مذهبية وفكرية مدمرة ..!

فهذا (شيعى) .. وهذا (سنى) !! وهذا (بريلوى) وهذا (ديوبندى) !! .. وهذا (حنفى) .. وهذا (سلفى) ..! وهذا من (أهل الحديث) . وهذا (صوفى) .. !

* * *

إن الإسلام الذى قامت به وباسمه باكستان غائب تماما . فقد تحول الناس هناك إلي قبائل .. تماما كما يحدث فى "أفغانستان" بين (الطاجيك)

و(البشتو) و (الأزبك) ..! أو كما يحدث بين (الهوتر) و(التوتسى) فى (رواندا) و(بوراندى) ! أو كما يحدث بين عصابات (المافيا) فى ايطاليا وأمريكا .. !!

لا صلة ولا علاقة بين ما يحدث فى باكستان وافغانستان لا بالإسلام ولا بالنبى محمد . ولا صلة ولا علاقة بين ما يحدث فى افغانستان وباكستان وبين أبي بكر وعمر وعلى .. !!

* * *

وأنا أيها القارئ لست سياسيا .. فقد طلقت السياسة ثلاثا .. طلاقا بائنا- ومن غير رجعة..!

بل أنا مسلم يخاف على أمة الإسلام .. أن تتصدع أركانها وتنهار .. وأن يقع هذا الانهيار وهذا التصدع من فئات تنسب نفسها إلى الإسلام وهو منها براء وتزعم الغيرة والاصلاح وهى أكذب من مسيلمة الكذاب .. !!!

ترى لو كان (محمد إقبال) لايزال حيا حتى هذا اليوم فماذا كان يقول عما يحدث فى باكستان وفى غيرها من بلاد الإسلام .؟

لم أنسى حتى هذا اليوم .. وبالرغم من مرور ثلاثين عاما .. لم أنس زيارتى له فى قبره المسجى بالعظمة والجلال بجوار "بادشا هى مسجد" فى مدينة "لاهور".

لم يكن يفصل بينى وبينه حاجز من الحياة أو الموت . كنت روحا تناجى روحا ! وإلا .. فبماذا أعلل هذا الحوار بينى وبينه وقد مضى على وفاته أكثر من نصف قرن.

لقد أحببت "اقبال" أكثر مما يحبه أحد ، ورأيت فى سيرته ما لم أره فى أى شاعر من قبل . فلم يكن كغيره من الشعراء الذين عاشوا وماتوا دون أن

يكون لحياتهم أو مماتهم أثر.

لم يكن "اقبال" فى حياته إنسانا عاديا، كان روحا تحلق في آفاق سامية من المثل العليا، وكان قبسا من نور الحقيقة التى جاء بها محمد (صلوات الله وسلامه عليه) إلى هذه الدنيا.

وقد عاش "اقبال" حياته كلها بحثا عن هذه الحقيقة .. فما أتفه الحياة حين تخلو من الرجال الذين يزرعون فى القلوب شجرة المحبة .. وما أوحشها دنيا حين يصطبغ كل شيء فيها بالكذب والغش والخديعة.

يقول "اقبال" في إحدى قصائده :

رأيت البارحة شيخا يدور حول المدينة وقد حمل مشعلا كأنه يبحث عن شيء .

قلت له يا سيدى : تبحث عن ماذا .

قال : قد مللت معاشرة الوحوش والدواب .. ضقت بها ذرعا .. خرجت أبحث عن إنسان فى هذا العالم.

لقد ضاق صدرى من هؤلاء الكسالى والأقزام الذين أجدهم حولى فخرجت أبحث عن عملاق من الرجال وبطل من الأبطال يملأ عينى ..!!!

قلت له : لا تتعب نفسك .. إننى لا أرى لهذا الكائن الذي تبحث عنه أثرا .

قال الشيخ : إليك عنى يا هذا .. فأحب شيء إلى نفسى أعزه وجودا وأبعده منالا ..!

وما خفق قلب بالإيمان والأمل كما خفق قلب هذا الشاعر العظيم الذى عاش حياته شديد الإيمان قوى العقيدة .. فقد كان وهو صبى يبدأ يومه بتلاوة

القرآن الكريم ويدخل عليه والده يسأله عما يفعل .. فيقول اقرأ القرآن .. ، وظل على هذه الحال ثلاث سنوات .. يسأله أبوه نفس السؤال ، ويجيب (اقبال) بنفس الجواب، وذات يوم قال لوالده :

لقد مضت ثلاث سنوات وأنت تسألنى نفس السؤال وأجيبك بنفس الجواب ثم لا يمنعك ذلك من تكرار السؤال كلما رأيتنى أقرأ القرآن فماذا تقصد ؟

قال يا بنى : أريد أن تقرأ القرآن، كما كان جبريل يقرأه على النبى محمد .!

* * *

كان "محمد إقبال" كثير الاعتداد بالإيمان ، يعتقد أنه قوته وميزته ، وذخره وثروته .. يقول فى إحدى قصائده :

" إن الفقير المتمرد علي المجتمع – يشير إلى نفسه– لا يملك إلا كلمتين صغيرتين ، قد تغلغلتا فى أحشائه ، وملكتا عليه فكره وعقيدته وهما : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وهنالك علماء وفقهاء ، الواحد منهم يملك ثروة ضخمة من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون لا ينتفع بكنوزه"..!

وقد آلمه ما كان يراه من وضع العالم الإسلامى المخزى ، والفراغ الفكرى والروحى.

ففاضت قريحته بشعر من أبلغ الشعر الوجدانى ، تحدث فيه إلى النبى ﷺ، وشكا إليه فى عالم الخيال ضعف العالم الإسلامى وفقره الروحى وإنحرافه عن الجادة، وما كان يجده في نفسه من فتور بعد النشاط، ومن ضعف فى العمل ، يقول :

" أشكو إنيك يا رسول الله ﷺ، هذ الأمة التى تسلط عليها خوف الموت ،

إنك حطمت الأصنام القديمة كاللات ومناة ، وجددت العالم القديم ، الذى سرى فيه الهرم، ودب فيه الموت، فأصبح العالم يستقبل اليوم الجديد بالإيمان والحنان، والتسبيح والأذان، ويستمد من الشهادة التى لقنته إياها الانتباه والحضور والنور والسرور .

إنا – وإن ولدنا فى بلاد عريقة فى الوثنية– رفضنا أن نعبد الثور والبقر ، وأبينا أن نطأطئ رؤوسنا أمام الكهان والسدنة، فلم نخر بين يدي الآلهة القديمة، ولم نطف حول بلاط الملوك وقصور الأمراء ، والفضل فى كل ذلك يرجع إلى دينك الذى جئت به ، وإلى جهادك الذى قمت به ، فقد تربينا على السفرة[1] التى بسطتها للعالم ، وقد ظل حديثك مصدر الشوق والسرور للأمة طيلة هذه القرون، وقد استطاعت بذلك أن تكون أبية فى الفقر عفيفة فى الحاجة ، ولكن العالم الإسلامى اليوم ، قد فقد الشئ الكثير من قوته وقيمته" .

لقد تجولت فى ربوع العالم الإسلامى ، وزرت بلاد العرب وديار العجم فرأيت من يقتدى بك ، ويجدد ذكراك مفقودا لا يقع عليه العيان ، ورأيت من يمثل أبا لهب ويحكيه ، كثيرا يوجد فى كل مكان ، إن الشباب الإسلامى قد استنارت عقولهم، وأظلمت قلوبهم وضمائرهم، إن نظام التعليم الجديد ومؤسساته انتزعت منهم النزعة الدينية حتى أصبحوا خبر كان ، أنهم هاموا بالغرب وجهلوا قيمتهم ، يريدون أن يتصدق عليهم الغرب بكسرة خبز أو حفنة شعير ، إنهم باعوا نفوسهم الكريمة من أجل لقمة حقيرة ، فأصبحت الصقور التى تحلق فى السماء ، عصافير صغيرة لا شأن لها بالأجواء الفسيحة والمرامى البعيدة . !!!

ويقول : "لقد ضربت فى مشارق الأرض ومغاربها ، فوجدت المدن تغص

---

(١) السفرة هى المائدة.

بالمسلمين الذين يفرقون من الموت ، أما المسلم الذى يفرق منه الموت ، فلم أر له عينا ولا أثرا".!

ويذكر السر فى ضعف المسلمين ، وتشتت أهوائهم وخمودهم فيقول :

" لقد شق على ما أراه من سوء حال المسلمين يوما ، وشكوت إلى ربى ، فقيل : "ألا تعرف أن هؤلاء يحملون القلوب ، ولا يعرفون المحبوب " ؟! يعنى أنهم يملكون مادة الحب ، ولكنهم لا يعرفون من يشغلونها به ، ويوجهونها إليه ، فقلوبهم تائهة ، وعقولهم مضطربة ، وجهدهم ضائع ، وعملهم ضعيف ، وحياتهم لا لذة فيها ولا سرور".

ثم يحكى عن نفسه ، ويقول :

" إننى لم أبع نفسي أو ضميرى لأحد ، ولم أستعن بأحد فى حل مشكلاتى ، ذلك لأنى اتكلت على غير الله مرة واحدة ، فسقطت عن مقامى ، وعوقبت بالهوان مائتى مرة"..!

ويندفع يشكو عصره ومجتمعه في حزن وألم ، فيقول :

"إنى احترق بنار شوقى وحبى وأستغرب أنى خلقت فى عصر لا يعرف الإخلاص ، ولا يعرف سوى المادة والأغراض ، فى عصر لم يعرف لوعة القلب ، ولم يذق الحب ، أنا غريب فى الشرق والغرب ، أعيش وحدى ، وأغنى وحدى ، وقد أتحدث إلى نفسى وأخفف من أشجانى وآلامى".

ويقول : " إن إخوانى لم يعملوا بما قلت لهم ، إنهم لم يجنوا الرطب من نخل شعرى ، إليك أشكو يا سيدى الأمم ! من أناس لا ينظرون إلى كشاعر أو متغزل .

لقد أمرتنى يا رسول الله ! أن أبلغ إليهم رسالة الحياة والخلود ، وأنشدهم

بما ينفخ فيهم النشاط والروح ، ولكن هؤلاء القساة يقترحون على أن أنوح الأموات فى الشعر ، وأنظم تاريخ الوفاة ، فأين هذا بما أمرتنى به ".

ويقول :

"لقد اقتطفت من علوم الغرب شيئا كثيرا ، وتناولت من خمر حانته كأسا دهاقا ، يا له من صداع اشتريته ، لقد عبثت بين علمائه وفلاسفته ، وبين غيده الحسان ، يا لها من فترة مظلمة قضيتها من حياتى ! حرمت فيها لذة الحب ونعيم القلب ، إن دروس الحكماء قد صدعت رأسى ، وكدرت بالى ، ذلك لأنى نشأت فى حضانة الحب والإيمان ، فلا يناسبنى ولا يملأ فراغ نفسى إلا العاطفةوالحنان".

وهنا يوجه الشاعر كلامه إلى الطبقة التى تمثل العلم والدين ، فينتقد فيها الجفاف ، واتساع العلم وتضخمه على حساب العاطفة والحب ولوعة القلب ، فيقول :

" إن العالم الدينى لا يحمل هما ، إن عينه بصيرة ، ولكنها جافة لا تدمع ، لقد زهدت فى صحبته لأنه علم ولا هم ، وأرض مقدسة ولا زمزم" . !!

رحم الله "محمد اقبال" وليحفظ إلى الأبد .. باكستان .

* * *

سرى لانكا

أو

الحديقة العائمة فوق مياه المحيط الهندى ..!

ها نحن فى طريقنا إلى سرى لانكا .

أقلعت بنا طائرة الخطوط الملكية الهولندية من مطار بومباى Bombay فى الهند فى طريقها إلى كولمبو . وإلى جاكارتا عاصمة إندونيسيا ، كانت الساعة تقترب من الثامنة صباحا حين اقبلت المضيفة ، لتضع أمام مقعدى طعام إفطار ساخن تتضوع رائحته بأفاويه الهند ..!

وانتظرت المضيفة لتسألنى عما إذا كنت أريد شيئا آخر..

قلت لها مبتسما : ارفعى هذا كله ، وخذيه معك ..!

كادت المضيفة تصعق .. وارتج عليها ، فلم تعد تنطق ..!

ومن ثم .. لم يكن بد من تعليل موقفى ، الذى سبب لها كل هذا الإنزعاج والحرج ..

قلت للمضيفة كاترين:

"إننى صائم" ...

قالت : إذن أحضر لك بعض الفاكهة ..!

لم تكن تعرف المضيفة "كاترين" أننى مسلم ... وأن الصوم عند المسلمين يعنى الامتناع عن كل ما يؤكل أو يشرب .. وربما خطر ببالها أننى من "النباتيين" الذين لا يأكلون اللحم ، أو من المسيحيين الذين لا يأكلون اللحوم فى أيام الصوم .

قلت لها موضحًا :

– إن الصيام عندنا – نحن المسلمين– يعنى الامتناع عن تناول أى شىء يدخل الفم من أول ضوء من مطلع الفجر إلى آخر ضوء بعد غروب الشمس .

- ثم عادت تسأل : وهل تصوم المرأة مع الرجل طوال اليوم ؟

- أجل يا آنسة "كاترين" فليس الإسلام أو الصيام خاصا بالرجل دون المرأة ، وليست العبادات وقفا على الذكر دون الأنثى ، إن المرأة والرجل سواء في كل عبادة ، وفي كل عمل صالح ينهض بالمجتمع والأسرة ، وفي كل خير ينفع الناس في الدنيا والآخرة.

قالت المضيفة : إنني أسمع هذا لأول مرة ، لم أكن أعرف عن الإسلام هذه الصرامة في تهذيب النفس ، أو هذه الشدة في تربيتها على هذا النحو .

قلت للآنسة "كاترين" :

- إن كل عبادات الإسلام تستهدف علاج هذه النفس ، وتخليصها من كل مظاهر الضعف أو النقص .

هناك الصلاة التي يؤديها المسلم أو المسلمة خمس مرات في اليوم .

إن هذه الصلاة معراج روحي يلتقي فيه المسلم بربه ، في مناجاة صادقة على مدى ساعات النهار أو الليل .

وهناك الزكاة .. وهي انتزاع النفس من ظلمات الأثرة التي تهبط بالإنسان إلي درك وحش الغابة في الاقتناص والصيد .

ثم الحج وهو رحلة إلي الله يتجرد فيها المسلم من كل شيء ، لتعود نفسه -كما كانت- يوم مولده مطهرة من ذنب ..!

* * *

وفجأة اختفت المضيفة تلبية لنداء صادر من قائد الطائرة ، ثم عادت بعد حوالي خمس عشرة دقيقة لتسأل عن أي كتاب يفيدها في التعرف علي الإسلام

بصورة شاملة وكاملة ..!

إن فى حياتنا أسرارا يعجز عن فهمها جبابرة العقل .. وإلا كيف نفسر أحداث هذا اللقاء في رحلة عابرة إلى أقصى الشرق ؟ وكيف يكون معى الكتاب الذى تسأل عنه (المضيفة) المتلهفة إلى معرفة الحقيقة والحق .. ؟؟

بعد عامين من هذا اللقاء .. تسلمت رسالة من "آمستردام" Amestrdam لم تكن رسالة بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة . ولم تكن كلماتها حروفا مرصوصة فوق ورقة .. كانت عباراتها تشع نورا وشفافية ، لم أنتظر حتى أكمل الرسالة .. انتقلت بعينى وأحاسيسى إلى توقيع المرسل فى النهاية .. إنها "كاترين" سابقا .. بعد أن أسلمت واختارت لنفسها اسم (فاطمة)..!!

وعدت بذاكرتى إلى الوراء لأكثر من عشرين عاماً..

كنت أجلس فى مدخل المركز الإسلامى بمدينة لندن .. دخلت علينا فتاة تحمل فى يدها سلة من الخيزران الملون كان اسم هذه الفتاة (جيليان) Gulian وكانت مثل (كاترين) هولندية أيضا. وكما اختارت (كاترين) لنفسها اسم (فاطمة) فقد اختارت "جيليان" لنفسها اسم (خديجة) ..!!

هل تعلمون ماذا تفعل فاطمة الآن ..؟ لقد شاءت أن تكون مدرسة لأطفال المسلمين بعد أن تركت وظيفتها السابقة .. أما (خديجة) فتعمل أستاذا زائرا فى بعض جامعات أوروبا .. لتدريس العقيدة الإسلامية ..!!

* * *

وها هى الطائرة تهبط بنا فى مطار كولمبو عاصمة سرى لانكا.

ألا فامطرى جبال "سرنديب"

وأبار تكرور تبرا

أنا إن عشت لست أعدم قوتا

أنا إن مت لست أعدم قبرا

همتى همة الملوك ونفسى

نفس حر ترى المذلة كفرا

* * *

أبيات قديمة للشاعر محمود سامى باشا البارودى أذكر يوم قرأتها .. والمكتبة التى اشتريت ديوانه منها ..

كنت متجها إلي حارة "عبد الباقى" فى حى درب الجماميز عقب صلاة الجمعة فى مسجد فاضل باشا أو جامع الشيخ رفعت كما كان يسميه الناس فى هذا الوقت . وقد تأبطت ذراع أخى المرحوم عبد العزيز شريت تلبية لدعوة كريمة منه بتناول الغداء فى بيت أسرته الشهير بهذه الحارة العتيقة .

لقد توقفنا أمام مكتبة من تلك المكتبات المنتشرة فى هذا الشارع العريق الذى لم أعرف سر تسميته بهذا الاسم حتى هذا اليوم ، ثم تناولنا مجموعة من الكتب وبخاصة ما يتصل منها بالأدب والشعر . لقد كنت فى هذه المرحلة المتقدمة من سنى الدراسة مغرما بالأدب . ولم يكن يفوتنى كتاب من هذه الكتب التى تنسب قارئها إلى زمرة الأدباء فى هذا العصر . ومن غير قصد بدأت أقلب صفحات هذا الديوان الملتهب بأهازيج البطولة والأباء والفخر.

لكن .. ما "سرنديب" هذه التى يتحدى الشاعر جبالها أن تمطر تبرا ؟ لابد أن تكون قريبة من "المقطم" أو واقعة فى سفح من سفوح جبال مصر على الأكثر .. لم تكن ثقافتى الجغرافية تسمح بأكثر من هذا الخيال والتصور . كنت

طالبا فى الثانية الابتدائية بالأزهر، ولم يكن لـ"سرنديب" هذه فى دراستنا أثر يذكر.

* * *

وبمحض الصدفة وقعت عيناى على كتاب مع أحد الوراقين الذين عرف بهم حى الأزهر .. لم يكن لهذا الكتاب "عنوان" يعرف به . كان غلافه ممزقا وأكثر أجزائه ضائعا . ولفت نظرى من بين فصوله "فصل خاص" عن الثورة العرابية . زعيمها .. ورجالها .. والمصير الذى انتهى إليه أبطالها.

وتوقفت ثانية أمام صفحة يتحدث فيها البارودى عن رحلته من أرض الوطن إلى المنفى.

إنى لما أفضت بى غوائل الزمن(١) ، إلى مفارقة الأهل والوطن .. سارت بأشباحنا الفلك ، بتقدير من مالك الملك ، فلما توسطنا لجة اليم ، وتغشتنا ضبابة الهم أخذ البحر يهدر ويموج ،والريح تعصف وتروح(٢) ، والدجن يبرق ويرعد(٣)، والموت يقرب ويبعد، والفلك بين صعود وهبوط والناس بين رجاء وقنوط ، فشخصت(٤) الأبصار ، وغابت الأنصار ، وأقبل الفزع ، واستولى الجزع فلم يزل يتخبطنا اليم ويأخذ بأكظامنا(٥) الغم حتى كادت الأنفس تزهق وأظفار المنية تزهق وكيف لنا بالخلاص ، ولات حين مناص ، فبعد لأى ما(٦) سكنت

---

(١) أفضت : أوصلتنى إلى دواهى الزمن.

(٢) راجت الريح : اختلطت فلا يدرى من أين تجىء.

(٣) الدجن : الغمام المتكاثف.

(٤) شخصت الأبصار : أدامت النظر.

(٥) أكظام : جمع كظم . وهو مخرج النفس.

(٦) فبعد لأى : بعد بطء وشدة .

فورة الريح، وهدأت ثورة ابن بريح[1] وتجلت بنورها السماء ، واصطلح الماء والهواء ، فقرت الأنفس في الصدور ، وتنفس كل مصدور ، ولم يبق إلا سوق الحديث من قديم وحديث ، والفلك يمخر البحر بجؤجؤه[2] ونحن من الشهر فى دؤدؤه[3] حتى انتهى بنا الدبيب ، ولاحت عين "سرنديب".

منازل لم تألف بها النفس مألفا   على أن فيها كل ما تشتهى النفس

ولا عيب فيها غير أن ليس لى بها   أنيس وفقد الخل فى غربة حبس

إذن .. فإن "سرنديب" هذه بلاد يركب إليها البحر ، وتستغرق الرحلة إليها حوالى نصف شهر.

ولكن أين تكون ؟ وفى أى قارة من العالم تقع ؟ إننى لا أزال أكتب بروح طالب الابتدائى الصغير فى معهد القاهرة ، ولم تزل ثقافتى عن الدنيا محدودة وأحلامى المرهفة ، لم تكن تتجاوز حدود الوطن أو القاهرة .

* * *

ولفت نظرى ذات يوم طالب غريب السحنة كان اسمه "الزبير" أو .. "الزبير باشا" كما قدم إلى نفسه .. قال :

أنا من سيلان .. ومن خريجى كلية الزاهرة التى أنشأها عرابى باشا فى بلدنا أيام المنفى .. ولم أدع هذه الفرصة تفلت .. لقد دعوته إلي جلسة هادئة في "صحن الأزهر" وجلست أمامه كمحقق يسأل ويستفسر :

---

(١) ابن بريح : هو التراب.

(٢) جؤجؤ السفينة : مقدمها.

(٣) دؤدؤه الشهر : آخره .

س : لقد نفى عرابى إلى "سرنديب" لا إلى "سيلان".

جـ : سرنديب هى سيلان وقد عرفت بهذا الاسم قديما عند العرب .

س : عرابى باشا إذن من الشخصيات المعروفة فى تاريخ بلادكم ؟

جـ : أقول لك شيئا سمعته من أجدادنا وهم يتحدثون عن قصة وصول عرابى باشا وزملائه إلى كولمبو Colonmbo .

– لقد خرج الناس جميعا مسلمون وغير مسلمين يستقبلون هذا البطل ورفاقه قبل نزولهم من المركب إلى البر .. مئات الزوارق والسفن الصغيرة خرجت إلى عرض البحر تهتف بمن فيها لأبطال مصر.

لقد اشترك المسلمون فى هذه المظاهرة بعاطفة دينية وشارك غير المسلمين فى استقبال هؤلاء الأبطال تقديرا لدفاعهم عن الحرية.

ولقد حمل الناس العربة التى استقلها عرابى علي أكتافهم تحديا لقوى البغى التى نفتهم إلى هذه الجزيرة . وكان يوم وصولهم إلى "كولمبو" من أيام –التاريخ الخالدة فى تاريخ أمتنا ومنذ ذلك اليوم والمسلمون يرتدون "الطربوش" تقليدا لهؤلاء الزعماء الذين شرفت بهم بلادنا ..!

* * *

لقد عرفت (سرى لانكا) بأسماء مختلفة عبر التاريخ . فاليونانيون أطلقوا عليها اسم "تابروبين" (Taproban) وسماها البحارة العرب (Serendib) "سرنديب" وقد أطلق عليها الأسبان والبرتغاليون اسم سيلان (Ceyglan) بينما أطلق عليها البريطانيون اسم Ceylan ، وقد عرفت بهذا الاسم طوال حكم الإنجليز حتى حصلت على الاستقلال والحرية ١٩٤٨م فاشتهرت باسمها القديم سرى لانكا.

يبلغ عدد السكان ١٣ مليونا ١٠٪ فقط منهم مسلمون، أما الأغلبية الساحقة من السكان فهم بوذيون، وهناك أقليات أخرى من الهنادك والمسيحيين.

ويقول تقرير رسمى :

١- إن التجار العرب عرفوا سرى لانكا من قبل ظهور الإسلام وقد استقر بعضهم فى سرى لانكا بعد أن حضروا إليها للتجارة ، إذ أن سرى لانكا كانت فى طريقهم إلى جنوب شرق آسيا والصين . ويطلق على المسلمين من أصل عربى اسم (المور) نسبة إلى مسلمى المغرب.

٢- وينقسم المسلمون حسب أصولهم إلي ثلاثة أقسام.

- المنحدرون من أصل عربى.

- المسلمون من أصل ملاوى.

- المسلمون من أصل سيلانى واعتنقوا الإسلام.

وبالرغم من انتشار التعليم الحديث بين المسلمين إلا أنه لا يزال نظام "الكتاب" مطبقا حتى الآن فى بعض المناطق . ويلاحظ أن المسلمين قد أحجموا فى الماضى عن التعليم اهتماماً بالتجارة ، وقد أدركوا الآن أهمية التعليم وأقبلوا عليه بشدة خاصة تعليم اللغة العربية !؟

* * *

ولقد زار ابن بطوطة هذه البلاد سنة ١٣٤٥م وقابل ملكها "ابرى شكروتى" ولن نجد وصفا أجمل مما كتبه هذا الرحالة المغربى فى وصفه للناس والحياة والجزيرة التى يقال : إنها أول بقعة هبط عليها أبونا آدم من السماء إلى الأرض :!

يقول ابن بطوطة:

وقد قابلت سلطانها ، وهو سلطان قوى فى البحر ، رأيت مرة وأنا بالمعبر مائة مركب من مراكبه بين صغار وكبار وصلت هناك ، وكانت بالمرسى ثمانية مراكب للسلطان برسم السفر إلى اليمن .

فأمر السلطان بالاستعداد وحشد الناس لحماية أجفانه فلما يئسوا من انتهاز الفرصة فيها قالوا : إنما جئتنا فى حماية مراكب لنا تسير أيضا إلى اليمن .

ولما دخلت على هذا السلطان الكافر قام إلى وأجلسنى إلى جانبه وكلمنى بأحسن كلام وقال : ينزل أصحابك على الأمان ويكونون فى ضيافتى إلى أن يسافروا ، فإن سلطان المعبر(١) بينى وبينه الصحبة ثم أمر بانزالى فأقمت عنده ثلاثة أيام فى إكرام عظيم متزايد فى كل يوم وكان يفهم اللسان الفارسى ويعجبه ما أحدثه به عن الملوك والبلاد ودخلت عليه يوما وعنده جواهر كثيرة أتى بها من مغاص الجوهر الذى ببلاده وأصحابه يميزون النفيس منها من غيره فقال لى :

هل رأيت مغاص الجوهر في البلاد التى كنت فيها ؟ فقلت له : نعم رأيته بجزيرة قيس وجزيرة كش التى لابن السواملى فقال :

سمعت بها ثم أخذ حبات منه فقال : أيكون فى تلك الجزيرة مثال هذه ؟ قلت له : ليس مرادى منذ وصلت هذه الجزيرة إلا زيارة القدم الكريمة ، قدم آدم – عليه السلام– وهم يسمونه (بابا) ويسمون حواء (ماما) فقال : هذا هين

---

(١) يقصد الملك بكلمة"المعبر" هذا المضيق الذى يفصل بينه وبين الهند – وبالذات فى المنطقة التى تعرف باسم .TAMIL NADO أى أرض التاميل.

نبعث معك من يوصلك ثم قلت له : وهذا المركب الذى جئت به يسافر آمنا إلى المعبر، وإذا عدت أنا بعثتنى فى مراكبك ؟ فقال : نعم.

فلما ذكرت ذلك لصاحب المركب – قال لى : لا أسافر حتى تعود ولو أقمت سنة بسببك ، فأخبرت السلطان بذلك فقال :

يقيم فى ضيافتى حتى تعود فأعطانى دولة يحملها عبيده على أعناقهم وبعث معى أربعة من الجوكية الذين عادتهم السفر كل عام إلى زيارة القدم ، وثلاثة من البراهمة ، وعشرة من سائر أصحابه وخمسة عشر رجلا يحملون الزاد وأما الماء فهو فى تلك الطريق كثير.

ونزلنا ذلك اليوم على واد جزناه فى معدية مصنوعة من قضب الخيرزان ثم رحلنا من هنالك إلى منار مندلى . مدينة حسنة هى آخر عمالة السلطان ، أضافنا أهلها ضيافة حسنة – وضيافتهم عجول الجواميس يصطادونها بغابة هناك ويأتون بها أحياء ويأتون بالأرز والسمن والحوت والدجاج واللبن.

ولم نر بهذه المدينة مسلما غير رجل خراسانى انقطع بسبب مرضه فسافر معنا ورحلنا إلى بندر سلاوات . وهى بلدة صغيرة وسافرنا منها فى أوعار كثيرة المياه ، وبها الفيلة الكثيرة ، إلا أنها لا تؤذى الزوار والغرباء ، وذلك ببركة الشيخ أبى عبد الله بن خفيف رحمه الله وهو أول من فتح هذا الطريق إلى زيارة القدم . وهى حاضرة السلطان الكبير بتلك البلاد وقد بنيت في خندق بين جبلين على خور كبير مسمى خور الياقوت ، لأن الياقوت يوجد به ، وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازى المعروف بشاوش وسلطان هذه المدينة وأهلها يزورونه ويعظمونه وهو كان الدليل إلي القدم ، فلما قطعت يده ورجله سار الأدلاء أولاده وغلمانه ، وسبب قطعه أنه ذبح بقرة ! وحكم كفار الهنود : أنه من ذبح بقرة ذبح مثلها ، أو جعل فى جلدها وحرق!؟

ذكر جبل سرنديب

وهو من أعلى جبال الدنيا رأيناه من البحر وبيننا وبينه مسيرة تسع ، ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل منا قد حال بيننا وبين رؤية أسفله ، وفيه كثير من الأشجار التى لا يسقط لها ورق ، والأزاهير الملونة ، والورد الأحمر على قدر الكف .

ويزعمون : أن في ذلك الورد كتابة يقرأ منها اسم الله تعالى واسم رسوله ﷺ؛ وبالجبل طريقان إلى القدم : أحدهما يعرف بطريق (بابا) والآخر (ماما) يعنون آدم وحواء عليهما السلام فأما طريق ماما فسهل ، وأما طريق بابا فصعب وعر المرتقى.

وأثر القدم الكريمة قدم أبينا آدم صلى الله عليه وسلم فى صخرة سوداء مرتفعة فى موضع فسيح وقد غاصت القدم الكريمة فى الصخرة حتى عاد موضعها منخفضا وطولها أحد عشر شبرا وأتى إليها أهل الصين قديما فقطعوا من الصخرة موضع الابهام وما يليه وجعلوه كنيسة بمدينة الزيتون يقصدونها من أقصى البلاد وفى الصخرة حيث القدم- تسع حفر منحوتة يجعل الزوار من الكفار فيها الذهب واليواقيت والجوهر فترى الفقراء إذا وصلوا مغارة الخضر يتسابقون منها لأخذ ما بالحفر ولم نجد نحن بها إلا بعض حجيرات ذهب أعطيناها الدليل والعادة أن يقيم الزوار بمغارة الخضر ثلاثة أيام يأتون فيها إلى القدم غدوة وعشيا وكذلك فعلنا، ولما تمت الأيام الثلاثة عدنا على طريق ماما، ثم إلى قرين جبر كاوان.

وهنالك كان يشتى الشيخ أبو عبد الله بن خفيف، وكل هذه القرى والمنازل هى بالجبل، وفى هذا الطريق "درخت روان" وهى شجرة عادية لا يسقط لها ورق ولم أر من رأى ورقها ويعرفونها أيضا بالماشية لأن الناظر إليها من أسفل الجبل

يراها بعكس ذلك ورأيت هنالك جملة من الجوكيين ملازمين أسفل الجبل ينتظرون سقوط ورقها وهى بحيث لا يمكن التوصل إليها آلبتة ولهم كلام طيب فى شأنها من جملتها أن من أكل من أوراقها عاد له الشباب إن كان شيخا وذلك باطل وتحت هذا الجبل الخور العظيم الذى يخرج منه الياقوت وماؤه يظهر فى رأى العين شديد الزرقة ورحلنا من هنالك يومين إلى مدينة دينور "مدينة عظيمة على البحر يسكنها التجار وبها الصنم المعروف بدينور فى كنيسة(١) عظيمة فيها نحو الألف من البراهمية والجوكية ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود ويغنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن والمدينة . كلها وقف على الصنم وكل ما بالكنيسة ومن يرد إليها يأكلون من ذلك والصنم على قدر الآدمى فى موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان أخبرت أنهما تضيئان بالليل كالقنديلين.

ثم رحلنا إلى مدينة قالى وهى صغيرة على ستة فراسخ من دينور وبها رجل من المسلمين يعرف بالناخوذة إبراهيم أضافنا بموضعه ورحلنا إلى مدينة كلنبو(Colombo) وهى من أحسن بلاد سرنديب وأكبرها وبها يسكن الوزير حاكم البحر ومعه نحو خمسمائة من الحبشة.

* * *

لندع ابن بطوطة وذكرياته ومذكراته . فقد سافر وفد مصر لحضور الندوة العالمية الإسلامية تلبية لدعوة مسلمى سرى لانكا برئاسة الوزير العالم فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى وزير الأوقاف ووزير الدولة لشئون الأزهر وعضوية كل من :

---

(١) المقصود بكلمة "كنيسة" "المعبد" الذى يتعبد فيه الهنادكة والبوذيون . فلم يكن فى هذه البلاد مسيحى واحد فى ذلك الوقت !

الدكتور الحسينى هاشم / أمين عام مجمع البحوث الإسلامية.

الدكتور توفيق شاهين / الأستاذ بجامعة الأزهر.

الدكتور عبد الودود شلبى / مدير مجلة الأزهر

وها نحن فى طريقنا إلى "سرنديب" أو "سيلان" أو "سرى لانكا" ولم يبق غير قليل حتى تهبط بنا الطائرة فى "كولومبو".

* * *

أى خيال يعيش فيه الإنسان وهو يحلق فى أجواء هذه البلاد النائية لقد أقلعت بنا الطائرة من مطار "كراتشى" قبل الفجر .. وها هى تشق طريقها عبر الوديان والجبال والصحارى الممتدة من الغرب إلى الشرق .. ثم تنحرف قليلا إلى اليمين لتعبر المضيق الفاصل بين سرى لانكا والهند.

هنا يولد النهار ويجاهد الليل ممسكا بتلافيف الظلام لقد ظهرت الجزيرة . سرى لانكا تحتنا الآن .. ولكنك لا ترى أرضا .. اختفى الطين والتراب فى أعماق البحر .. وبقيت الخضرة اليانعة وحدها فوق السطح . إن الطائرة تعلو .. ثم تهبط .. متحسسة طريقها وسط طبقات السحاب ، وخلجان الضباب . فى ثانية ترتفع فترى الشمس من بعيد متوهجة فى كبد السماء .. ثم تهبط ثانية وتختفي فى سجف العتمة والظلام .. إنها تشبه النفس فى صراعها بين الخير والشر وتبدو فى عين البصير معركة بين الباطل والحق ..!

وفى لحظة ترقب وقلق تلمس عجلاتها المدرج الناعم الأملس على الأرض .. نحن الآن فى "كولبو" Colombo . أو البوابة الجوية لسرى لانكا .. مطار متواضع ولكنه نظيف وجميل .. وقد احتشد فى ساحة المطار أعضاء سفارتنا يتقدمهم السفير وبجوار السفير يقف الوزير محمد حنيفة محمد الزعيم

فى تقرير أرسل من لندن - قبل خمسة وعشرين عاما - يقول هذا التقرير:

فى كل عام يقام حفل تحضره الملكة يدعى إليه ممثلو الأديان فى المملكة المتحدة ... وبداهة ... فلابد من أن يكون ممثل كل دين من خيرة علماء هذا الدين وأكثرهم علما وثقافة...

حاخامات ... وأساقفة ... وكرادلة ... على أعلى مستوى من العلم والفهم والدراية.

أتدرون من الذى مثل الإسلام فى هذا الحفل الذى تحضره الملكة ؟! ويشترك فيه علماء من كل دين وملة ؟!

اكتموا أنفاسكم وتجلدوا قبل أن تتعرفوا على هذه الكارثة !!!

يقول التقرير:

لقد اختير طالب لتمثيل الإسلام والمسلمين فى هذه المناسبة التى تحضرها الملكة!! طالب يحمل الشهادة الثانوية ، ولا صلة له بالعلوم الدينية ... يمثل أكثر من الف مليون مسلم أمام الحاخامات والأساقفة .. والملكة !!!

وكانت فضيحة للإسلام والمسلمين فى أوروبا.

يقول مولانا " جلال الدين الرومى" فى إحدى قصائده:

" كان يوجد فى إحدى القرى مؤذن ردئ الصوت ،وكان الناس يضيقون به وبصوته الذى يصدع رؤوسهم ، حتى أن الأطفال كانوا يفرون عند سماع صوته ،كما يفرون من خيال العفاريت، فأجمع السكان على أن يتخلصوا من هذا المؤذن بأى ثمن ، فجمعوا مبلغا من المال وتقدموا إليه ، وقالوا له :لقد

منحك الله صوتا يفوق صوت الناى وأنغام العود . وقد استفدنا واستمتعنا كثيرا بصوتك ، ونريد أن يتمتع غيرنا به كما تمتعنا ، والمؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فتقبل منا هذا المبلغ المتواضع ، وانصرف مشكورا ، وانشر بدائع الحانك من صوت آذانك على بلد أخرى فتناول المؤذن المبلغ وهو يظن أنه بلغ من القوم غاية رضاهم ، ثم بحث عن قافلة مسافرة فلحق بها ، وفى أثناء الرحلة توقفت القافلة عند أحد المنازل لقضاء الليل ،

فقام المؤذن المختال بصوته والمعجب بموهبته ، وبعد قليل شاهد المسافرون قدوم أحد الكفار الأغنياء ومعه أطايب الحلوى والهدايا ، وسأل أفراد القافلة قائلا: أين مؤذنكم الذى سمعنا صوته الآن ؟ فسأله بعضهم ما الذى أعجبكم فى صوته ، وكيف طابت أنفسكم لسماعه ؟ فأجاب الغنى الكافر ، وكان مجوسيا من الذين يعبدون النار : " إن لى ابنة تمتاز بجمالها ورشاقتها ، ولكنها منذ شهور مال قلبها إلى الإسلام ، فحاولنا صرفها عنه فلم يستطع ، ولما سمعت هذا المؤذن تضايقت وسألت عنه ، فخدعتها اختها بأن هذا يمثل شعار الإسلام، وعند سماع ذلك توهمت أن كل شعائر الإسلام يتم تأديها بمثل هذا الصوت فضعفت عقيدتها الجديدة . ولما كنت "مجوسيا" وغير مسلم ، كان طبيعيا أن أرتاح إلى هذا ، وأن أقدم الهدايا إلى هذا المؤذن..!

ثم يقول " مولانا جلال الدين " :

" قال الكافر للمؤذن : تقبل منى هذه الهدية ، فلقد صرت لى خير عون ، وما قدمته لى من إحسان ، جعلنى عبد احسانك على الدوام ، ولو كنت غنيا بالمال والثروة لملأت فمك هذا بالذهب "..!!



يديه بالتحية .. اللهم صلى على محمد . الله أكبر . الله أكبر..

* * *

لقد كنت حريصا في زيارتي هذه على لقاء الناس فى أماكنهم أن أتعرف على المسلمين فى منازلهم وحوانيتهم وقراهم .. إن مثل هذه الزيارة لا يتكرر كثيرا .. وخسارة كبرى أن نسافر آلاف الأميال لنقول كلمتين أو كلمات ثم نعود بعد ذلك إلى القاهرة .

إن العبرة فى مثل هذه المؤتمرات ليست فى اتخاذ قرارات جميلة تنسى بعد انفضاض المؤتمر .. فقد عقدت مؤتمرات كثيرة تجاوزت الحصر ، وصدرت عنها قرارات أكثر لم تر النور، ومأساة العالم الإسلامى أنه يقول . ولا يفعل . إن اليهود حين عقدوا مؤتمرهم الأول ١٨٩٨م ، قرروا قيام دولتهم اللقيطة بعد خمسين سنة ، وقرروا دخول بيت المقدس بعد سبعين سنة . وفى سنة ١٩٤٨م قامت الدولة المغتصبة ، وفى سنة ١٩٦٧م سقطت القدس الحبيبة .

قلت للدكتور الحسينى هاشم فى مناقشة حول القرارات المزمع اعلانها بعد إنتهاء المؤتمر : لقد نسيت أن أحمل معى من القاهرة مجموعة من القرارات التى صدرت فى المؤتمرات السابقة فى مصر والسعودية ، والكويت . والجزائر وليبيا فأى مؤتمر كبير أو صغير، وفى أى مكان يعقد لن تخرج قراراته عن قرارات أى مؤتمر من هذه المؤتمرات السابقة ..؟!

ولقد قلت للسفير أكثر من مرة .. أريد أن أرى الناس . فى الشوارع والأسواق . فى المساجد والمعابد فى الحوانيت والدكاكين.

دعنى أحقق رسالتى الحقيقية بحضورى إلى هنا.

ولم تتح لى فرصة لتحقيق هذا الهدف إلا فى زيارتين خاطفتين لكلية

الزاهرة .. والجامعة النظيمية.

* * *

ذهبنا إلى قاعدة بندرنيكة Bandaranaike Memorial internati cn Ference haii لحضور جلسة افتتاح المؤتمر فى الساعة الرابعة والنصف بعد ظهر يوم الجمعة ٢٣ رجب ١٣٩٨هـ الموافق ٣٠ يونيو ١٩٧٨م . كان وفد مصر هو أكبر الوفود وأهمها تمثيلا وحركة .. وقد دعى ممثلو الأديان جميعا لحضور حفل الافتتاح الذي شهده ممثلو عشرين دولة فى آسيا وافريقيا وأوروبا.

إن الصورة التى لم تغب عنى حتى هذه اللحظة هى موقف الرهبان البوذيين من رئيس الجمهورية . ففى صدر القاعة ومن فوق المنصة الرئيسية جلس ممثلو الديانتين الإسلام والمسيحية على يمين الداخل إلى القاعة ، وعلى اليسار جلس ممثلو الديانة البوذية بثيابهم الصفراء البسيطة ورءوسهم الحليقة اللامعة .. وعندما حضر رئيس الجمهورية وقف الجميع تحية لرئيس الدولة .. أما الرهبان البوذيون فقد بقوا فى أماكنهم بدون أية حركة ، وعندما صعد رئيس الجمهورية الدرج إلى المنصة توقف أمام هؤلاء الرهبان الجالسين وركع أمامهم فى خشوع وتقوى ..!!

وقد بدأ رئيس الجمهورية حديثه عن المساواة والتسامح الدينى في سرى لانكا وأثنى على المسلمين ودورهم البارز في الحركة الوطنية وأشاد بروح الأخوة والعدالة التى تشمل الجميع دون تفرقة ، وتمنى للمسلمين كل نجاح وتوفيق فى هذه الندوة ، وقد اتفقت كلمة الوفود بعد ذلك على اختيار فضيلة الشيخ الشعراوى لالقاء كلمتها فى هذا المؤتمر.

وقد استهل فضيلة الوزير كلمته بشكر رئيس الجمهورية والإشادة بروح التسامح والإخاء بين مختلف الطوائف الدينية ثم عقب بعد ذلك على الموضوع

الرئيسى لهذا المؤتمر وهو حقوق الإنسان ومسئولياته فى الإسلام ، وكيف أن الإسلام أعطى الإنسان حقه فى الحرية والمساواة والعدالة ، وحقه في التملك ، وحقه فى أن يعيش كريما، وحقه فى أن يتدين ، وحقه فى أن يعبر عن فكره ، وأن هذه الحقوق تقابلها مسئوليات يفرضها الخالق عز وجل شأنه ، وهو الذى خلق الإنسان ويعلم أين يوجد الخير له ، وهو أعلم بما يصلح له.

ثم أضاف فضيلته قائلا :

إن خصوم الإسلام وخصوم الأديان يدعون أنها سبب التخلف ولكن ذلك خطأ فالإسلام مثلا نزل منذ أربعة عشر قرنا، وساس الدنيا وسادها ألف عام وظلت دولته فى العالم هى الدولة الأولى .

لقد ثار جدال ونقاش حول إمكانية قيام (هيئة أمم إسلامية) وعن الترابط والتكامل بين هذه الدول فى مجالات الفكر والاقتصاد والتربية.

إن العالم الإسلامى غنى بموارده المختلفة . ولا ينقص شعوبه إلا "رأس المال" المدخر فى بنوك أوروبا لحساب دول إسلامية أخرى.

إن السودان يمكن أن يغطى احتياجات العالم الإسلامى من الحبوب والقمح ولكن المال اللازم لتحقيق ذلك مدفون فى سراديب الأنانية والجهالة حرصا على تنميته بالفوائد المحرمة لا بالوسائل المشروعة ..!

كم كنت أود .. أن نستغنى عن القرارات التى أصدرها المؤتمر بقرار واحد يصدر من دولة واحدة. فالمسلمون فى سرى لانكا فى حاجة إلى المدارس وفى حاجة إلى المستشفيات ، وفى حاجة إلى التنمية الاقتصادية التى بدونها يتحولون إلى خدم وأشباح تائهة فى دروب الحياة القاسية . إن مأساة .. (افغانستان) نذير وعبرة ، وما لم يترابط المسلمون ترابطا حقيقيا ، ويتكاملون

تكاملا اقتصاديا ويتعاونون بمبادئ الإسلام روحا ونصا فلسوف تختفى من (الخريطة الإسلامية) أسماء دول تنتسب إليه إسما .. ويعبث ابليس وجنوده فى أرضهم فسادا وتخريبا.

والمأساة الدامية حقا .. أن من حضروا باسم مسلمى الفيلبين تكلموا أكثر من مرة ، وكانت كلماتهم غصة فى الحلق مرة.

إن "ماركوس" السفاح - كما تحدث المأجورون- هو رمز النهضة ومصدر البركة . وإن جهاد الشهداء فى الجنوب يمثل حركة عصيان وثورة .!

لقد أصيب الحاضرون بوجوم مذهل . وضربت العاطفة الإسلامية فى مقتل .. ولم يكد ينتهى العميل المأجور من كلامه حتى ضجت القاعة بالسخط والاستنكار لموقفه المخجل.

وفى غمرة الذهول والدهشة سألنى أحد الحاضرين عن السبب في هذا الموقف قلت باسما للأخ المستنكر .. انظر إلى بزته الناصعة .. ونظارته اللامعة ، وخاتمه الماسى الذى يتألق بين أصابعه !!

إنها دمى تتحرك بخيوط غير منظورة ، وآلات تتحرك وتتكلم وهى فى شبه غيبوبة ..!



فى فترة الاستراحة بين جلستى الصباح التقيت بالأخ الأستاذ إبراهيم شهاب وزير الزراعة فى جمهورية مالديف .. لقد فاجأنى الوزير أنه من خريجى الأزهر . واستمرت المفاجأة فى حديثه حين أخبرنى بوجود ثلاثة وزراء أيضا من خريجى الأزهر .. وبلغت المفاجأة ذروتها وهو يقول :

أن المرشح الجديد لرئاسة الجمهورية أيضا من خريجى الأزهر.

لقد أنسيت آلامى كلها فى هذه اللحظة .. دولة كاملة يحكمها علماء الأزهر ما أروع هذه المفاجأة .. وما أسعدنى بتلك الأنباء السارة .. لقد رجعت بى الذكرى إلى عام ١٩٥٩م على ما أذكر .. ففى هذا العام تم افتتاح مدينة البعوث الإسلامية كنت قد اشتركت فى كتابة تقرير عن نظام العمل فى هذه المدينة . والطريقة التى يعامل بها الطلبة ، والنظام الذي تسير عليه الأجهزة.

وأذكر مما قلته بهذه المناسبة :

إنه يجب التدقيق فى اختيار كل موظف ، حتى العمال يجب أن تتوافر فيهم صفات خاصة، إن مستقبل العالم الإسلامى يصنع هنا فى هذه المدينة وبقدر ما نحسن التربية والرعاية والمعاملة فإن آثار ذلك كله ستكون بعيدة وخطرة .. ونتائج ذلك لمصر والأزهر محققة وأكيدة .

لقد ضاع كل ذلك فيما مضى .. والأمل فى القائمين بالأمر فى المدينة تدارك ما بقى ..!



فى كلية الزاهرة أو Zahira College كما يسمونها هنا فى كولمبو أقيم حفل تكريمى لأعضاء الوفود المدعوة إلى المؤتمر .. لقد ذهبت إلى هناك ونفسى مفعمة بذكريات الماضى الحزينة لقد تخيلت عرابى باشا واقفا ينتظر قدومنا إلى هذه الساحة ..! لقد مضى حوالى مائة عام على هذه الواقعة .. غير أن التاريخ لا يضيع بمضى المدة .. بل تبقى ذكراه وتتجدد أمام كل حادثة ، ويخرج أبطاله إلى الحياة بأعمالهم الطيبة ، ويغلب عليك الإحساس بالحب فنتخيل شخوصهم حية وباقية ..!

من القاهرة إلى كولمبو جئ بعرابى ورفاقه إلى هذه الجزيرة كانت الخيانة

قد فجرت ، والمحاكمة قد انتهت .. أترى أين كان يجلس عرابى وأين مكان البارودى وعبد العال حلمى .؟

لقد غبت تماما فى أعماق ذكرياتى الدفنية كنت مهتما بالبحث عن عرابى باشا .. أردت أن أساله هنا وقد عز اللقاء بيننا وبينه بحكم الزمن والتاريخ.

يا ابن الأزهر العظيم ...

إننا فى هذا المكان من أجلك .. فلولاك . ما بنيت هذه الكلية وما اجتمع الناس فى هذه القاعة.

وبدأت الكلمات .. ووزعت الحلوى .. ولكن أية كلمات هذه التى تستطيع إيقاظى من ذكريات الحزن. لقد وقف "البارودي باشا" يخاطبنى بحديث "الغربة" المر.

كفى بمقامى فى "سرنديب" غربة	نزعت بها عنى ثياب العلائق
ومن رام نيل العز فليصطبر على	لقاء المنايا واقتحام المضايق
يقول أناس إننى ثرت خالعا	وتلك هنات لم تكن من خلائقى
ولكننى ناديت بالعدل طالبا	رضا الله واستهضت أهل الحقائق
أمرت بمعروف وأنكرت منكرا	وذلك حكم فى رقاب الخلائق
فان كان عصيانا قيامى فاننى	أردت بعصيانى إطاعة خالقى
وكيف يكون المرء حرا مهذبا	ويرضى بما يرضى به كل فاسق
فان نافق الأقوام فى الدين غدرة	فإنى بحمد الله غير منافق

* * *

لقد انتهى الحفل وانتهت الكلمات وبقيت نفسى غائبة فى أعماق هذه الذكريات ، وبحركة لا شعورية وجدتنى أنشد مع المنشدين :

صلى الله على محمد   صلى الله عليه وسلم

* * *

ركبنا السيارة لزيارة الجامعة التنظيمية فى مدينة "بير ويلا" على بعد سبعة وثلاثين ميلا من العاصمة كولمبو.

ما أجملك أيها الشرق ... لقد كان "جوته" على حق في عشقه لهذه الحياة الغنية بالجمال والفتنة . هذه الطيور المغردة فوق أشجار- النارجيل .. وخرير المياه المتدفقة من المحيط إلى الأرخبيل .. الناس الودعاء الطيبون يقفون بأسمالهم البالية يحيون قافلة المسافرين.

ما هذا الذى يتراءى هناك مبرقشا منمنما وكأنه يصل الربى بالسماء .. وما تلك الأهازيج القادمة من بعيد تخفق بها الأجواء ألا أيتها الرياح السواقى أغيثينى بغيثك ..

ولا بأس بالرعود كلها ترعد ، وبالسماء تتجاوب أقطارها بالبرق، فسرعان ما تنبعث الحياة .. وتشع روح خفية السر مباركة الأثر فإذا كل شىء ، فى كل ناحية ينتعش ويترعرع . وإذا كل شيء يخضر وينضر . إن الحياة هنا تولد في كل لحظة والجمال والفتنة يفيضان فى كل صورة.

وصلنا إلى "بيرويلا" لنجد فى انتظارنا حشدا من المسلمين سكان المدينة وفى الطريق إلى الجامعة وقف الطلاب صفوفا متراصة بملابس بيضاء ناصعة وبإشارة خاطفة استدار هؤلاء الطلاب فى حركة سريعة وبدأوا - يمشون بخطوات منتظمة وانطلقوا جميعا يرددون هذه الأنشودة ..

اللـــه أكـــبر .. اللـــــه أكـــبر   نحـــــن طـالبـــــو ســـــيلان

نحـــــن مسلمـــــو ســـــيلان   كتابنا القرآن ... وديننا الإســلام

حمــدا لربــنا ... شكـــرا لربـــنا

اللــــــــــهربــــــــنــــــا

واغرورقت عيون أكثرنا بالدموع فى هذا البلد الأعجمى ووسط هذه الغابات العذرية الكثيفة .. وعلى بعد آلاف الأميال من مكة أو القاهرة ينشد هؤلاء الطلاب بلغة عربية فصيحة ، وعاطفة دينية عميقة وبروح صافية شفافة .

ما أجحدنا نحن العرب .. ..!

ولكن مصر المعطاء لم تبخل على هؤلاء الأخوة . فقد اتخذ فضيلة الوزير قراره واتفق مع الدكتور الحسينى هاشم على ما يجب عمله.

* * *

رجعنا إلى كولومبو استعدادا لرحلة العودة ... ولكن عودتنا إليها تختلف عن قدومنا إليها أول مرة.

احساس لا يمكن تفسيره باللفظ والكلمة ... شىء غامض يجذبنا إلى تلك الأماكن التى شهدناها فى هذه الرحلة .. إلى الناس الذين عرفناهم فى هذه المدينة .. إلى الذكريات التاريخية التى تجسدت أمامنا فى كل حركة وصورة.

لقد آن الأوان ياجزيرة الشاى والنرجيل .. أن نبحر من شواطئك إلى أرض الوطن .. ونغادر آفاقك المعطرة إلى مصر.. فاحفظى عهدك الجميل مع كل مسلم تظله سماؤك الصافية.

وكونى كما تركناك واحة للإخاء والمساواة والحرية.

الصفحات من ٢٣٧ : ٢٤١
لم يتم نشرها بناء على طلب
الناشر











فـى

ماليزيا .. و .. أندونسيا

أو

بلاد شركة الأولياء التسعة !

ماليزيا ... وأندونسيا..

بلدان .. لم يكونا معروفين بهذا الاسم من قبل..

ماليزيا كانت تعرف باسم بلاد الملايو أو ملايا..

أما أندونسيا .. فكان يطلق عليها إسم "جزر الهند الشرقية".

وأندونسيا كانت مستعمرة هولندية .. بالرغم من أن مساحة (أندونسيا) تعادل مساحة هولندا سبعين مرة..!

كذلك كانت الملايا أو ماليزيا مستعمرة لبريطانيا. ولم تعرف ماليزيا ولا اندونسيا بهذا الإسم إلا بعد استقلال كل منهما عن هولندا .. وعن بريطانيا.



فى عام ألف وثلثمائة وستين بعد الهجرة.. دلفت -ولأول مرة- إلى ساحة الجامع الأزهر الشريف بعد تسجيل اسمى كطالب فى معهد القاهرة وتذكرت حين تجوالى بين أروقته دعوة أمّى التى طالما تمنت لولدها أن يكون من علماء هذه الجامعة المباركة. وأن يمسك عمودا من تلك الأعمدة التى ترمز إلى مقام صاحبه الكبير فى العلم والفتوى..!

لقد صحبنى والدى فى هذه الزيارة، وقدمنى فخورا إلى أحد شيوخه الذين تربطه بهم صلة.. ومازلت أذكر حتى هذا اليوم صورة الشيخ "أبو القاسم إبراهيم". فقد كان من علماء الأزهر المنتسبين إلى الجمعية الشرعية، وكانت بينه وبين خالى الشيخ "سيد" زمالة فى هذه الجمعية، وتعاون صادق فى الدعوة إلى العمل بالكتاب والسنة المحمدية..!

ماذا أرى فى هذه الساحة؟ خليط من الأساتذة والطلبة.. ومزيج من

الأجناس والشعوب المختلفة. ما أروعك أيها الأزهر العظيم.. لقد جمعت فى ساحتك كل الدنيا .. وزويت لك الأرض حتى صارت تحت مآذنك العليا.

وتقدم إلى طالب من أصحاب هذه الوجوه الغريبة. ثم طلب منى رعاية كتبه ريثما يعود من دورة المياه القريبة.

كان هذا الطالب من "الملايو" فقد قرأت اسمه على صفحة كتاب من تلك الكتب.. وعرفت بلده من الغلاف الموشى بماء الذهب.. ومنذ ذلك اليوم .. وهذه الكلمة لم تغب عنى.. الملايو.. وأين تكون ؟.. وفى أى القارات تقع؟.. وماذا يركب المسافر إليها من وسائل النقل؟.. الغليون..؟ ولكن ماهو الغليون؟.. إننى لا أعرف عن هذه الكلمة أكثر مما كانت تحدثنى به جدتى في ليالى السمر.. أم "الرفاص" الباخرة النيلية الصغيرة التى كانت وسيلتنا المحببة فى السفر.. أم الجمال – هكذا كنا نسمع من الحجاج الذين يسافرون إلى أرض الحرم.. لم يكن ركوب الطائرة قد شاع كما هو الحال فى أيامنا هذه .. بل كنا نحسب من يركب الطائرة كافرا يستحق اللعنة.. وعدوا من أعداء الشريعة والملة..!

وفى حى (الجودرية).. كانت إقامتنا بمنزل من تلك المنازل التى تعود سكناها "المجاورون" أى الطلبة.. لم يكن يشاركنا فى هذا البيت غير صاحبته العجوز:"أم أحمد".. وذات يوم سمعنا دبيبا وحركة فى الشقة المجاورة.. وجاءت العجوز لتخبرنا عن الساكن الجديد وتقول: إنه من (جاوة).. جاوة!.. وما "جاوة" هذه أيضا؟!.. إن كل ما نعرفه عن هذا البلد أنها تشتهر بنوع من البخور يسمى "الجاوى".. وحتى هذه التسمية هل هى نسبة إلى "جاوة" أم هى شىء من اختراع الدجالين والسحرة..؟ ولم تمض غير أيام قليلة حتى توثقت بيننا وبين هذا الأخ العلاقة، وتكرر الحديث عن بلاده فى كل زيارة.. وعلمت منه لأول مرة– أن الشرق الذى ننتسب إليه ينقسم فى كتب الجغرافيا إلى قسمين: شرق أوسط تقع فيه مصرنا العزيزة.. وشرق أقصى تقع فيه الملايو، وجاوه ، وسومطرا .

لقد مضى أكثر من ستين عاما على هذه القصة.. ألا ما أسرع مرور الأيام فى هذه الزمن .. هل نقص النهار والليل ؟ أم مُحِقَت البركة فى كل شئ ؟ أم مات فى الناس الشعور والوعى ؟ ولكنها سنة الحياة .. بل هى طبيعة البشر حين تختل فى القلوب موازين الخير فينقلب كل شىء إلى النقيض والعكس . وينعكس أثر ذلك على القلب والنفس ، وكم أشعر بهذه الحسرة حين أرجع بصرى فى رحاب الأزهر. الأزهر الجامع والأزهر الجامعة ، والأزهر التراث ، والأزهر أمل المسلمين فى كل بقعة من بقاع الأرض ..!

وها نحن الآن فى طريقنا إلى أندونسيا. وماليزيا.. فاللغة الملايوية هى القاسم المشترك بين جميع شعوب هذه المنطقة . بل كانت الفلبين قبل أن يطلق عليها هذا الإسم الذى أطلقه الأسبان تعرف باسم عذراء ماليزيا.!

وهناك روايتان عن كيفية وصول الإسلام إلى هذه المنطقة.

رواية أوروبية تقول : إن الإسلام انتشر فى هذه المنطقة فى القرن السابع الهجرى.

أما الرواية الثانية وهى الرواية الإسلامية فتقول : إن الإسلام وصل إلى هذه المنطقة فى فجر الدعوة الإسلامية وهذه الرواية الإسلامية هى الأقرب إلى الصحة والعقل للأسباب الآتية:

أولا: أن الإسلام وصل إلى الصين فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان "رضى الله عنه". ولما كان الوصول إلي الصين يتم عن طريق اندونسيا وماليزيا. فمن البديهى أن يكون أهل هذه البلاد قد عرفوا الإسلام قبل أن يعرفه أهل الصين.

ثانيا: أن علاقات أهل هذه البلاد بالعرب قبل الإسلام -كانت قائمة بسبب التجارة وتبادل الزيارات وبخاصة بين عرب حضرموت فمن البديهى

والمنطقى أن العرب -بعد الإسلام- قد حملوا الإسلام إلى هذه البلاد.

ثالثا: عثر على وثائق صينية تثبت انتشار الإسلام فى هذه البلاد فى الوقت الذى انتشر فيه الإسلام فى بلاد الصين.

رابعا: تقول الوثائق الأندونسية : أن أسطولا إسلاميا وصل إلى مملكة "سرى بجايا" سنة ٩٧هـ وأن أول ملك أسلم هو ملك مملكة"سرى بجايا".

وهناك رواية عجيبة عن كيفية انتشار الإسلام فى هذه المنطقة ذكرها (توماس ارنولد) فى كتابه (الدعوة إلى الإسلام)[1].

تقول هذه الرواية:

قدم عالم عربى يدعى الشيخ عبد الله ، إلى قويدة، وزار الراجه، وسأل عن ديانة البلاد. فأجابه الراجه:

"دينى ودين رعيتى كلها، هو الذى وصل إلينا من الشعب القديم، اننا جميعا نعبد الأصنام".

فقال الشيخ :"إذن أما سمعتم جلالتكم قط شيئا عن الإسلام، والقرآن الذى أنزله الله على محمد، ونسخ به كل الديانات الأخرى، وتركها فى حوزة الشيطان".

فقال الراجه: "إذن أرجو منك ، إن كان حقا ما تقول ، أن تعلمنا هذا الدين الجديد، وتهدينا بنوره".

وتهلل الشيخ عبد الله تهلل الحماسة المقدسة لسؤال الراجه إياه هذا السؤال ، واحتضن الشيخ الراجه، ثم فقهه فى الدين.

---

(١) الدعوة إلى الإسلام -ص٤١٢.

ولما اقتنع الراجه بتعاليم الشيخ ، أرسل فى طلب آنية الأرواح (التى طالما عكف عليها) وأفرغ ما فيها على الأرض بيديه، بعد ذلك أمر أن تحضر كل الأصنام التى فى قصره، فجمعت بين يديه أكوام من أصنام الذهب والفضة والطين والخشب، وكسرها الشيخ عبد الله قطعا بسيفه وبفأسه، وأحرقت الأجزاء فى النار.

وطلب الشيخ إلى الراجه أن يجمع كل نساء القلعة والقصر. فلما قدمن جميعا فى حضرة الراجه والشيخ. تعلمن عقائد الإسلام. وكان الشيخ مهذبا لطيف المعشر. كما كان جذابا رقيقا فى لغته، حتى أنه جذب إليه قلوب ساكنى القصر.

ولم يلبث الراجه أن أرسل فى طلب وزرائه الأربعة المسنين. ولما دخلوا البهو، استولى عليهم الدهش حين رأوا شيخا يجلس إلى جوار الراجه. فأبان لهم الراجه المهمة التى جاء من أجلها هذا الشيخ. وعندئذ أظهر الزعماء الأربعة استعدادهم للاقتداء بجلالته، وقالوا:

"إننا نأمل أن يعلمنا الشيخ عبد الله كذلك".

ولما سمع هذا الأخير هذه الكلمات ، احتضنهم، وقال لهم :

إنه يأمل. لكى يبرهنوا على إخلاصهم أن يستدعوا شعبهم بأسره إلى بهو الاستقبال ، ويحضروا معهم كل الأصنام التى تعودوا أن يعبدوها، والأصنام التى انتهت إليهم عن طريق آبائهم الأولين.

وأجيب الشيخ إلى طلبه، وأحضرت فى الوقت المحدد كل الأصنام التى كان الشعب يحتفظ بها. وهناك حطمت وحرقت وأصبحت رمادا تذروه الرياح. ولم يأسف واحد منهم علي ما أصاب آلهتهم الزائفة من الخراب والدمار، وكانوا جميعا فرحين مستبشرين بدخولهم حظيرة الإسلام.

ثم سأل الشيخ عبد الله الوزراء الأربعة: ما اسم أميركم؟

قالوا: " اسمه : برا أونج مها وانجسا".

قال الشيخ: "فدعونا نستبدل باسمه اسما بلغة الإسلام".

وبعد تبادل الرأى، طلب الراجه نفسه أن يحول اسمه إلى (السلطان مزلف الشاه)، لأن الشيخ قد أكد أنه اسم مشهور وأنه ورد فى القرآن(١).

وقد بنى الراجه المساجد فى البقاع الآهلة بالسكان ، وأمر بأن يلحق بكل مسجد أربعة وأربعون شخصا على الأقل من السكان ، على أن يكونوا جماعة تقيم فى المسجد وتعكف على العبادة، ومن ثم بنيت المساجد وألحقت بها طبول كبيرة تدق لدعوة الناس إلى صلاة الجماعة.

وظل الشيخ عبد الله، وقتا ما، يفقه الناس فى الدين، وانثالوا عليه من جميع سواحل قويدة ومقاطعاتها وما جاورها، وتعلموا على يديه صيغ الإسلام وشعائره.

وقد وصلت أخبار تحول سكان قويدة إلى الإسلام على يد الشيخ عبد الله إلى "أتجيه" ، فأرسل إليهم سلطان هذه البلاد، ورجل يدعى الشيخ نور الدين وهو داع عربى ، كان قد قدم من مكة، بعض كتب ورسالة.

وهذا نص الرسالة:

(هذه الرسالة من سلطان أتجيه ونور الدين إلى أخينا سلطان قويدة والشيخ عبد الله اليمنى الذى يقيم الآن فى قويدة أرسلنا إليكم كتابين من كتب الدين، حتى تتأكد دعائم العقيدة الإسلامية، ويتعلم الناس واجباتهم وشعائر

(١) مزلف لم ترد فى القرآن بهذه الصيغة، وربما كانت الإشارة إلى قوله تعالى:[وأزلفت الجنة للمتقين) سورة الشعراء: آية ٩٠.

دينهم تعلما كاملا.

وأرسل الراجه والشيخ عبد الله رسالة يردان فيها على هذه الرسالة ويشكرانهما على ما أنعما به عليهما. ومن ثم ضاعف الشيخ عبد الله جهوده وبنى زوايا فى كل القرى على اختلافها بالإضافة إلى مافيها من المساجد، ليكون الانتفاع عاما، وعلم الناس كل أحكام الدين وشعائره. وكان الراجه وزوجته ملازمين للشيخ، يتعلمان قراءة القرآن، وبحث هذان الزوجان عن امرأة من نسل الراجات لتكون زوجة للشيخ.

ولكن لم يرغب أحد فى أن يهب ابنته زوجة للشيخ، لأن هذا الرجل المقدس كان يوشك أن يعود إلى بغداد. وأنه كان لا ينظر إلا أن يفرغ من تعليم شخص تعليما كافيا يقوم مقامه بعد مغادرته البلاد. وكان للسلطان فى ذلك الحين ثلاثة أولاد : راجه معظم شاه، وراجه محمد شاه، وراجه سليمان شاه، أسدى هذا الشيخ النصح إليهم بأن يصطنعوا الصبر والأناة وألا يسرع إليهم الغضب فى معاشرتهم عبيدهم والطبقات الدنيا. وأن ينظروا بعين الشفقة والعطف إلى عباد الله أجمعين، وإلى الفقراء والمعوزين.

* * *

وقد وصل الإسلام إلى جزيرة (سومطرة) فى القرن الثالث عشر الميلادى. فعندما زار الرحالة الايطالى "ماركوبولو" المنطقة عام ١٢٩٢م وجد التجار المسلمين فى ميناء "برلاك" على الساحل الشمالى للجزيرة ذات الصلة الوثيقة بالملايو.

وتقول إحدى الروايات: أن (مالاقا) الواقعة على الطرف الغربى من بلاد الملايو قد دخلت فى الإسلام قبل هذه الفترة. فتروى أن سفينة عربية قادمة من (جدة)، يقودها سيدى عبد العزيز، قد رست فى ميناء "مالاقا" عام ١٢٧٦م،

واستطاع ركابها أن يحولوا ملك مالاقا إلى الإسلام، وأطلقوا عليه اسم السلطان محمد شاه، وتبعه شعبه فى اعتناق الدين الجديد. وبذا قامت أول مملكة إسلامية تعمل على نشر الإسلام فيما جاورها من البلاد. وفى غضون نصف قرن أصبحت "مالاقا" مركزا يشع منه الإسلام على المناطق المجاورة. فأسلمت باهانغ وجنوب الملايو.

وتذكر بعض الروايات أنه فى القرن الثالث عشر الميلادى قامت مملكة "تيماسك" فى (سنغافورة)، وفى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى قامت فى (جاوة) إمبراطورية (ماجيا هيت) الهندية القوية التى استطاعت القضاء على مملكة (تيماسيك) .. وكان الإسلام قد وطد دعائمه فى أجزاء من شبه جزيرة الملايو. وقد استطاع ملك تيماسيك، أن يغادر سنغافورة مركز حكمه السابق، وأن ينتقل إلى مالاقا مع ١٥٠٠شخص من أفراد العائلة المالكة، وأن يؤسس حكومة، وقد اعتنق الإسلام بتأثير من اعتنقه من سكان المنطقة، وأطلق على نفسه اسم (اسكندر شاه) وكان ذلك فى بداية القرن الخامس عشر الميلادى حوالى عام ١٤١٤م.

ويقال أن الإسلام قد انتقل من "باساى" فى شمال "سومطرة" إلى "مالاقا" بعد أن أسلم حاكمها ليتزوج أميرة مسلمة من "باساى" وذلك لأن المسلمة لا يصح أن تتزوج غير مسلم. وكان ذلك حوالى عام ١٤٠٠م. ثم اعتنق شعب (مالاقا) الإسلام بعد إسلام حاكمه.

وقد كان ميناء "سرى فيجايا" فى شبه جزيرة الملايو أكثر مرفأ تصل إليه السفن الإسلامية.. وخاصة بعد القرن العاشر الميلادى عندما أغلق ميناء "كانتون" الصينى فى وجه التجار الأجانب نتيجة لاضطرابات مملكة "تانك" الصينية وفى ذلك الوقت أصبحت "سرى فيجايا" أبعد نقطة تصل إليها السفن الإسلامية آنذاك. ورغم ما حدث فى العالم الإسلامى من أحداث جسيمة مثل

تدمير بغداد على يد "هولاكو" عام ١٢٥٨م. وسقوط الخلافة الإسلامية إلا أن المسلمين قد بقوا سادة التجارة فى المحيط الهندى.

ومن المحتمل أن يكون تجار جنوب الهند هم الذين كان لهم الأثر الواضح فى إسلام الملايو.. إذ أن المسلمين هناك يؤدون عبادتهم على المذهب الشافعى وهو المذهب المنتشر فى جنوب الهند، بينما أثر التجار "الكوجراتيين" فى الهند كان أقل. حيث يتعبدون على مذهب الإمام أبى حنيفة الذى لم ينتشر فى الملايو، كما أن الصوفية قد انتشرت هناك عن طريق جنوب الهند وليس من شبه جزيرة العرب. وقد يكون تجار غرب الهند وجنوبها قد لعبوا دورهم معا فى الدعوة، وهذا لاينفى أثر الدعاة العرب الذى ما انفكوا يفدون إلى البلاد بعد أن توقفت الفتوحات الكبرى، وانصرف المسلمون إثر ذلك إلى نشر الدعوة عن طريق التجارة والتنقل لهذه الغاية.

* * *

لقد كان التجار والدعاة طليعة المجاهدين فى نشر الإسلام فى بلاد الشرق الأقصى. ويقول المؤرخون لحركة انتشار الإسلام فى هذه المنطقة أن هؤلاء الدعاة والتجار كانوا يعتمدون فى نشر الدعوة الإسلامية على وسائل ثلاث :

أولا: تعلم لغة الشعوب الشائعة ولهجاتها المختلفة.

ثانيا: الزواج من بنات هذه الشعوب وإقامة علاقات أسرية وثيقة.

ثالثا: شراء العبيد والأرقاء ثم اعتاقهم بعد تعليمهم عقائد الإسلام وشعائره.

لقد كان هؤلاء التجار والدعاة أبعد نظرا وأكثر مرونة من دعاة هذا العصر..! ذلك لأن تعلم اللغة يعنى الوصول إلى العقول والقلوب فى أقرب فرصة.

كما أن التزوج أو المصاهرة. يربطان بين هؤلاء الدعاة وشعوب هذه المنطقة برباط قوى من الإخاء والمحبة. كما أن شراء العبيد ثم اعتاقهم يعنى التضحية التى لا تنتظر ثوابا دنيويا من أحد. كما يعنى الربط بين الإسلام والحرية فى صورة عملية غير مسبوقة فى تاريخ البشرية التى لم تعرف مثل هؤلاء الدعاة فى أى دين من قبل.

لقد سمى (جبل الأولياء) فى السودان بهذا الاسم. حيث قدم من جنوب الجزيرة العربية مجموعة من الدعاة الذين عاشوا وماتوا متجردين من حب الجاه أو الشهرة، أو التنافس على مكاسب دنيوية أو الطمع في منصب أو وظيفة كان همهم الأول الدعوة إلى الله وفى سبيل هذه الدعوة هاجروا من أوطانهم ليموتوا غرباء فى أرض الله الواسعة.

إن الذين تركوا بصماتهم فى تاريخ انتشار الإسلام فى اندونيسيا وماليزيا كانوا مجموعة من هؤلاء الدعاة، وكان عـدد هؤلاء الدعاة تسعة وبسـبب مـا رآه الناس من تصرف هؤلاء الدعـاة. وتجردهم لله. واخلاصـهم وتفانيـهم فى الدعوة إلى الله أطلقوا عليهم اسم "شـركة الأولياء التسـعة" أو (والى سونجو (WALY SONGO) كما تقول اللغة الملايوية ..!!!



فى "الفلبين" يطلق على المسلمين كلمة(مورو) وهى كلمة استخدمها الأسبان ضد المسلمين فى مرحلة الطرد الجماعية التى أعقبت خروج المسلمين من بلاد الأندلس. ونقلها الأسبان معهم فى أى مكان ذهبوا إليه فى أقصى الشرق وهذه الكلمة "مورو" تذكرنا أيضا بما اصطلح عليه الأوروبيون فى عصر الخلافة العثمانية حيث كانوا يطلقون كلمة (تركى) على أى مسلم.

إن عدد المسلمين فى "الفليبين" أكثر من ثمانية ملايين يمثلون الأغلبية الساحقة فى جزر(سيبوتو) ، و(تاوى تاوى) ، (منيداناو) و(بالا وان) ، و(تابول) ، و(صولو) كما أن معظم ثروات الفليبين توجد فى المناطق الإسلامية كما أن عدد المسلمين فى الفليبين واندونيسيا وماليزيا تجاوز المائتى مليون نسمة.

وكما يقول (بيرينج) المبشر الأمريكى :

" لم تثبت حالة واحدة، لإرغام أحد على اعتناق الإسلام. والزعم بأن الإكراه أو القهر كان وسيلة للإيمان. يقال عن أى دين غير دين الإسلام".

عندما وصل الأسبان إلى جزر الفليبين وجدوا هناك ممالك إسلامية راسخة. كانت الحملة الأسبانية بقيادة (ماجلان) ، فغامر بالدخول فى حرب ضد الولايات الإسلامية. فدارت رحى معركة رهيبة سقط فيها (ماجلان) صريعا على أيدى المجاهدين المسلمين الذين سارعوا إلى خوض معركة مقدسة دفاعا عن الحرية والعقيدة.

وحين يئس الأسبان من الانتصار طالبوا بجثة (ماجلان) لأخذها معهم فى طريق العودة، ولكن هذه الجثة كانت تلاشت فى أفواه الكلاب والوحوش الجائعة..!!!

إن (مانيلا) اسمها فى الأصل (أمان الله).. كما أن (كيرالا) في جنوب الهند اسمها الأصلى (خير الله).

* * *

إن عدد الجزر التى تتكون منها اندونيسيا حوالى ١٣٦٦٠ ثلاثة عشر ألف وستمائة وست وستين جزيرة.

كما أن تاريخ الإسلام فى هذه المنطقة ملئ بالمثل والنماذج الطيبة كما امتزج الإسلام فى هذه الأقطار ببعض العادات والتقاليد القديمة فأمام لوحة محفورة على أحد جدران قصر السلطان "خليفة الله عبد الرحمن هامنجومونو" وقفنا نستمع إلى الدليل وهو يحكى قصة اللوحة ويقول(١) :

نحن مسلمون .. ولكن فى أعماقنا ظلال من الهندوكية التى كان يؤمن بها أجدادنا .. وهم يحكون أن "يوديستا" كان ملكا طاغية من "البانداوا" وكان يطل شامخا فى زهو من فوق عرشه، وكأنه يقول لنفسه :"أنا أقوى من السماء وأعظم من الأرض.. أنا أعلى من جميع الكائنات .. أنا الكل فى الكل.. أفعل ما أريد .. وأصنع كل ما يخطر لى .. لأنى حقيقة الحقيقة .. أنا يوديستا".

واقترب منه رجل صالح، ينصحه أن يخفف من غلوائه ويهديه إلى الطريق السوى. ولكن الطاغية دفعه فى خشونة وزراية. وضرب رأسه بقوة وهو يهتف فى سخرية:

– اغرب عن وجهى .. أسرع .. امض فى طريقك عليك اللعنة .. والتفت إليه الرجل المقدس وهو مسطوح على الأرض ينزف دما، وقال فى صوت هادىء:

الحق أقول لك.. سأذهب سريعا أما أنت فستبقى .. ولسوف تهيم على وجهك فى الأرض حتى يغفر لك الرب الذى فى السماء .. وحتى تدرك أن هناك من هو أكبر منك وأعظم.. وأن قدرك مكتوب فوق رأسك الذى تشمخ به على العالمين..!

ومنذ تلك اللحظة، انصبت اللعنة على يوديستا، فقد أسلم الرجل الروح

---

(١) د. محمد المنسى قنديل، مجلة العربى.

وارتفع سريعا.. أما هو فقد بقى طويلا.. طويلا جدا.. لمئات كثيرة من السنين.. يتمنى أن يموت ولا يستطيع!!!.

والتقى آخر الأمر برجل نزل بالبلاد قادما من الأرض المقدسة، هو أول الدعاة المسلمين، وأحد أولياء الله التسعة المشهورين، اقترب منه متوسلا:

أيها الرجل الصالح.. أريد أن أموت.. وقد بلغت من الكبر عتيا ولكن مقدر على ألا أموت حتى أتمكن من قراءة ما هو مكتوب فوق رأسي.. فهلا استطعت أن ترسلني إلى الموت؟

وأحنى الولى الصالح رأس يوديستا وقرأ ما هو مكتوب ثم قال يخاطبه:

سأقرأ وعليك أن تردد خلفى. الله أكبر.. الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدا رسول الله..

وعندما قالها "يوديستا" من أعماق قلبه.. انتهت عذاباته.. واستطاع أن يموت.!

وكما يقول الرحالة الايطالى (ماركو بولو) أن للإسلام فى هذه المنطقة سحرا لا تشعر بمثله فى أى مكان آخر من الدنيا..!

وقد زرت هذه البلاد كلها أكثر من مرة.. وكانت آخر هذه الزيارات إلى (بروناى)،وماليزيا،والفليبين،واستراليا.

* * *

فى (ماليزيا) لاتشعر بالغربة .. وبخاصة فى الولايات البعيدة عن العاصمة (كوالا لمبور). فالعاصمة (كوالا لمبور)، كأى عاصمة فى العالم. يتصارع فيها المال والسياسة.! وتتصارع فيها المصالح تصارع الديكة المتوحشة. ولكن أخرج إلى ولاية (كلينتان) Kel antan على سبيل المثال وإلى عاصمتها

"كوتابارو"Koota bahro بالذات .. هناك ستجد نفسك فجأة فى مدينة القاهرة. فالقرآن الكريم تتردد تلاوته فى كل مكان.. بل أحيانا تسمع أغنيات أم كلثوم أو عبد الوهاب.! فاللغة العربية منتشرة هناك كما أن هناك ثلاث كليات لتعليم أصول الدين والشريعة واللغة.. وقد سافرت إلى "كلينتان" قبل خمس عشرة سنة للاحتفال بذكرى مرور عشر سنوات لافتتاح هذه الكليات.

لم أشعر أننى فى أقصى الشرق..! وجدت نفسى فجأة فى حى الأزهر والحسين. كل ما حولك ومن حولك ينقلك عبر "الخاطر" إلى القاهرة المحروسة.. ويؤكد لك أنك لم تغادر.! حى السيدة زينب أو حى الجمالية.!

كنا ننزل ضيوفا على حكومة الولاية .. لم تكن هناك فنادق فخمة.. بل توجد "شاليهات" صغيرة تقع داخل غابة كثيفة تمتد عدة أميال داخل بحر الصين الجنوبى. اسمها شاطئ الغرام..!

ولأننى من عشاق التاريخ والجغرافيا فقد خطر ببالى أن هذه المنطقة كانت أصلح مكان لنزول القوات اليابانية فى الحرب العالمية الثانية.

قلت للوزير: (داتو محمد عسرى) - رحمه الله..

اعتقد أن هذا المكان شهد معارك طاحنة بين اليابانيين والانجليز..!

فقال الوزير : لقد دارت معركة طاحنة فعلا فى هذا المكان قتل فيها الألوف.!

- ياخبر اسود! قلت هذا محدثا نفسى.! إذن فألوف العفاريت ستطاردنا نهارا وليلا.. ولن تجد نفسى إلى الراحة سبيلا.!

قلت هذا باحساس طفل القرية الذى كان يسمع أقاصيص العجائز عن عفاريت القتلى.! وعن "الجنيات" اللاتى يخرجن من نهر النيل إلى الشاطئ ليلا.!

لم أنم نوما مريحا طوال ثلاث ليال قضيناها فى شاطئ الغرام.! أو شاطئ العفاريت الانجليزية واليابانية التى تنتشر فى كل مكان.!!!

وكيف أنام بعد أن تجمعت كل عفاريت الدنيا فى مخيلتى.!

أن الجهل.. أحيانا .. قد يكون نعمة.. ففى الوقت الذى كان فيه "شخير" بقية الوفود يمتزج بصخب أمواج بحر الصين.. كنت الوحيد الذى ينتظر دخول عشرة من عفاريت الانجليز. واليابان.!

ألم يقل الشاعر العربى قديما:

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله.

وأخو الجهالة بالشقاوة ينعم..!!!

سألت الوزير مرة ثانية:

لكنى لماذا سمى هذا المكان بشاطئ الغرام.!

فقال: رحمه الله:

فى ربيع كل عام تتحرك ألوف السلاحف البحرية الضخمة من شاطئ استراليا على بعد حوالى ألفى ميل.. تتحرك إلى هذا المكان لاقامة حفلات الزواج.. زواج السلاحف لا زواج المشايخ..!!

وبعد أن تضع السلاحف بيضها فى هذه المنطقة تعود مرة ثانية إلى الشواطئ الاسترالية.. ثم يتكرر هذا الزواج والرحيل بين السواحل الماليزية والاسترالية فى فصل الربيع من كل سنة..!!!

* * *

فى قريتنا.. كانت هناك بئر مهجورة يقول عنها الفلاحون أن إحدى

الجنيات تسكنها.. ولا يقترب أحد من البئر حتى تجذبه هذه الجنية إليها.

كنا نخاف ونجرى عند مرورنا قريبا من هذه البئر.. ومنذ سنوات ذهبت إلى القرية فى مناسبة طارئة.. وحين مرورى قريبا من "بئر الجنية" أردت أن أسأل عنها واطمئن عليها ..!!

فإذا بى أفاجأ.. أن (البنى آدم) قد استولوا على البئر وأن (الجنية) هربت من (بنى آدم) الذي فاق الشياطين وفاق الجن..!!!

هذه الصورة الوضيئة لأهل الملايو وتدينهم العميق- يلمسها كل مسلم يلتقى بهؤلاء الأخوة.

فى (لندن) وفى حى "بادنجتون" Poddington تعرفت على بعض هؤلاء الأخوة من الدارسين فى بريطانيا.

وفى المسجد الحرام كان يلفت نظرى الكثير من الحاجات القارئات في المصحف وهن يرتلن آياته البينات فى خشوع وتقوى ولن أنسى الحاجة "فريدة" القارئة الشهيرة فى عموم ماليزيا وهى ترتل القرآن فى الحفل التذكارى الذى أقامه مركز الدراسات الإسلامية العالية فى "فيلم بورى".. وفى كل عام تقام مسابقة دولية لأحسن القارئين والحافظين لكتاب الله فى العاصمة (كوالا لمبور) ويتم الاحتفال بهذه المسابقة فى شهر رمضان.. وبرعاية الملك والملكة.

إن فى ماليزيا أحسن القراء لكتاب الله بعد مصر وأحسن هؤلاء القراء من الملاويين موجودون فى (كوتابارو) Kota Bharu عاصمة ولاية (كلنتن) Kelantan ..



لقد قرأت الكثير عن الملايو واندونيسيا .. ففى كلية أصول الدين عام ١٩٥٠م تعرفت على الأخ (محمد محيى الدين موسى) زميل الدراسة فى هذه الكلية .. رأيته ذات يوم يحمل كتابا اسمه"مرديكا".. أى "الحرية". كان موضوع هذا الكتاب عن حركة التحرير فى اندونيسيا.. وعن جهاد المسلمين فى سبيل الاستقلال والحرية واعتقدت من ذلك اليوم أن الأخ محمد محيى الدين اندونيسى.

استعرت منه الكتاب الذى ألهب مشاعرى الإسلامية تجاه اخواننا فى هذه المنطقة النائية بالشرق الأقصى ومنذ ذلك الحين وخيالى يحلق ويطوف حول هذه الآفاق الغالية من الوطن الإسلامى.

اندونيسيا وماليزيا- لقد تبين لى أن هذه التفرقة في الاسم خرافة. فاندونيسيا هى ماليزيا إيمانا وعاطفة- وكلانتون وسومطرا شقيقتان فى الروح والعقيدة. والشعبان على جانبى الأرخبيل اسمان لحقيقة واحدة هى الإسلام والأخوة.

فى مطار "كوالا لمبور" Kuala Lampur وصلنا متأخرين عن موعدنا إحدى عشرة ساعة كنا متجهين إلى "كوتابارو" للاشتراك فى الاحتفال بالذكرى العاشرة لتأسيس مركز الدراسات الإسلامية العالية فى "فيلم بورى Milam Puri" لم نجد فى انتظارنا أحدا .. لقد يئس المستقبلون من وصولنا بعد هذا التأخير جلست على مقعد من شدة الإرهاق .. ليلتان بدون نوم فأقبل على رجل يسلم بحرارة ويحتضننى بقوة ثم يهتف وقد تملكته الدهشة : عبدالودود .. محمد محيى.. لقد كان هذا الرجل هو أخى فى الكلية إنه الطالب الذى استعرت منه كتاب "الحرية" لم يكن اندونيسيا بل كان ماليزيا .. ولم يكن هذه المرة طالبا بل مديرا للتعليم الدينى فى الوزارة المركزية.

وقد مضى أكثر من ثلث قرن على تخرجنا فى الكلية.. تغيرت الملامح وماجت الحياة بشتى الصور والأحداث. وتباعد فيما بيننا المكان والزمان ولكن شيئا واحدا بقى ولم يتغير.. الإيمان والحب.. والإسلام والقلب.. وإيمان الحب.. وإسلام القلب هما الرباط الوثيق بين المسلمين فى كل شعب.

وهانحن فى طريقنا إلى فيلم بورى Milam Puri فقد تلقينا الدعوة من الوزير داتو حاج بن محمد عسرى والأخ محمد على هارون للاشتراك فى الاحتفال بالذكرى العاشرة لتأسيس مركز الدراسات الإسلامية العالية.. وقد مثل الأزهر فى هذا الاحتفال الأساتذة الدكتور عبد الجليل شلبى الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية، وفضيلة الدكتور محمود شوكت العدوى عميد كلية الشريعة والقانون والدكتور عبد الواحد بصيلة عميد كلية الطب. وعبد الودود شلبى مدير ورئيس تحرير مجلة الأزهر.

لقد تأسس هذا المركز فى الرابع من جمادى الآخرة١٣٨٦هـ على قطعة من الأرض تقدر بحوالى خمسة عشر فدانا. وبتأييد من السلطان يحيى بن المرحوم السلطان إبراهيم سلطان ولاية كالنتون الذى قدم قصره هدية إلى هذا المركز فى فيلم بورى Milam Puri فبدأ المركز عمله باعلان افتتاح كلية الشريعة والقانون فى تلك السنة نفسها لتكون نواة صالحة للجامعة الإسلامية المقترحة وكان عدد طلبتها ٣٤ طالبا وطالبة فقط. وفى الوقت نفسه افتتح معهد الدعوة والإمامة كقسم توجيهى لهذه الكلية الفريدة.

وفى ١٠ من اكتوبر ١٩٦٨ أصدر مجلس الحكومة الحالية (كلنتن) بموافقة جلالة الملك رقم ١٩٦٨/٩بشأن الاعتراف بهذا المركز رسميا لدى الحكومة.

وفى سنة ١٩٧١ أعلن المركز افتتاح قسم التربية لخريجيه الذى كان هدفه

تزويد الطلبة بالمواد التربوية الإسلامية والحديثة. وقد نجحت كلية الشريعة والقانون فى أن تقيم جسرا من التعاون بينها وبين جامعة ملايا بكوالا لمبور فقبلت كلية التربية بالجامعة المذكورة خمسة من خريجى كلية الشريعة والقانون للحصول على الدبلوم فى التربية وقد أبدى هؤلاء الطلاب تفوقا ملحوظا فى دراستهم بهذه الجامعة.

وفى عام ١٣٩٤هـ خطا المركز خطوة أخرى بافتتاح كلية جديدة هى كلية أصول الدين والتى كان من أهدافها إعداد العلماء القادرين على حمل لواء الدعوة الإسلامية وتزويدهم بأحدث العلوم العصرية وقد اعترفت جامعة الأزهر بالشهادات الممنوحة من كليتى الشريعة وأصول الدين وقدمت المنح الكثيرة لهذا المركز حتى يستكمل الطلاب دراستهم العليا فى كليات الأزهر ومعاهده المختلفة.

وقد وضع مؤسسو هذا المركز نصب أعينهم هذه الأهداف الرئيسية منذ قيامه وتأسيسه:

- إحياء الدراسات الإسلامية العالية.

- تكوين جيل واع يؤمن بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

- القيام على حفظ الثقافة الإسلامية والتراث العلمى للأمة الإسلامية.

- العمل على إيجاد الاتصالات بين الجامعات الأخرى فى الميادين العلمية داخل ماليزيا وخارجها.

- إتاحة الفرصة للطلبة الخريجين من المدارس الثانوية الإسلامية والعربية لمواصلة دراستهم فى المستوى الجامعى.

- اعداد المدرسين المؤهلين لتدريس المواد الدينية واللغة العربية فى

المدارس الثانوية واعداد الموظفين الإداريين الملمين بالإسلام والملتزمين بشريعته.

- اتاحة الفرصة لخريجي المركز لمواصلة دراستهم العليا في مستوى الماجستير والدكتوراه في الجامعات والمؤسسات الإسلامية وغيرها في داخل ماليزيا وخارجها.

* * *

وكلنا يفخر باندونيسيا، فهي أكبر دولة إسلامية على وجه الأرض من حيث المساحة وعدد السكان.

ولكن اندونيسيا- رغم حبنا لها وتقديرنا إياها- لاتتبع السياسة الإسلامية.. كما أن الإسلام في اندونيسيا في خطر.

فمنذ عزل سوكارنو، وتم التفاهم مع الولايات المتحدة تفتحت أبواب البلاد لارساليات التبشير الأمريكية بوجه خاص.

وأحب ألا يستهين[1] أحد بعمل الإرساليات. لقد طالما استهنا بأعمالها وقلنا: إن الإسلام وحده كفيل بإحباط كل جهودها. ولكننا في النهاية نجد أنفسنا أمام مواقف تتحول إلى مشاكل إسلامية قومية كما في جنوب السودان.

إننا نريد أن نقول لاخواننا في أندونيسيا- والإسلام في بلادهم أمانة في أعناقهم- إن هذا التساهل مع بعثات التبشير سيؤدي يوما إلى مشكلة قومية، مشكلة لاندونيسيا كلها وهذا ماحدث في تيمور الشرقية.

إن الأمريكيين يؤيدون أعمال التبشير بكل قواهم لكي يزعزعوا أقدام الإسلام في أندونيسيا، فهل ننتظر حتى تتعقد المسألة وتصبح مشكلة قومية هناك؟

---

(١) د. حسين مؤنس، مجلة الهلال ١٩٧٧.

ولماذا لا تتخذ حكومة أندونيسيا منذ الآن قرارا حاسما بوقف أعمال التبشير فى بلادها لتنقذ نفسها من مشكلة لابد أن تظهر يوما ما؟

وهل يعلم المسلمون مثلا أنهم عندما قسموا جزيرة غينيا الجديدة إلى قسمين: شرقى يتبع استراليا وغربى يتبع اندونيسيا (ايريان الغربية) ركزت جمعيات التبشير جهدها فى إيريان الغربية التابعة لاندونيسيا لكى يحولوها إلى أرض مسيحية تاركين ايريان الشرقية (وهى تابعة لهم) لأنهم واثقون بأنها بلادهم..؟!

نريد أن نقول هنا أن الإسلام فى خطر فى أندونيسيا.. هل تذكر المثل الذى يقول: من مأمنه يؤتى الحذر؟ إذن فاذكر إلى جانب ذلك أننا سنؤتى فى جنوب شرقى آسيا من مأمننا، والبلد الواعى حقا إلى إسلامه هو: ماليزيا. هنا تجد الدولة إسلامية حقا وحرصها على الإسلام وسلامته عظيم.

ولكنهم يثيرون المشاكل فى طريقها: تحريض الأقليات الصينية، ضغط الفليبين على سلطنتى صباح وبروناى فى شمال جزيرة برونيو.

ثم أين جهودنا للدعوة الإسلامية فى جزيرة برونيو وهى ميدان خصب للتبشير؟

ثم الإسلام فى الفليبين ماذا فعلنا لمعاونة إخواننا هناك؟.. إنهم يقاتلون ويجاهدون، ولكن العون من ناحيتنا قليل بل معيب.

وكلما تصورت وضع الإسلام فى الدنيا اليوم والمعركة التى يخوضها وحده- أجل وحده- تردد فى خلدى قول "نصر بن سيار":

أرى خلل الرمـاد وميض نـار ويوشك أن يكون لها ضـرام

أقول من التعجب ليت شعرى أأيقـاظ أمـية أم نيـام

نعـم، أأيقاظ نحـن أم نيام..؟   إن الإسلام فى الدنيا فى خطر...!!!

نحن فى حاجة إلى سياسة بعيدة المدى للحفاظ على الإسلام.. كل ما نعمله فى هذا الباب قليل، قليل جدا ..!!!

إن ماليزيا تمثل خط الدفاع الإسلامى الأول فى هذه المنطقة، ولو انهار هذا الخط، فلسوف تنهار قلاع إسلامية عديدة، ويفاجأ المسلمون والعرب بمأساة فلسطين(جديدة)..!!

لقد هتف "الصينيون" بعد نجاح مرشحيهم فى الانتخابات العامة بماليزيا منذ سنوات: أيها الملاويون أى المسلمون:

ليس مقامكم هنا.. فعودوا إلى الأحراش والجبال...؟!!

وكانت مذبحة أوقفتها الحكمة... والتذرع بالصبر والفطنة..

ان فى ماليزيا الآن ٥٠٠(خمسمائة منظمة نصرانية.. أكرر مرة ثانية.. خمسمائة منظمة نصرانية.

وقد بدأت المنظمات التنصيرية تكشف عن أنيابها السامة لافتراس الضحية المسلمة.. وقد ظهر هذا جليا فى الانتخابات المحلية التى أجريت قبل عامين فى ولاية (صباح) عندما انقسم المسلمون على أنفسهم فتمكن المسيحيون بقيادة "جوزيف بايريل" الكاثوليكى من تأليف أول حكومة مسيحية فى الولاية. وهنا كانت المفاجأة التى لم يكن يتوقعها أحد:

فقد بدأ "جوزيف" هذا عمله الرئاسى بطرد جميع المسلمين الذين كانوا يعملون فى الولاية ممن يحملون جنسيات أندونيسية أو فليبينية فتم ترحيل أكثر من ٣٠٠ر٠٠٠ (ثلثمائة ألف) مسلم واستبدال مسيحيين من الأقطار الأخرى بهم. كما فتح الباب على مصراعيه أمام البعثات التنصيرية ومنح مجلس

الكنائس العالمى امتيازات هائلة ليبدأ نشاطه الذى يهدد كيان ماليزيا كدولة مسلمة.

* * *

إن محاولات "التفاهم" أو"التقارب" التى تروج لها الكنيسة ليست الا حلقة من حلقات "التخدير" للضحية قبل أن تذبح..! وكل المؤتمرات واللقاءات التى تمت فى غضون الخمس عشرة سنة الماضية لم تزد المسلمين إلا ضعفا، ولم تزد غيرهم إلا وقاحة وتوحشا ..!

وما لم يشمر المسلمون عن ساعد الجد وينبذوا كل أسباب التنابذ والعداوة والحقد، وما لم تتوحد كلمتهم وقوتهم فى مواجهة الخطر وفى التصدى لهذه الغارة التى لا تبقى ولا تذر، فلن يبعد -كثيرا- ذلك اليوم الذى يتحولون فيه إلى رقيق وسبايا، وتتحول مدنهم وقصورهم إلي متاحف تحكى قصة المذبحة التى راح ضحيتها أكثر من ١٢٠٠ (ألف ومائتى) مليون مسلم من القتلى والضحايا ..!

* * *

فى مؤتمر دعت إليه الدولة.. وضع تحت الرئاسة الشرفية للجنرال "سوهارتو" رئيس هذه الدولة-كان هذا قبل أن يرحل.!

كان الموضوع الذى يدور حوله النقاش هو البحث عن سبيل لتحقيق التفاهم والتصالح بين المسلمين وغيرهم من الأقليات الدينية. وبالطبع كان أهم أطراف الحوار هم المسلمون وممثلو الطائفتين "الكاثوليكية"و "البروتستانتية".

فماذا حدث فى هذا المؤتمر؟

وماذا دار من نقاش بين المسلمين وممثلى هذه الطوائف المسيحية فى هذا المؤتمر؟

فى البداية وقف "الدكتور محمد رشيدى"(١) موجها كلامه إلى زعماء طائفة البروتستانت، وإلى زعماء طائفة "الكاثوليك" وإلى زعماء طائفة "الهندوك" فماذا قال الدكتور محمد رشيدى..؟

يقول الدكتور محمد:

اسمحوا لى بتوجيه كلمتى هذه أكثر ما توجه إلى أتباع الأديان الأخرى من غير المسلمين، وبخاصة أتباع الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية لأننى فى حديثى هذا سأخوض فى كثير من الأمور التى لها علاقة بالديانة المسيحية.

وقبل كل شىء أرجو عدم المؤاخذة إذا ورد فى هذا الحديث ما يمس شعوركم، إننى سأحاول التزام الموضوعية والتجرد. ولكن الموضوعية والتجرد تبدو مستحيلة على الإنسان عندما يتحدث عن الدين، لأنه- كما يقول الأستاذ تبللخ- يستحيل على الإنسان ألا يتورط حين يتحدث عن الدين، وبما أننى مسلم فقد لاتكون مندوحة لى من التورط أيضا.

وبالإضافة إلى ماذكر فإن الدين كما يقول العلماء، يعتبر قضية المصلحة الكبرى، بمعنى أن الإنسان عندما يصل إلى قضية دينه الذى يعتنقه، فيستحيل عليه قبول المساومة أو المقايضة فيه. أو أن يستبدل دينا بدينه إن الدين بالنسبة للإنسان المتدين، لا تقاس أهميته بالملبس أو المأوى، حيث يمكن تغييره عند اللزوم، وأن الإنسان عندما يعتقد عقيدة من العقائد مقتنعا بها، فلا يمكنه تغييرها أو الانفصال عنها.

إن لقاءنا هذا أيها الأخوة لقاء تاريخى . لابسبب أهمية الموضوع الذى سنبحثه فحسب، بل لأن الدين قضية تهمنا نحن أبناء الجيل الحاضر وأجيال المستقبل أيضا، لذلك كانت قضية الدين قضية تاريخ ومستقبل.

---

(١) وزير سابق وسفير سابق.

وأكثر من ذلك نرى أن تصورنا متأثر بالتاريخ متماش مع تطوراته، وذلك ما حدا بكثير من الجامعات فى أوروبا وأمريكا إلى دمج مادة مقارنة الأديان فى منهاجها، لأن علم مقارنة الأديان يساعد على الدقة في تقييم أوضاع الدين فى المجتمع، ليكون تقييما مبنيا على أسس علمية حديثة صادقة متماشية مع تطورات التاريخ.

إننا فى هذا العالم المتحضر نعيش فى مجتمعات متعددة التراكيب ومتعددة الأديان، فلا مندوحة لنا من أن نلائم بين أنفسنا وبين هذا الواقع الذى أدى إليه تطور التاريخ، كما أنه لا مناص أيضا من الاعتراف بواقع تعدد الأديان فى مجتمعنا الأندونيسى.

قبل نشوب الحرب العالمية الثانية، عندما كانت دول الغرب لاتزال تستعمر دول وشعوب آسيا وأفريقيا، كان الغربيون مفتونين بما أحرزوه من تقدم ونجاح فى مختلف ميادين الحياة، افتتانا جعلهم يستخفون بكل ما لا يمت إلى الغرب بصلة، وذلك ما يعرف بعنجهية التفوق الحضارى والثقافى، فنظام الحكم -مثلا- إذا لم يكن متماشيا مع النمط الغربى يعد نظاما متأخرا وغير عصرى والدين الذى لا يعتنقه الغربيون لا يعتبر دين حق، وأن الشعوب التى تريد التقدم والرقى والتحضر فعليها أن تقلد الغرب فى كل شىء..!!

وقد أثرت هذه المفاهيم فينا نحن الأندونيسيين، أبناء هذا الجيل المخضرمين، لانزال نذكر النظرة السائدة قديما تجاه الأندونيسى الذى لايجيد التحدث باللغة الهولندية -لغة السادة الحكام آنذاك- لا يعتبر إنسانا جديرا بالاحترام، بل أن هناك من يعتقد أن الدين الذى يعتنقه الهولنديون أسمى من الدين الذى يعتنقه أفراد شعبنا.. طبعا. إن هذا لن يقلل من احترامنا لأولئك الذين اعتنقوا النصرانية عن يقين واقتناع، مثل اخواننا المسيحيين الذى يشاركوننا هذا الاجتماع.

غير أن مفكرى الغرب اليوم بدأوا يتجهون إتجاها جديدا مغايرا لما ذكرنا منهم الأستاذ (ويلفر كنتويل سميث) الأستاذ الجامعى وأحد القسس المعروفين حيث يقول فى كتابه (عقائد الآخرين) :

إن على الغربيين أن يتخلوا عن أسلوب فكرة تقسيم البشر إلى فريقين، فريق الناجين وهم المسيحيون حسب ما يعتقدون، وفريق الهالكين وهم فريق غير المسيحيين، كما يجب أيضا أن يتخلوا عن اعتقادهم الذى يرى أن أسلوب الحياة الغربية هو الأسلوب الصائب إطلاقا.

إن مثل هذا الاعتقاد الذى يرى أن كل شىء يجب أن يسير على النمط الغربى، فيه الكثير من الخلط.. وسيلاقى الكثير من المقاومة.

ويقول الأستاذ فى موضع آخر من الكتاب :

(للغربيين ولاءان، ولاء لروما واليونان كمصدرين للحضارة السائدة بينهم، وولاء لفلسطين كمصدر عقائدى لهم. وبسبب هذه الإزدواجية فى الولاء كان على الغربيين أن يتخذوا أسلوبين فكريين متباينين عند معالجتهم للكثير من قضاياهم، فهم يفكرون بأسلوب علمانى عقلانى محض عندما يعالجون قضاياهم الاقتصادية والاجتماعية، وبأسلوب عقائدى دينى محض عندما يتصدون لقضايا الفرد الشخصية).

أما الشرقيون - كما يقول الأستاذ سميث مستطردا- فإن ولاءهم للدين وحده يسود كل كيانهم وتفكيرهم وكل ميادين حياتهم، لذلك كان تفكيرهم وإحساسهم وتصورهم وعملهم منبثقا من وحى عقيدتهم، وهذا هو السبب فى شدة ردود فعلهم ورعندما يمس الدين عندهم بأى مساس.

غير أن المبشرين لا يعترفون بهذا الحق للمسلم. فهم يعملون ليلا ونهارا لتنصير المسلمين فى اندونيسيا.

لقد بلغ من تحمسهم أنهم مارسوا التبشير معى أنا شخصيا وقد كنت أول وزير للشئون الدينية فى اندونيسيا المستقلة، فقد جاءنى إثنان من المبشرين يحثاننى على نبذ الإسلام واعتناق المسيحية، كانا يقولان لى ونسخة من الإنجيل فى أيديهما :

"إن هذا هو الكتاب الوحيد الذى يضم بين دفتيه الحق كل الحق، والذى استطاع أن يثبت أمام التمحيص العلمى.

وحين سألتهما عن تاريخ الأناجيل وعن مصادرها ثبت لى أن معلوماتهما بهذا الصدد ضحلة جدا، اتضح أنهما لم يطلعا بعد على كتاب الأستاذ "سخوتفيلد" (تاريخ الأناجيل) وهو الكتاب الذى يجب أن يطلع عليه كل إنسان مثقف، وبالحرى أنهما لم يطلعا أيضا على المؤلفات المسيحية التى كتبها مسيحيون ذوو طابع راديكالى، مثل كتاب الأستاذ بزول دافيس المسمى (مغزى مطامير البحر الميت)، وكتاب الأستاذ تشارلس فرانسيس بوتر المسمى (الكشف عن السنين المفقودة من حياة يسوع).

* * *

والكتابان الأخيران -كما هو معروف بين أوساط المثقفين- قد أماطا اللثام عن الكثير من تاريخ المسيحية، بمناسبة العثور على مستندات ووثائق قيمة فى أرض فلسطين يعود تاريخها إلى القرون المسيحية الأولى.

واننى أعترف أن لنا - معشر المسلمين فى اندونيسيا - نشاطا ضخما فى ميدان الدعوة، ولكننى واثق من أنه لم يحدث أن أحدا من دعاتنا المسلمين قد دعا السيد كاسيو- أحد زعماء الكاثوليك- أو دعا الدكتور تامبونان- أحد زعماء البروتستانت- لينسلخا عن النصرانية ويعتنقا الإسلام، مثل ما حدث لى مع ذينك المبشرين النشيطين

إن ما حدث لى فى الحقيقة أمر بسيط، ولكن ما يحدث الآن فى مختلف مناطق أندونيسيا أهم وأعظم وأخطر بكثير من ذلك.

كنت منذ أيام فى بلدتى (جاوا الوسطى) في زيارة خاصة، فاتصل بى أحد السكان هناك يعرض على القضية الآتية وقائلا :

"إن لى نسيبا اعتقلته الحكومة بسبب اشتراكه فى الانقلاب الشيوعى الفاشل، وبقيت أسرته تعانى العوز بعد اعتقاله، وقد اتصل به فى المعتقل أحد المبشرين وسأله: هل تحب أن تتلقى أسرتك معونة تنقذها من غائلة الضياع والفاقة؟ فأجابه نسيبى على البداهة: طبعا، ولكن من هو الإنسان النبيل الذى سيقدم لأسرتى تلك المساعدة الكريمة فى هذه الظروف بالذات؟ فقال له المبشر: ان المعونات ستصل إلى أسرتك بانتظام، ولكن عليك أولا أن توقع على هذا الصك معترفا بالتنصير.!!!

ولم يفكر نسيبى طويلا ووقع على الصك وأصبحت أسرته تتلقى المعونة بانتظام، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط، فلى أخت أخرى حين رأت شقيقتنا قد تحسن حالها بفضل المعونة التى تتلقاها بعد تنصر زوجها، قالت لى هذه الأخت: إن أختنا قد نالت معونة منتظمة، وأنا فى أشد الحاجة إلى مثلها، فهل بإمكانك تأمين مثل تلك المعونات لى أم أقتدى بأختى؟

وقصدها واضح، إنها تريد منى أن أؤمن لها حاجاتها المعيشية، كما أمنت لأختها، وإلا فإنها ستقتفى آثار أختها، حذو النعل بالنعل.. ومن أين لى ذلك وأن شخصيا أعيش عيشة الكفاف، ولكنى لا أريد أن أرى أختى الأخرى ضحية من ضحايا التبشير.

وهناك أيها الأخوة نماذج أخرى لمثل تلك المحاولات التبشيرية، فلى نسيب يملك قطعة أرض بمدينة بوكياكرتا، عرض عليه جماعة من الكاثوليك رغبتهم

لشراء تلك الأرض منه بثمن مرتفع، وذلك ليقيموا عليها كنيسة، ولكن نسيبى هذا رفض العرض شكلا وموضوعا، وهناك قطعة أرض أخرى بنفس المدينة، لها موقع استراتيجى ولا تزيد قيمتها فى الحالات العادية على مائتين وخمسين ألف روبية، ولكن الكاثوليك دفعوا فيها مبلغ مليونى روبية وبنوا عليها كنيسة.

هذه أحداث لمستها بنفسى حين زيارتى لمدينة يوكياكرتا، وهناك أمور أخرى سمعت عنها لا أرى حاجة لعرضها عليكم.

ولئن حدث هذا فى مدينة يوكياكرتا فقد حدث مثله فى نفس جاكرتا العاصمة، فى الأحياء الوطنية، مثل حى "تيبيت" وغيره، كما حدث أيضا فى أماكن أخرى بجاوا الغربية وجاوا الشرقية وغير ذلك من أقاليم أندونيسيا.

قبل ستين عاما من هذا اليوم ، حاول المبشرون الهولنديون أيام سيطرة هولندا على أندونيسيا أن ينصروا الأندونيسيين، ولكن الحكومة الاستعمارية الهولندية رفضت ذلك، فثارت ثائرة المبشرين وهاجموا الحكومة الهولندية فى البرلمان الهولندى واتهموها بأنها تحمى الإسلام فى أندونيسيا. والحكومة لم تكن تحمى الإسلام، ولكنها تحمى مصالحها فى أندونيسيا من أى استفزاز تقترفه حماقة التبشير مع المسلمين فى أندونيسيا.

وقد سألتهم الحكومة الهولندية :

– لماذا تريدون تنصير الأندونيسيين مع أنهم مسلمون؟

فأجابوا:

– إننا لانريد تنصير المسلمين ولكننا نريد تنصير أولئك الذين يدعون أنهم مسلمون ولكنهم لا يعرفون الكثير عن الإسلام ولا يعرفون اللغة العربية ولا يؤدون فرائض دينهم على الوجه المنشود.

وردت الحكومة الهولندية:

– اننا نعلم أنه ليست كل الشعوب التى تعتنق النصرانية تعرف الكثير عن المسيحية، فشعوب أوروبا الشرقية والأحباش وبعض شعوب الأقطار الأخرى لا يعرفون شيئا عن مريم ولا عن بولس، ولكنهم رغم ذلك نصارى، نعم إن هناك أندونيسيين لايعرفون الكثير عن الإسلام، ولكنهم مقرون بأن الإسلام هو دينهم، وهذا كاف لأن يعتبروا مسلمين.!

وهناك قال المبشرون:

– إننا نريد أن نقدم المدنية والتجديد والعلم للأندونيسيين المتخلفين فى كثير من ميادين الحياة.

فردت الحكومة قائلة :

– إنه لكى يتقدم الإنسان ويتحضر فليس من الضرورى أن يتنصر أولا، أن الإسلام فى أندونيسيا لا يتنافى أو يتعارض مع الحضارة والتقدم (وهذا ما قاله المستشرق الهولندى (سينوك هورخرونيه) والحقيقة أن الإسلام جملة وتفصيلا لم يكن غير متناف مع الحضارة والتقدم فحسب، بل إن تعاليمه ومبادئه شاملة أيضا لتعاليم وأسس التقدم والحضارة.!

وبحث المبشرون عن مبررات أخرى يتذرعون بها، فقالوا:

– إننا سنأتى إلى أندونيسيا مدفوعين بدافع الشفقة والإنسانية. اننا نريد أن نخفف عن البائسين فى أندونيسيا وطأة البؤس والشقاء والجهل والمرض.

فردت الحكومة قائلة :

– هذا حسن جدا! إذا كانت الإنسانية هى دافعكم فاعملوا... أنشئوا

المدارس والمستشفيات، وأسدوا البر إلى البؤساء، ولكن حذار من اشتراط التنصير على المحتاجين إلى تلك المعونات، حذار من التغرير بالطلبة والفقراء والمرضى بالتنصر. فى هولندا مثل معروف يقول: "تنصروا بسبب الأرز". أى أنهم تنصروا لا بدافع اليقين والاقتناع ولكن بسبب الحاجة إلى الأرز".!!!

* * *

ان المسافة من كوتابارو إلى جنوب تايلند لاتزيد على أربعين ميلا.. وفى هذا الجنوب جنوب تايلند يقع إقليم "فطانى" الذى يقاتل فيه المسلمون دفاعا عن العقيدة والوطن والحرية.

وقد كانت"فطانى" من قبل إمارة مستقلة ترتبط مع بقية إمارات الملايو بروابط وثيقة ومن أهم هذه الروابط الدين والعقيدة.

وفى عام ١٦٠٣ هاجمها السياميون سكان تايلند لأول مرة ولكنهم باءوا بالفشل ثم تابعوا اعتداءهم عليها مرتين متواليتين وذلك فى عامى ١٦٣٢ إلا أنهم لم يحصلوا إلا على ماحصلوا عليه فى المرة الأولى، وأخيرا استطاع السياميون من احتلال المنطقة عام ١٧٨٦ وقتلوا سلطانها وحملوا معهم آلاف الأسرى إلى بانجوك وفى العام الثانى لهذا الاحتلال أجبر السياميون سكان فطانى على دفع الجزية وبعد أن استعمرت انجلترا المنطقة أبرمت مع تايلند معاهدة بانجوك عام ١٩٠٩ اعترفت فيها انجلترا بضم إمارة فطانى إلى تايلند وذلك ضمن سياسة انجلترا فى تقسيم المسلمين وتسلط غيرهم عليهم.

لم تهدأ الثورات فى هذه الإمارات منذ أن حكمها السياميون فقد قامت ثورة تنكو كميدين عام١٧٨٩ ثم قامت ثورة بقيادة داتو ففكالن عام١٨٠٨م وقامت ثورة الأمراء عام ١٨٣٢ كما أنها لم تهدأ بعد المعاهدة الانجليزية التايلاندية عام ١٩٠٩ والتى أصبحت فطانى أثرها جزءا من تايلند رسميا فقد

تفجرت ثورة كبيرة عام ١٩٤٨ بقيادة العالم المشهور الحاج محمد سولونج الذى اغتيل فى ظروف غامضة عام ١٩٥٢م وقسمت فطانى إلى خمس مقاطعات هى:

١-"فطانى" ومركزها مدينة فطانى المرفأ الشهير على بحر الصين الجنوبى.

٢- "ناراثبوت" ومركزها مدينة "ناراثبوت" وهى مرفأ أيضا على بحر الصين الجنوبى.

٣- "بالا" ومركزها مدينة بالا وهذه المقاطعة أكثر المقاطعات امتدادا فى أرض ماليزيا.

٤- "سونغكلا" ومن مدنها الشهيرة "سادو" و"بانا".

٥- "ساتون" ومركزها مدينة "ساتون وهى" في الطرف الغربى على ساحل المحيط الهندى وتتبع هذه الولاية مجموعة جزر أشهرها جزيرة "تاروتا" و"جزيرة" راوى".

ويلاقى المسلمون تعنتا كبيرا من قبل السياميين. فبعد الانقلاب العسكرى الذى حدث فى تايلند عام ١٩٣٢م وأطاح بالملكية المطلقة ووضع السلطة بأيدى العسكريين انتشرت الدعوة القومية السيامية المتعصبة وقامت لجنة وتعرف باسم "لجنة الثقافة القومية السيامية" وكان الشعب الفطامى ضحيتها الأولى فهو شعب مسلم وذو ثقافة إسلامية على حين أن السياميين بوذيون وأصحاب ثقافة بوذية وقد أغلق البوذيون المساجد والمدارس الدينية وأجبروا المسلمين على دخول المعابد البوذية.

ويذكر بعض مؤرخى الملايو:

أن كراهية أهل سيام(١) للإسلام قد زادت عندما غلبت فى كل حروبها ضد ملقا وأخذ ملك سيام يهيىء جيشا ثالثا وهو يكاد يتفجر غيظا وكانت القيادة فى يد ابنه للهجوم على ملقا أملا أن يكون على يدى ابنه هلاكهم وفناؤهم وشعر بذلك الملك المظفر فأخذ يهيىء نفسه لاستقبال جيش العدو وهو قلق حزين لأنه يعلم تماما أنه لا يملك من العتاد مثلما يملكون وأخذ يفكر فيما يجب عمله حتى يضمن النصر للمسلمين وفى غمرة تفكير دخل عليه شيخ تقى متصوف وقال:

المتصوف: مالى أرى سمات الأسى والحزن تعلو جبينك أيها الملك العظيم، وقد عهدته وضاء باسما؟

المظفر: ألم تسمع أيها الشيخ الفاضل بالهجوم الذى دبره ملك سيام ضد مملكتنا وجعل القيادة هذه المرة لابنه، "تشيوباندان" وأنت تعلم أنه مقبل علينا بجيوشه وسوف تكون الطامة واللطمة للمسلمين إذا انتصر علينا هذا الملك الكافر.

المتصوف: لاتحزن ولا تبتئس إن الله معنا ولينصرن الله من ينصره أتحسب أن الله يهزم قوما يقولون ﴿ولا تدع مع الله إلها آخر﴾ و ﴿كل شىء هالك إلا وجهه﴾ كلا أيها الملك العظيم إن الله الذى أعاد إليك الملك وأهلك خالك الخائن "ريكن" ونصرك مرتين على سيام سوف ينصرك بقلة عددك وعنادك:

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا

(١) سيام SIAM هى الاسم القديم لملكة تايلاندTHAL LAND .

عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾ [البقرة]

وأنت تعلم أيها الملك أنهم يحاربوننا ليطفئوا نار الحقد التى تتأجج بين ضلوعهم وليوسعوا من مساحات أرضهم وملكهم، أما نحن فلا نحاربهم بل ندافع عن أنفسنا وديننا وحقوقنا ولن يتخلى الله أبدا عن المؤمنين. وسوف تذهب ريحهم وتكون كلمة الله هى العليا وكلمتهم هى السفلى فليطمئن قلبك ودعنى أيها الملك أقابل جيش العدو وحدى هذه المرة وبطريقتى الخاصة.

فعجب الملك وحار فى أمر ذلك الشيخ المتصوف ولكنه كان يعلم مبلغ ورعه وتقواه، فقال له افعل ما تشاء وليعنا الله على هذا البلاء، اللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه، إنى أترك لك أيها الشيخ حرية التصرف، ولكن كيف ستقاتل هذا الجيش العرمرم وحدك؟

المتصوف: سترى بنفسك أيها الملك وأخرج المتصوف سهما من جرابه وأطلقه فى الهواء قائلا فلتمت يا "تشبوباندان" فلتمت بإذن الله "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى".؟!

ابتسم الملك عندما رأى ما فعله الشيخ المتصوف وهو فى شك من أمره وسأله ترى أيموت حقا يا شيخنا الفاضل ذلك المدعو تشبوباندان عندما صوبت إليه هذا السهم فى الهواء؟ إذا حدث هذا فأنت بحق من أصحاب الكرامات.

ولم يمض سوى أيام قلائل حتى سمع السلطان المظفر الجواب على أسئلته التى وجهها للمتصوف أن ابن ملك سيام تشبوباندان وقائده الذى كان سيرسله للهجوم على ملقا مات قبل أن يتحرك من بلاده وكان يحس بأن طعنات

السهام تمزق صدره ومات على أثر ذلك فحزن أبوه على ولده أشد الحزن.

ونجا بذلك المظفر وشعبه من جبروت الملك الظالم!!

* * *

ان كوتابارو مدينة جديرة بالإعجاب والحب .. كل شيء فيها يذكرك بالإسلام والعروبة... وقد كان منقوشا على علم جيشها القديم "لا إله إلا الله محمد رسول الله". وفى المعرض الذى افتتحه رئيس الوزراء بمبنى مركز الدراسات رأيت ملابس جنود هذا الجيش وقد كتب عليها : نصر من الله وفتح قريب.!

ان ماليزيا من أنظف بلاد العالم الإسلامى التى رأتها عيناى.. البيوت نظيفة. والشوارع ملساء ناعمة.. لا تقع عيناك فى شوارع كوالا لمبور على قشة.. أو ورقة ملوثة.. إن عقوبة هذا الخطأ كبيرة.. وفى كوتابارو تخلع حذاءك قبل أن تدخل البيت، والفتيات والنساء فى غاية الوقار والحشمة وفى "المعهد المحمدى" يبهرك هذا البهاء فى وجوه طالبات المدرسة.

لقد استقبلنا الأخ عبد القادر محمد مدير المعهد المحمدى، والذى درس فى كلية أصول الدين القديمة.. مرحبا بوفد الأزهر.

وصادف موعد زيارتنا للمعهد، ولمدرسة النعيم للفتيات يوم الامتحان فى اللغة العربية وقد اخترت هذه النماذج من الأسئلة لأبين مدى تعلق هؤلاء الأخوة بالإسلام واللغة العربية تقول هذه الأسئلة :

* قيمة كل إنسان بأخلاقه وآدابه - لابشكله ولونه...

* اكتب رسالة إلى معلمك تعتذر فيها عن عدم حضورك إلى المدرسة مبينا السبب.

* دور الزكاة فى بناء المجتمع السليم.

* * *

فى الطريق ... تسمع آيات القرآن الكريم مرتلة بأصوات -قراء مصر وتشنف أذنيك أنغام "ولد الهدى" وكأنك فى "الحسين".

إنه الأزهر ذو المقام الشريف فى كل قلب هؤلاء الذين يحملون شارته فوق هذه الأرض.. ويبلغون رسالته إلى هذه الآفاق... ويعلمون لغته وثقافته للناس... كانوا طلبة نشأوا فى رحابه الطاهر.. فاغترفوا من معين حكمته العذب، وحملوا أمانته بكل صدق وظلوا- كما كانوا أوفياء لجنابه سائرين فى ركابه، مقتفين أثر شيوخه وطلابه :

محمد على هارون - يحيى عثمان - أحمد بن الحاج داود- عبد الوهاب عبد الحميد.

إن من حقكم علينا .. بل على الأزهر الذى تحبونه... بل على مصر العزيزة الغالية لديكم ... من حقكم علينا جميعا هذه التحية، وتسجيل مشاعركم النبيلةالزكية.

رجعنا إلى شاطئ الغرام استعدادا لرحلة العودة إلى القاهرة ولم نشأ أن نترك هذا المكان حتى نسأل عن السر فى هذه التسمية شاطئ الغرام (Beach of Passionate Love)

قالوا عن السبب فى هذه التسمية. إن سلاحف البحر تأتى إليه من شواطئ استرالية لتضع بيضها كل عام مرة واحدة، وهنا على الشاطئ يتم اللقاء بين الإناث - والذكور فى عملية زواج كبرى ... ثم تعود هذه السلاحف بالرفاء والبنين - إلى وطنها الأصلى بعد ذلك إلى كانبيرا .!

ولكن قصة غرام حقيقية كادت تقع فى هذه المنطقة ... ففى حوار بين الخادم وفضيلة الشيخ محمود شوكت .. فهم الخادم من طلب الشيخ بعض المساعدة أنه يريد عروسا.. وبعد ساعات قليلة من هذا الحوار كان هذا الخادم يقف بجوار فتاة ليدق باب حجرة الشيخ التقى المبجل.، وفزع الدكتور العدوى منه المفاجأة وخرج هائجا يستنجد بالدكتور عبد الجليل الذى حول الأمر إلى دعابة لطيفة :!

قال الدكتور عبد الجليل : من هذه؟

الخادم: العروس التى طلبها الشيخ.

الخادم: فى المدينة على بعد خمسة أميال.

الدكتور: لابد من حضوره لاتمام العقد واستلام الصداق والمهر..!

الخادم : متى يكون ذلك؟

الدكتور: غدا إن شاء الله فى الخامسة ظهرا.

وفى اليوم الموعود.. وفى تمام الساعة العاشرة صباحا.. كانت الطائرة تحملنا من كوتابارو إلى كوالا لمبور.. وبقيت قصة الزواج المعلق على شاطئ الغرام قصة تحكى فى المناسبات الجميلة.. وتطالب أى إنسان يتكلم بغير لغته أن يعرف دلالات كل كلمة وحرف فى هذه اللغة.. إنها مشكلة تصادف كل مسافر إلى الخارج .. وأحيانا ينطق الإنسان كلمة ينقصها حرف.. أو ينطقها دون معرفة بأصول النطق.. فتكون النتيجة عكس ما يريده بالضبط.

ودعا يا فيلم بورى..

ودعاياكوتابارو..

ودعا ياشاطئ الغرام الذى كاد يصبح حقا وحقيقة ...!!!

من كوالا لمبور Kuala Lumpur ركبنا طائرة شركة الخطوط الجوية الماليزية إلى بانكوك Bangkok عاصمة تايلاند Thailand. أن الخدمة على متن الشركة الماليزية لا تقل عن مثيلاتها فى أرقى الشركات العالمية.. دقة فى المواعيد غاية فى النظافة كل من فى الطائرة يخدمونك بود ومحبة. الشاى والقهوة يقدمان فى أى وقت وكما يحب أى راكب. وبدون ملل أو تباطؤ.

وفى بانكوك Bangkok انتظرنا يوما لنركب الطائرة المصرية القادمة من طوكيو وياليها من طائرة – أقصد الخدمة فيها. والمضيفات العاملات بها.

كان جلوسى على مقعد بجوار النافذة.. وجاءت المضيفة تحدثنى بلغة انجليزية.. فرددت عليها بلهجة مصرية صميمة.. كنت أظن أن ذلك سيسعدها.. فنحن فى غربة، ونحلق فوق ثلاث ألف قدم وفى الغربة تشف النفوس وتتصافى.. وفى مثل هذا الارتفاع تنوب أمراض النفس وتتلاشى...!

كان الدكتور عبد الجليل قد ترك معى صندوقا صغيرا وضعته تحت المقعد.. وبعصبية بالغة، ولهجة همجية آمرة – قالت:

– ارفع هذا من هنا..

– ماذا تعنين؟

– هذا الصندوق...

– وأين أضعه؟

– لا أعرف..

– ألا يمكن التفاهم بغير هذا الأسلوب؟

– من فضلك لا تتفلسف.

– لست فيلسوفا .. وأنا أتحدث بلغة بسيطة إلى أخت مصرية..

– لست أختا لأحد ..!

– لقد منحتنى شرفا كبيرا ..!

– ماذا تقصد؟

– وهل هناك شيء يستحق أن يقصد؟

– وهذا الصندوق؟

– لست صاحبه ..

– من يكون إذن ..؟

– اسألى فى الطائرة..

وطار صواب المضيفة .. وذهبت إلى قائد الطائرة الذى حضر مسرعا للتحقيق فى الواقعة فقلت للكابتن حسين. وكان لطيفا ومهذبا.. أعتقد أنكم عند تعيين هذه المضيفة لم تطلعوا على صحيفة سوابقها فى وزارة الداخلية ولو كان الأمر بيدى لذهبت بها إلى سجن النساء فى القناطر الخيرية..!!

* * *

فى بانكوك Bangkok تخوض قدماك فى وحل الخطيئة من أول خطوة – كل شيء هناك فى متناول اليد، وعلى مرأى ومسمع من الشرطة وفى ظل قانون خدرة الحشيش والجنس والرشوة.!

أهذه هى "بانكوك" التى قرأت عنها فى الكتب؟

منذ ثلاثين عاما كنت قد قرأت تلخيصا لكتاب وضعته مدرسة انجليزية عن حياتها فى هذه المملكة الغامضة. وقد نشر تلخيص هذا الكتاب فى مجلة (المختار) التى كانت تصدر فى القاهرة .. اسم هذا الكتاب (الملك وأنا)The Kingand.1 . إن الصورة التى رسمتها ببراعة هذه الكاتبة جعلنى أحلم بزيارة هذه المنطقة : الحياة الفاتنة الأخاذة.. الشرق بسحره الغامض – الناس بعقائدهم العجيبة .. الطبيعة بتقلباتها المختلفة.. كانت "سيام" أو"تايلند" تمثل فى خيالى حلما من أحلام الطفولة.. البراءة النقية .. الفردوس والجنة.. الحور والملائكة .. وها أنذا فى "بانكوك" .. ولكن .. أية "بانكوك" هذه التى أقف عند بابها مفعما بأحلامى القديمة..؟

لقد شعرت بالضيق من أول لحظة. فالشوارع مقبضة .. وغير نظيفة –ر والهواء ثقيل يقبض أنفاسك اللاهثة.. وآثار الفقر والخطيئة تزيد من شعورك بالانقباض والضيق فى كل لحظة ؟

فى الفندق الذى نزلنا فيه تبدد كل أمل فى الهدوء والراحة.. صخب وعبث وقمار ولهو.. ومساومات رخيصة... جو خانق معتم... حتى الطعام لم أذق منه لقمة واحدة... لقد اختفى الجوع فجأة... وحلت مكانه غصة فى الشعور والعاطفة.!

وفى تلافيف هذه الظلمة يسطع شعاع من نور الأمل فى صورة شاب يتقدم منحنيا على يدى الشيخين عبد الجليل وشوكت. إنه الطالب التايلدنى عبد الله محمد .. كان مسافرا إلى الكويت لاستئناف دراسته التى بدأت... ولاحظ مودعوه ذلك فهرولوا مسرعين لالتماس البركة التى حلت..!

لقد ظهرت بانكوك فى صورة جديدة. وامحت صورة القمار والبغاء والرشوة.

إن المسلم يختلف تماما عن غيره .. سر من أسرار الخالق يكمن فى أعماقه..

أصله من تراب وفطرته من نور.. عبد تخلق بأخلاق الله واستغنى عن الدنيا. ألقى عليه الحب. وكسى المهابة والجلال. نزيه برىء فى السلم والحرب. إن إيمانه هو مركز الدائرة التى يدور حولها العالم وكل ماعداه وهم وطلسم ومجاز. إنه الغاية التى يصل إليها العقل .. ولب لباب الإيمان والحب..

فإلى غير رجعة... يا مدينة الخطيئة مسكينة أنت يا تايلند.!

وليحفظ الله عبد الله محمدا. وكل مسلم يعبد الله فى هذه الأرض..

* * *

الطائرة تتهيأ للاقلاع .. لكن حركتها بطيئة... وبليدة ... ترى هل تغيرت طبيعة الأرض..؟ أم فقدت جاذبيتها فوق تايلند..؟ أم أن الشياطين تسد فى وجهها الأفق؟ أم اعترض "بوذا" بحجمه الهائل: طريقها الممهد؟

وهل هذا الذى أراه حقيقة أم وهم أم أن عقلى الباطن لايزال شاردا فى قاع مدينة الفجور واللهو..؟

طوفان تتراكض أمواجه رالعالية فى داخل النفس وأشباح تطارد عقلى الذى توقف عن التميز والفكر!؟

وأخيرا ترتفع الطائرة ... وتهدر محركاتها القوية مزمجرة.. لقد تصورتها تصرخ فى وجه عوامل السقوط المثبطة .. وتقاتل أشباح الفساد فى هذه المدينة الضائعة!!

ومن بين ثنايا الضباب الكثيف تتسلل الطائرة إلى مدارها فى الأفق

البعيد، ومن حولها تتناثر أشلاء السحاب الأسود فى طريق الصعود . حتى إذا استوت فى الأفق، وعبرت حدود بورما فى طريقها إلى الهند.. كان القمر قد ظهر متألقا من خلال أشجار النرجيل والجوز متخطيا حقول الألغام والموت قائلا لـ (آسيا) الحزينة:

يا قارة الحروب والفقر..!!

إنى أنا القمر قاهر الظلام... وفى الإسلام.

يا آسيا النور والأمل والسلام.

* * *

فـى
استرالـيا
أو
بلاد الكنجرو الأسود !

فى استراليا أو بلاد الكانجرو

نحن الآن فى أقصى الشرق فى استراليا .. أو البلاد الجنوبية .. الجنوبية بالنسبة لخط الاستواء .. أو الجنوبية بالنسبة لآسيا.. أو الجنوبية لقربها من القطب الجنوبى المتجمد.

استراليا Australa هذه القارة الجديدة .. البعيدة .. ذات العشرين مليونا من الناس.

إن استراليا تبلغ فى الحجم حجم الولايات المتحدة الأمريكية ولكن تعداد سكانها أقل من عشر سكان الولايات المتحدة الأمريكية وهى أكبر خمسة وعشرين مرة من بريطانيا وايرلندا.

واستراليا هى أصغر قارات العالم ولكنها أكبر جزائره وهى فى الوقت نفسه أقل قارات العالم والجزائر كثافة للسكان(١).

طول السواحل الاسترالية التى تشبه الكمثرى حوالى ٢١٠ر٢١ واحد وعشرون ألفا ومائتان وعشرة أميال وأطول أنهارها هو نهر "دارلنج" الذى يبلغ طوله ألفا وسبعمائة ميل.

أكبر الولايات الاسترالية هى ولاية غرب استراليا التى تساوى تقريبا ثلث مساحة استراليا برمتها ومساحتها ٩٧٥ر٢٠ ميلا مربعا.

ولقد انشئت الولايات المتحدة الاسترالية الراهنة كوحدات مستقلة على النحو التالى:

---

(١) لقد اعتمدنا فى هذه الإحصائيات على ما كتب الدكتور محمد العريان الأستاذ بالجامعات الاسترالية.

نيو سوث ويلز سنة ١٧٨٦

تسمانيا سنة ١٨٢٥

غرب استراليا سنة ١٨٢٩

جنوب استراليا سنة ١٨٣٤

فكتوريا سنة ١٨٥١

كوينز لاند سنة ١٨٥٩

الإقليم الشمالى سنة ١٨٦٣

العاصمة الاسترالية سنة ١٩١١

وجدير بالذكر أن نيوزيلندا كانت فى وقت من الأوقات (١٨٤٠) تابعة لولاية نيو سوث ويلز ولكنها أصبحت مستعمرة قائمة بذاتها سنة (١٨٤١).

ولقد سميت استراليا بالقارة المجدودة والقارة المحظوظة وسميت بقارة المستقبل وسميت بالقارة اللاهية التى تعطى نصف وقتها للرياضة وكل وقتها للمقامرة والباقى للرحلات..!!

وسميت بالقارة البيارة (نسبة إلى شرب البيرة)..!

ومن طريف ما يذكر أن من بين كل ٩٥ أما استرالية فإن واحدة منهن تلد توأمين وواحدة من كل ٣٠٩ر١٠ أمهات تلد ثلاثة توائم.

وأن عدد النساء الأرامل يزيد على عدد الرجال الأرامل ثلاث مرات ونصف مرة..!

---

(١) كنت مبعوثا إلى استراليا وجزر جنوب الباسفيكى فى إحدى الفترات.

كما أن متوسط العمر فى استراليا ٦٨سنة للرجال و٧٤ سنة للنساء.

وخلال الحرب العالمية الثانية وأثناءها شهدت استراليا حركة هجرة إليها وكان هؤلاء المهاجرون يسمون بالاستراليين الجدد ويستهلك الاستراليون فى المتوسط العام بالنسبة للفرد:

٢٢٥ رطلا من اللحم

٢٩ جالونا من اللبن

١٧٧٥ رطلا من الفاكهة

١٧٧٥ رطلا من السكر

٥٧٥ رطلا من الشاى

٢٥٨ رطلا من البن

٢٤ جالونا من البيرة

وكان متوسط استهلاك الاستراليين من السجائر فى سنة ١٩٦٧ : ٢١ بليون سيجارة فى السنة.

وتعتبر استراليا خامس دولة فى العالم فى نسبة استهلاك البيرة وذلك طبقا لإحصاء سنة ١٩٦٧. أما اليوم فربما تغير ترتيبها إلى الرابعة أو الثالثة لأنها فى تقدم مستمر..!

ومن الأقوال المأثورة لـ "هنرى لوسون":

(إن البيرة الاسترالية تجعلك تشعر كما لاينبغى لك أن تشعر بدون البيرة).

والاستراليون يستهلكون أربعة ملايين جالون من المشروبات الكحولية كل عام ..!

وتعتبر استراليا ثانى دولة فى العالم بعد أمريكا فى نسبة استيراد الويسكى ذلك أن استراليا تستهلك عشرة ملايين زجاجة ويسكى فى السنة.!

ولا أذكر أننى جلست فى مطعم ووجدت دورق مياه على المائدة رغم أن حوالى ٣٩٪ من استراليا محصور بين المدارين ، بل والأعجب من ذلك أننى عندما أطلب الماء من النادل[1] ينظر إلىّ وكأننى أتيت فعلا فاضحا .!

وتشير الإحصاءات إلى أن عدد الذين يموتون بأمراض القلب فى استراليا يفوق عدد من يموتون بأى سبب آخر. وحسب إحصاءات سنة ١٩٦٤ فإن ٣٧٪ من جميع أسباب الوفاة فى استراليا يرجع إلى أمراض القلب، كما أن فى استراليا أكبر نسبة فى العالم لسرطان الجلد الذى شكل ٧٠٪ من نسبة كل أنواع السرطان الأخرى. أما بالنسبة للأسنان فإن ٦٢٪ من الاستراليين يعانون من عطب فى أسنانهم.

ومنذ سنة ١٩٥٠ فإن أطفال المدارس يزودون باللبن بالمجان على سبيل الوقاية من أمراض الأسنان.

إن أكثر من أربعين بالمائة من سكان استراليا اليوم مهاجرون وفدوا إليها بعد الحرب العالمية الثانية.

واستراليا أمة تعددية- ثقافيا Multi- Cvltvre ولهذه الظاهرة مضامين بعيدة المدى.

أما عن سكان استراليا الأصليين المعروفين بالأبوريجينيين. فيحدثنا

(١) النادل- باللغة الفصحى- هو "الجرسون".

التاريخ أنهم وجدوا على أرض القارة منذ عشرة آلاف إلى ١٢٥٠٠٠ سنة على أرجح الأقوال.

وتشير الدلالات الراهنة إلى أنهم نزحوا إلى استراليا من جنوب شرقى آسيا عبر اندونسيا خلال طريقين رئيسيين : غنيا الجديدة ومضيق ستريت وكيب يورك وخلال تيمور وشمال غربى استراليا.

وفى بداية استعمار الرجل الأبيض لهذه القارة على نحو مستقر فى سنة ١٧٨٨ كانت توجد خمسمائة "لغة" ابوريجنية وحوالى ٦٨٠ لهجة من لهجات القبائل.

وكان متوسط عدد كل قبيلة يتراوح بين ٤٠٠و٤٠ شخصا وعددها الإجمالى ٣٠٠ر٠٠٠ ثلاثمائة ألف.

وقصة إبادة الابورويجنيين خصوصا فى "تسمانيا" تلطخ الرجل الأبيض المستعمر بوصمة عار أبدية.

وفى استراليا اليوم دراسات ومحاولات جادة للنهوض بأحوالهم ورد اعتبارهم ومساواتهم فى الحقوق والواجبات ببقية المواطنين. والمشكلة فى أساسها تربوية واجتماعية وتحتاج إلى وقت طويل.

وبالنسبة لكثافة السكان فى استراليا فجدير بالذكر أن أول تعداد رسمى لاستراليا كان فى سنة ١٨٨٢.

وتعتبر استراليا من أقل القارات كثافة فى السكان (٨٧ر٣٪ نسمة فى كل ميل مربع).

وأعلى نسبة هى -٢٣١- أوروبا.

و-١٦٣- آسيا.

وأقل نسبة -٢-ليبيا.

وكان تعداد السكان فى استراليا سنة ١٨٥٨ حوالى مليون نسمة وأصبح خمسة ملايين فى سنة ١٩١٨ وعشرة ملايين سنة ١٩٥٩. وخمسة عشرة مليونا فى سنة ١٩٨٣.

كانوا يطلقون عليها من قبل اسم استراليشيا (Australisia) .

وهذه الكلمة كما يفسرها لنا قاموس اكسفورد (Oxford).

كانت تطلق على استراليا والجزر المجاورة لها.

ومعنى هذا ... أن استراليا.. وجزر فيجى (Fiji) وجزر الهند الشرقية المعروفة اليوم باسم اندونيسيا وبلاد الملايو.. أو ما يعرف اليوم باسم ماليزيا كانت تعتبر منطقة جغرافية واحدة.. وبالتالى فإن تبادل الزيارات بين استراليا وهذه الجزر كانت قديمة ووثيقة، وهى زيارات تقليدية لاتزال تحدث حتى هذا اليوم .. وسواء أكانت هذه الزيارات اختيارية لصيد السمك واللؤلؤ.. أم اضطرارية بفعل الأنواء والعواصف فقد وجد العلماء اثارا ومخلفات لزيارات قام بها بعض سكان الملايو واندونيسيا إلى الشاطئ الشمالى الغربى من استراليا.. إلا أن هذه الزيارات توقفت عند الشاطئ الشمالى الغربى من استراليا.. ووقفت الصحارى والقفار مانعا عن التوغل إلى الداخل.

وسترى فيما بعد.. أن هذا المانع الصحراوى الذي وقف حائلا فى طريق التوسع إلى الداخل.. كان هو السبب الحقيقى لانتشار الإسلام فى القريب العاجل.

كان أول اتصال لاستراليا بالتاريخ الحديث فى ابريل ١٧٧٠م . ففى هذا

الشهر هبط الكابتن (كوك)[1] (James Cook) إلى الشاطئ الاسترالى فى منطقة تعرف اليوم بـ (خليج بوتانى) (Botany) أحد شواطئ مدينة سيدنى عاصمة ولاية نيو سوث ويلز.

لقد أصبحت استراليا -منذ ذلك اليوم- جزءا من ممتلكات التاج البريطانى أو الامبراطورية التى لم تكن تغيب عنها الشمس فى الواقع والحقيقة.

ولم يكد يمضى على اكتشافها عشر سنوات حتى تحولت إلى منفى للمجرمين والخارجين على القانون.. كانت بداية سيئة من غير شك.. فقد مارس هؤلاء المجرمون هوايتهم السابقة مع سكان استراليا الأصليين "الأبوريجنال".

وكما حدث - للهنود الحمر- فى أمريكا تكررت المأساة نفسها هناك فى استراليا.

* * *

إن المجتمع الاسترالى جسم أنهكته العلل.. وتمكنت منه الأمراض التى تعرض بقاءه للزوال والخطر.

أول هذه العلل شرب الخمر.

وثانى هذه العلل لعب القمار.

وثالث هذه العلل .. الإجرام.

لقد نشرت إحدى المجلات العلمية.. أن الجريمة كلفت استراليا فى العام الماضى[2] ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ ثلاثة بلايين من الدولارات الاسترالية.

---

(١) كان أول انجليزى نزل إلى الشواطئ الاسترالية هو (وليم دامبير) الذى نزل على الساحل الشمالى الغربى عام ١٦٨٨م.

(٢) سنة ١٩٧٩.

وتقول المجلة [١]:(Bullin)

إن هذه النسبة أو الجريمة سترتفع فى هذا العام إلى النصف .. وقد بدأ التسيب فى الإدارة البوليسية. يأخذ صفة المرض أو التواطق.. وقد عزل أكثر من ثلاثين ضاطبا من كبار الضباط نتيجة لهذا الإهمال.. كما جاء فى جريدة صنداى تلغراف (Sun day Telegraph).

وكما تقول هذه المجلة :

فإن رجال البوليس كانوا يحملون السجناء الأغنياء إلى بيوتهم. كل ليلة لقضاء هذا الليل فى بيوتهم.. ثم يعودون بهم فى الصباح إلى السجن.. وهكذا كان يتكرر هذا المشهد كل يوم..!

إن معدل ما يشربه الاسترالى من البيرة والخمر شىء مفزع. وقد تنبهت هيئة الصحة العالمية إلى هذه الظاهرة فحذرت من استبدال دم أى استرالى بدم أى مريض آخر.. لأن الدماء الاسترالية تحتوى على نسبة عالية من الكحول.

* * *

فى الطريق إلى المسجد أو المركز الإسلامى الكائن بمنطقة سرى هليز Surry Hills فى شارع الكومنولث (Common Wealth) يواجهك مصنع من أكبر مصانع الخمور اسمه (Tcoheys) وعلى مسافة خمسين مترا من المسجد يوجد معهد أو مصحة لعلاج المدمنين اسمه ويليام بوث انستتيوث (William Booth) .. وبعد خمسين مترا من المسجد تفاجأ بالساقطين على قارعة الطريق من فرط الإدمان والشراب[٢].

(١) سنة ١٩٨٠م.

(٢) كان هذا فى عام ١٤٠١ هـ-١٩٨٠م- وفى آخر زيارة لاستراليا عام ١٩٨٨ هدم مصنع البيرة الذى أشرت إليه حيث نقل إلى مكان آخر..!

قلت فيما سبق .. أن استراليا بدأت تعرف فى تاريخنا الحديث منذ عام ١٧٧٠م. ثم اتخذتها بريطانيا منفى للمجرمين والخارجين على القانون فى عام ١٧٨٨م.. إلا أن الصورة تغيرت بعد ذلك حين أعلنت استراليا بلدا حرا مفتوحا فى عام ١٨٤٠م.

لقد بدأت استراليا مرحلة جديدة.. وبدأت الهجرة إليها بكثرة وتسابق الناس إلى السفر إليها طمعا فى الثروة.

ولكن كيف ...؟ لقد وقفت الجبال والقفار حائلا وسدا منيعا أمام هذا التحول.. وبقيت استراليا لغزا أو طلسما.

فمن الذى يفسر هذا اللغز؟ ويكشف أسرار هذا الطلسم؟

إنها الجمال.. والرجال الذين يقودون هذه الجمال.. وبخاصة من بلاد "كشمير" و"بشاور" وبلاد الأفغان".

وكانت هذه أول خطوة للإسلام فوق أرض الاسترال.

كان أول من وصل إلى استراليا من المسلمين ثلاثة رجال من أهالى "كشمير" نزلوا فى "مليون" ومعهم أربعة وعشرين جملا. ثم جاء من بعدهم اثنا عشر مسلما ومعهم مائة وعشرون جملا.. ثم تتابع وصول هؤلاء المسلمين فى موجات متتابعة ومعهم الألوف المؤلفة من الجمال.

كان لهؤلاء المهاجرين الفضل فى اكتشاف أعماق هذه القارة وفى الربط بين أجزائها المختلفة... وفى مد خطوط التلغراف. ونقل صناديق الطعام والمياه وفى حمل المعدات والالآت وبعبارة موجزة : كان هؤلاء المسلمون شريان الحياة وفرسان الأمل والنجاة.

وقد حافظ هؤلاء المسلمون على عقيدتهم بحرارة، وراحوا يبنون المساجد

فى كل مدينة حتى بلغ عددها ستة وعشرين مسجدا .

وكان منظرا مألوفا لدى الاستراليين الذين كانوا ينتظرون قوافل هؤلاء الجمالين بفارغ الصبر.. أن يروا هؤلاء المسلمين، وقد أذنوا للصلاة ووقفوا فى خشوع بين يدى الله.

لقد حمل هؤلاء الإسلام إلى كل بلد سافروا إليه من (أدليد)[1] جنوبا إلى (داروين)[2] شمالا.. ومن (سيدنى) [3]شرقا إلى (بيرت) [4]غربا ومن (برزين)[5] فى أعلى القارة إلى (ملبون)[6] فى أقصى الجنوب.

لقد قرىء القرآن فى صحراء (فيكتوريا) قبل أن تقرأ الترانيم المسيحية وارتفع صوت (الآذان) فى (كوينزلاند)، قبل أن يدق الناقوس فوق الكنائس فى (أليس‌سبرنج)..!!!

* * *

ومن طريف مايذكر عن تاريخ الجمل فى استراليا أنه كان ثمة عوامل ارتباط بين نسبة الجمال فى استراليا ونسبة الأفغان ومن أشهر الأسماء اللامعة فى هذا الصدد تلك الشخصية الأسطورية التى دخلت فى الأدب الاسترالى التاريخى المعبر عن النصف الثانى من القرن التاسع عشر وهى شخصية (عبد الودى)[7] وغيرها مثل شخصية "على" الفيلسوف و"فايد محمد" الفارس وكلها

---

(١) أدليد: عاصمة جنوب استراليا.

(٢) داروين: عاصمة الحدود الشمالية.

(٣) سيدنى: عاصمة ولاية نيوسوث ولز وهى من أهم مدن استراليا .

(٤) بيرث: عاصمة غرب استراليا.

(٥) برزين : عاصمة ولاية كوينز لاند.

(٦) ملبورن : عاصمة ولاية فكتوريا.

(٧) تحريف لكلمة عبد الودود..!

شخصيات كان للجمل والناقة دور مهم على مسرح أحداثها.

ومما يروى أن هـــذه الطائـفة من الماهــدين "لثقـافـة الجمـل" (Camal Culture) فى استراليا والتى تجمع بين القومية الأفغانية والدين الإسلامى وتقاليد الأعراب من أصحاب الجمال والنوق. إنهم احتفظوا بأزيائهم القومية الأولى ولم يغيروها كما احتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم فى الضيافة والكرم.

وعندما قدموا لأول وهلة إلى استراليا يقودون جمالهم كانوا ذكورا بلا إناث ومن ثم اضطرتهم الظروف للزواج من نساء استراليات مما أدى إلى سرعة الإندماج والتكامل فى مقامهم الجديد. ومما أدى أيضا فى المدى الطويل إلى إنتاج سلالة من الاستراليين تجمع بين خير ما فى هذا المزيج من صفات جسمية وسمات وملامح وسجايا وخِلال.

ومن أعلام المسلمين الذين تركوا بصماتهم فى التاريخ الاسترالى مسلم أفغانى اسمه شيخ بيجاه درويش. وكان رئيس الجمالين فى حملة كالفرت بقيادة المستكشف ويلز Wales وقد كتب ويلز فى مذكراته عن هذا الشيخ قصة شيقة تؤكد ما كان لهؤلاء المسلمين من فضل وأى فضل.

يقول ويلز..

لقد أظهر "شيخ بيجاه" قوة فائقة على الاحتمال وقد أنقذنى أنا ومن معى من هلاك محقق.. وأنا أدين له بحياتى .. فقد ضلت القافلة الطريق، ومضى على الجمال سبعة وعشرون يوما لم تذق فيها قطرة ماء.

وهنا التفت إلى شيخ بيجاه وقلت له :

ها قد نفد الماء .. وأوشك الطعام على النفاد ولم يبق إلا أن تعرض على الجمال الصوم عن الطعام كما فرض عليها الصوم من قبل عن الماء..

وبهدوء وطمأنينة ولا مبالاة قال الشيخ "درويش بيجاه".

- وأنا سوف أصوم معها ..!

يقول ويلز:

كانت مفاجأة لي أن يبتسم الشيخ المسلم ونحن على أبواب كارثة.

ثم يقول ويلز:

وفي غمرة الألم والانفعال والخوف حاول اثنان من المكتشفين السير في إتجاه معين للبحث عن ماء .. ولكن "شيخ بيجاه" .. حذرهما من السير في هذا الاتجاه.. لأنه بحاسته الفطرية أدرك فشل هذه المحاولة ثم قال :

لا تفعلوا وإلا فالموت ينتظركم هناك..

فلم يستجب له أحد .. ثم مضيا في الطريق الذي حذرهم منه الشيخ .. وعندما طالت غيبتهما خرج الشيخ "بيجاه" للبحث عنهما بعد يومين.. ثم رجع.. رجع ومعه ما تبقى من حطامهما التالف في غمرة اليأس..!

ويقول ويلز :

بعد هذه الحادثة اشركت معي شيخ بيجاه في قيادة الحملة فسار بنا في درب لم يكن يخطر لنا على بال.. ولم تمض سوى أيام قليلة حتى لاحت لنا من بعد مدينة أدليد(Adiliad).

فوقفت ومن معي خاشعين أمام الرجل الذي وهبنا الحياة.

ويتابع ويلز حديثه قائلا :

لم نشأ أن ندخل مدينة أدليد ونحن في هذه الحال الرثة والضعف لقد آثرت الانتظار ريثما نسترد "أنفاسنا اللاهثة وقوانا المفقودة .. ثم أرسلت بمن

يخبر حاكم المدينة ويحضر لنا شيئا من الطعام .. ثم بقيت طوال الليل أفكر فى المصير الذى كان ينتظرنا، وفيمن أنقذنا.

أهو "إله" بيجاه درويش، وصلواته المخلصة أم إيمانه الذى انتصر به على كل مشكلة، أم هى حاسته الفطرية المرهفة؟

لقد رد شيخ بيجاه ولم يتركنى أسترسل مع كل هذه التساؤلات .. حيث قال:

"إنه ربى الذى أسلمت له وجهى .. ومن يسلم وجهه إلى الله باخلاص يهده إلى سواء السبيل.

وفى الصباح تحركت القافلة إلى أدليد Adiliad واستقبل الشيخ بيجاه درويش كأعظم فاتح. لقد أقيمت له مأدبة ملكية. وأنعم عليه بأرفع وسام وحفر اسمه فى تاريخ استراليا بحروف من نور..!

* * *

ومنذ ذلك التاريخ .. والإسلام ينتشر فى استراليا .. وكان هذا الانتشار مرتبطا بحركة هؤلاء المرشدين والأدلاء من مسلمى الأفغان والهند ثم جاءت فترة ركود توقفت فيها هذه الحركة، وانحصر فيها هذا العدد.

وذلك بعد صدور القانون الذى يحرم على الملونين والآسيويين دخول استراليا فى سنة ١٩٠٢.

لقد ارتفعت صيحات تطالب باستمرار استراليا كدولة بيضاء (Keep Australia Whwite) وطغت موجات العنصرية البغيضة لأى كائن ملون.

وكان هذا القانون بمثابة رتاج أحكم إغلاقه على ٦٠١١ ستة آلاف وأحد عشر مسلما هم جملة من وصل إلى هذه القارة.

وبمرور الزمن .. والبعد عن الوطن .. وفقدان الرائد المسلم وضغوط الحياة المادية وإغراءاتها الشرسة.. بدأت هذه الألوف تتوارى .. وتنكمش ثم تنوب وتتأقلم حتى تزوجت المسلمة بغير المسلم .. ونشأ جيل مخلط ومهجن.. وشيئا فشيئا.. اختفت الشعائر.. وخفت صوت المؤذن من فوق المنائر.. ولم يبق للإسلام في نهاية هذه المرحلة سوى ثلاثة مساجد لم يكن يدخلها سوى قلة لا تتجاوز العشرات[١].

بعد الحرب العالمية الأولى ... وبالضبط في عام ١٩٢٤م بدأت مرحلة جديدة من الهجرة الإسلامية إلى استراليا.. فقد سمحت الحكومة لعدد من الأوروبيين الذين شردتهم هذه الحرب بالهجرة إليها .. فجاء مع من جاء عدد محدود من المسلمين من شبه جزيرة البلقان "بلغاريا.. البانيا .. يوغوسلافيا.. تركيا" ولم يكن هؤلاء القادمون أحسن حالا من المستوطنين الأوائل.. كانوا أشتاتا من المشردين التائهين.. فقد كانت معرفتهم بالدين وتعاليمه محدودة وكان كل همهم موجها إلى البحث عن لقمة العيش.

وبالرغم من تماسك البعض أمام مغريات الحياة الجديدة إلا أن البعض الآخر آثر الدعوة. والاندماج في المجتمع الاسترالي بكل مفاهيمه وعقائده.

* * *

إن استراليا دولة علمانية ... والحرية الدينية فيها مكفولة.. ولكن الجمعيات التبشيرية تعمل هناك بنشاط وهمة .. إن الكنيسة الكاثوليكية مثلا.. تملك إذاعة

---

(١) دكتور على الحديدى مجلة العربى.

خاصة .. ولها مدارسها وجامعاتها الخاصة .. هناك ستجد من يطرق بابك .. ثم يستأذنك فى الدخول لحظة .. وهناك تفاجأ بهذا الزائر يعرض عليك إيمانه ... ويغريك باقتفاء أثر .. وقبل أن ينصرف يترك لك كتابا أو صليبا على سبيل البركة.!

إن للكاثوليك نشاطا واسعا .. وبخاصة بين المهاجرين المسلمين لقد حدثنى مهندس مصرى مسلم أن أول من استقبله. واستضافه كان مندوبا عن الكنيسة.

وشهود "يهوه" أن لهم نشاطا مكثفا.. قوم يتميزون بالبجاحة والالحاح والشراسة .. إنهم لا يكلون لحظة من النهار أو الليل ، ويدخلون إلى كل بيت.. وقد حدث قبل أن أغادر استراليا بأشهر قليلة أن اغتيل أحدهم بعد أن ارتفعت حرارة الجدال والنقاش بينه وبين الرجل الذى استضافه فى بيته ..!

إن بين يدى خريطة وضعتها الكنائس الاسترالية لتنصير المسلمين فى العالم كله.. وقد اختطت هذه المؤسسات أسلوبا جديدا للتنصير المقنع. أو الذبح بدون إراقة دم..!

* * *

ولعل أكثر ما يشد انتباه الباحث فى الهجرات الإسلامية إلى استراليا سكان جزيرة (فيجى) وهى إحدى الجزر القريبة من استراليا وكانت إلى عهد قريب تحت الوصاية الاسترالية ثم نالت استقلالها.

فالجالية المسلمة فى هذه الجزيرة أقرب جاليات المنطقة إلى الإسلام الصحيح وأكثرها شبها بالعرب بملامح أفرادها وسمتهم العربى الخاص، وقامتهم الفارعة وأسمائهم العربية واعتزازهم بالنفس والكرامة والدين.

من جزر (فيجى) كما يقول المسلمون فى هذه الجزيرة يظهر أول ضوء

للنهار ويسمع أول أذان.. وقد انتشر الإسلام فى هذه الجزر على أيدى العمال المسلمين القادمين من باكستان والهند والذين كانوا يعملون فى مزارع المطاط وقصب السكر وحين رآهم الناس يصلون سألوهم عن أصل هذه العقيدة التى رآها سكان هذه الجزر لأول مرة، ومن ثم بدأ تعرفهم واعتناقهم لهذا الدين.. كما يوجد فى جزيرة نيو كالدونيا (Calidon) التى تقع بين استراليا وبين جزر فيجى حوالى ٢٥٠٠٠٠ مائتان وخمسون ألف مسلم يرجع معظمهم إلى أصل صومالى أو جيبوتى ويتعرضون لغزو تبشيرى لا يملكون إزاءه حولا ولا طولا.

إن لسانى يعجز عن النطق.. وعقلى لا يتصور مثل هذه الغفلة فى الزعماء المسلمين والعرب.

بينما يعيش شعب مسلم كامل فى الأسر والحبس منذ القرن التاسع عشر.!

فى عام ١٩٨٠م كنت ذاهبا إلى المركز الإسلامى فى شارع الكومنولث (Commonwealth) الواقع فى منطقة "سرى هليز"(Shrry Hills) بمدينة سيدنى.. فى مدخل المركز رأيت سيدة سمراء اللون تجلس وحيدة على مقعد. وفى المكتب الخاص بمدير المركز سألت السيدة عن سبب قدومها إلى المركز.

لقد انفجرت السيدة فى البكاء ..! ولم تجد معها أية محاولة للكلام .. انتظرت حتى هدأت .. ثم بدأت تشرح سبب قدومها إلى المركز.

قالت : أنا من جزيرة "نيوكالدونيا".. جئت موفدة باسم المسلمين هناك .. إن عددنا يمثل ستين فى المائة من مجموع السكان .. فنحن ننحدر من أصول عربية وأفريقية! ولكن لا أحد يشعر بنا من الأفارقة ولا من العرب. ونكاد ننسى شعائر ديننا حيث لايوجد هناك إمام ولا مسجد.

لكن كيف وصل أجدادكم العرب أو الأفارقة إلى هذه الجزر البعيدة النائية؟

قالت : لقد قدم أجدادنا من بلاد كانت تستعمرها فرنسا من "جيبوتى" - وكانت ملامحها جيبوتية فعلا-.

ومن السنغال ، والجزائر، والجابون، وغينيا، فقد قذفت بهم فرنسا إلى هذا المكان لرفض أجدادنا استعمار فرنسا، وتزعمهم حركة الجهاد والمقاومة ومنذ ذلك الحين لايعرفنا أحد ولا نعرف أحدا .!

* * *

إن أوروبا وأمريكا تقيمان الدنيا من أجل أفاق واحد أوروبى أو أمريكى.. ولكن شعبا مسلما بأكمله لا يشعر به أحد من الأفارقة أو المسلمين. أو العرب.

إن عدد المسلمين فى استراليا يتراوح بين مائتى ألف أو مائتين وخمسين ألفا.

وتعتبر "الجالية التركية" أكبر جالية إسلامية -خارج الإطار العربى- ولهذه الجالية مساجدها الخاصة بها ومن أهم مساجد هذه الجالية مسجد رد فرن Red Fern الذى كان كنيسة فى الأصل .. ثم مسجد أرسكين فيل (Arskinvill) ثم تأتى الجالية اليوغسلافية فى الترتيب الثانى بعد الجالية التركية ولهذه الجالية مسجد خاص أيضا بها.

وهناك بضعة ألوف أخرى - من المسلمين القبارصة والألبان وإن كان عددها قليلا.. وأثرهم ضعيفا.

أما الجالية اللبنانية فتمثل أكبر تجمع إسلامى عربى فى استراليا وفى ضاحية "لاكمبا"(Lakemba) شيدت هذه الجالية مسجدا كبيرا هو مسجد

"الإمام على" الذى يعتبر أكبر مسجد فى مدينة "سيدنى" وفى هذه الضاحية . ضاحية "لاكمبا" يقيم أكثر المسلمين من لبنان وستفاجأ حين تسير فى شوارع هذه الضاحية باللغة العربية مكتوبة على واجهة المحلات والمطاعم.. وستجد الخبز اللبنانى والحلوى اللبنانية معبأة فى أكياس من النايلون..!

وكما هو شأن اللبنانيين فى أى مكان. فقد استطاعت هذه الجالية اللبنانية (مسلمون ومسيحيون) أن تترك بصماتها فى أى مكان تذهب إليه .. بل ستفاجأ بصحف عربية تحمل أسماء -صوت المغترب- وصدى لبنان- والنهار والتلغراف.

وفى الأتوبيس.. والقطار- تفاجأ بالسيدات اللاتى يتجاذبن أطراف الحديث عن أقاربهم الموجودين فى بيروت أو طرابلس..!

ولن تعدم فى وسط الزحام رجلا يمشى متبخترا فى شارع جورج ستريت (Gorgst.) وقد وضع على رأسه الطربوش المائل على رأسه جهة اليمين كما كان يفعل رئيس وزراء لبنان الأسبق رياض الصلح.!

ان أيام العمل فى استراليا. كما هى فى أية دولة أوروبية تبدأ صباح الاثنين وتنتهى مساء الجمعة. ومن ثم لابد من مضاعفة الجهد فى أيام السبت والأحد ومساء الجمعة وقد نظمت لذلك حلقات العلم. ودروس تعليم اللغة العربية. أما بالنسبة لى شخصيا فقد كانت الصحف تعلن مشكورة عن تواجدى فى المسجد من الساعة الحادية عشرة صباح كل يوم إلى الساعة الخامسة.

ولقد كانت هذه الفترة... فترة عمل مستمرة.. إما فى تلبية الدعوة إلى كنيسة أو إجراء حوار فى جامعة .. أو مناقشة الاستراليين الذين كانوا يحضرون إلى المسجد من الكليات والمدارس الجامعية المختلفة.

* * *

لقد تبين لى .. منذ الشهر الأول بعد وصولى استراليا.

أن قوة الإسلام وبقاءه رهينان بخطى دفاع أساسيين لابد من إقامتهما بسرعة.

أما خط الدفاع الأول فيتمثل فى دعم الروابط الأسرية والعائلية بين أبناء الجالية الإسلامية.. ولتوضيح هذه النقطة، ولأهمية هذه الفكرة فقد تبين لى .. أن كثيرا من الفتيات المسلمات يتزوجن من غير مسلمين. وهو شىء منطقى فى مجتمع مادى .. وشىء طبيعى أيضا.. حين تتمزق أواصر الإخاء والتعارف بين أبناء العقيدة الواحدة فى بلد علمانى.

ومعنى هذا .. أن الجيل الثالث من المسلمين على الأكثر سينشأ جاهلا كل شىء عن دينه وعن أصله. وبالتالى .. سيعود الإسلام غريبا كما بدأ غريبا فى هذه القارة.

إنك ستفاجأ أيضا عقب وصولك إلى استراليا.. أن كثيرا من المسلمين يتخذون لهم أسماء استرالية مسيحية بدل أسمائهم العربية المسلمة.

إن "محمود" يسمى نفسه "مالكولم" .. و"أحمد" اختار لنفسه اسم "ألن" و"مصطفى" قد يسمى بـ "مايكل"...!

أما : خديجة " فقد اختارت اسم "جوليا".. وفاطمة أصبحت "فاى" أما "عائشة" فقد فضلت اسم "ريتا"...!

* * *

أما خط الدفاع الثانى بالنسبة لبقاء الإسلام واستمراره فى استراليا فهو التعليم .. التعليم الدينى وتعليم اللغة العربية.

إن أكثر أبناء وبنات المسلمين لايكادون يعرفون عن دينهم أو لغتهم شيئا لقد سمعت من كثير من الآباء والأمهات أن أولادهم قبل أن يذهبوا إلى الفراش يؤدون صلاة معينة بعد أن يلوحوا فى الهواء بحركات ترسم صورة الصليب على صدورهم.. لقد سمع الأطفال هذا ورأوه صباحا فى المدرسة.. أضف إلى ذلك أن الوالد يخرج مبكرا إلى العمل .. فإذا عاد.. خرجت زوجته هى الأخرى إلى المصنع.

ثم أن الوالد والوالدة أصلا.. لا يصليان.. أو يؤديان شعائر الدين لقد أصبح الدولار إلهاً.. وهم المهاجر من هؤلاء أن يشترى بيتا .. ويملك سيارة.!

فإذا علمت بعد ذلك .. أن أكثر المهاجرين إلى استراليا. هم من الطبقات الدنيا.. ومن العمال والحرفيين الذين وجدوا فى استراليا ما لم يجده قبل ذلك أصلا.. يمكن أن تتصور مدى الاهتزاز النفسى فى أعماق هؤلاء الذين فوجئوا.. بأسلوب الحياة المتطور.. ومناخ الحرية المتقدم.

إن هذه القضية.. قضية التعليم الإسلامى هى أخطر هذه القضايا جميعا.. صحيح أن هناك دروسا تلقى فى بعض الأماكن لتدريس مبادئ الدين واللغة.. ولكن التلميذ المسلم يتلقى هذه الدروس من غير أكفاء.. وفى وقت يشعر فيه بالضيق من كثرة الأعباء.

وقد حدث أثناء مشاركتى فى مؤتمر الدعوة الإسلامية لمنطقة جنوب شرق آسيا والباسفيك الذى انعقد فى كوالا لمبور فى مارس ١٩٨٠م، أن التقيت بالشيخ الصالح الورع المرحوم عبد الله النورى من كبار علماء الكويت.. فعرضت عليه هذه المشكلة.. فأبدى استعداده لشراء بيت يستعمل كمدرسة فى البداية.. فوافق الرجل على هذه الفكرة.. ثم حضر فى شهر سبتمبر ١٩٨٠م ومعه مائتا ألف دولار لهذه المهمة ووعد بمائة ألف أخرى إذا كان فى العمر بقية.

لقد تم شراء بيت كبير فى منطقة اسمها هبرفيلد(Huber Field) وسجلت المشروع كوقف.. واخترنا له مجلس أمناء من مختلف الجنسيات ونص فى العقد.. أنه فى حالة عدم اتمام هذا المشروع تعود الأموال إلى أصحابها من غير نقص.

* * *

إن العمل الإسلامى فى استراليا، بل وفى أوروبا يتسم بالأنانية والضحالة إن فرسان هذه الحلبة صدفة خالية من اللؤلؤ... ولك أن تتصور ماذا يفعل محام جاهل يترافع عن قضية برئ اتهم بالقتل.. إن المتهم البرئ يساق إلى ساحة الإعدام بدفاع هذا المحامى الذى لا يجيد حتى القراءة والنقل..!

هل سمعتم بقصة المشعوذ.. الذى احترف الطب..

لقد قرأ المسكين أن الحبة السوداء دواء من كل داء.. فاصطاد صاحبنا حية من هذا النوع الأسود وعالج بها المرضى من طالبى الشفاء فأودى بحياة كل من مد إليه يده من هؤلاء التعساء...!

إن الأصل فى هذه المأساة.. هى "الحبة" لا "الحية" إن نقطة واحدة تحت الباء قتلت من الناس ما لم تقتله الحرب فى المعركة..!

ولأضرب لكم مثلا من استراليا.

لقد ذهبت فتاة خريجة جامعة استرالية .. تشغل منصبا حساسا فى مؤسسات الدولة.

ذهبت إلى متزعم مسلم:

إليكم نص الحوار..

- اسمى هيلين .. وأعمل... وأريد أن أعتنق الإسلام..

فقال لها متحمسا..

مرحبا .. مرحبا..

هل توافقين على قطع يدك إذا سرقت؟

قالت : لا .. لا أوافق..

فقال لها: هل توافقين على أن تقتلى بالحجارة إذا زنيت ...؟

قالت : بالطبع لا ... وألف لا ...

وهنا سكت صاحبنا ...

فقالت له الفتاة..

هل هذا هو الإسلام .. ثم قامت فزعة... ولا يعرف أحد إلى أين ذهبت.؟!

* * *

إن أوروبا.. تنهار .. تنهار روحيا .. وأخلاقيا.. وإنسانيا وليس إلا الإسلام حلا لكل مشكلاتها وأمراضها وعللها.

ولكن كيف؟

إن التناقض الذى يعيش فيه المسلمون يقف حائلا.. وسدا منيعا أمام هذه الظاهرة وهذا التحول.

لقد تعرف شاب من أصل هندى بفتاة استرالية. أحبها ثم اتفق معها على الزواج.

ولكن لابد أن تسلم أولا وهذا شئ جميل.. فكيف عرض عليها الإسلام.

لقد قال لها فى نوبة حماسة وغيره..

– الإسلام يحرم الخمر.. والخنزير، والقمار.

ووافقت الفتاة على الدخول فى الإسلام دون تردد.

وبعد الزواج .. بعد شهر فقط .. دخل عليها صاحبنا وفى يده لفافة.. لقد كانت زجاجة ويسكى..!

وفى أسبوع لاحق .. شاهدته يلعب القمار فى أحد النوادى..

وعلى الفور أمسكت به وطلبت منه الطلاق..

لقد أعلنت الفتاة فى ملأ.. وأمام شهود من الأصدقاء قالت:

إما أن يكون هذا الشاب كاذبا.. وإما أن يكون دينه هو الكاذب..!!

* * *

وهذه هى مأساة الإسلام فى استراليا.. وفى غير استراليا وفى كل أنحاء الدنيا.

* * *

فى يوم أحد، ولم تكن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة صباحا حين رأيت فتاة تقتحم باب المركز الإسلامى فى شارع الكومنولث بمدينة (سيدنى).

لم تكن فتاة عادية .. قامة شامخة .. وشخصية أسرة متحدية وبالرغم من صغر سنها فقد كان والدها يقف بجوارها كتلميذ يطلب من معلمه الرحمة.. أو جندى ينتظر تعليمات قائده فى المعسكر أو الثكنة قالت :

اسمى (جودى) طالبة بالسنة النهائية فى المدرسة العالية بضاحية (ستراثفيلد) أما والدها فاكتفى بتقديم نفسه كموظف سابق فى جيوش الخلاص.

* * *

بعد كلمات المجاملة المعروفة قالت الآنسة : إننى فتاة حائرة لم أجد حتى الآن ما يطمئن إليه قلبى فى أى دين أو أية عقيدة .. حتى الإسلام.. صورته فى عقلى مشوشة وما أراه أو أقرأه ينفرنى منه ومن المسلمين فى أية دولة..! غير أن صديقة لوالدتى كانت قد شاركت فى إحدى نداوتك فنقلت إلى والدتى صورة تختلف تماما عما ينشر ويقال عن الإسلام هنا فى استراليا.. لهذا جئت لأعرف منك الحقيقة.

ستجديننى عند حسن ظنك .. لكن ماذا عن والدك؟ أليس من اللائق أن نعرف رأيه .. إن مكانة (الوالدين) فى الإسلام تأتى بعد الإيمان بالله ورسله.. وهنا كانت المفاجأة.. لقد اعترف المستر(دونالد) بأنه ملحد.

فجأة دق جرس التليفون .. كان المتحدث على الطرف الآخر من الخط القس البروتستانتى (مارك) كان يسألنى عن حكم الإسلام فى الانتحار وبخاصة بعد هذه الضجة التى أثارها بعض علماء النفس والاجتماع على صفحات جريدة (سيدنى مورننج هيرالد) بإباحة انتحار وتقرير حرية الاختيار للإنسان فى الحياة أو الموت.. قلت للأب (مارك) أعتقد أن نظرة الإسلام إلى هذه القضية لا تختلف كثيرا عن نظرة المسيحية إلى هذه القضية فحياة الإنسان ليست ملكا له.. حياته كلها روحه جسده .. وكل قطرة دم تجرى فى عروقه أو ينبض بها قلبه كلها ملك لخالقه .. ومن الطبيعى أنه لايجوز لأى إنسان أن يتصرف فى ملك غيره إلا بإذنه ولأن الله لم يخلق هذه الحياة عبثا.. ولم يتركنا فيها سدى فقد بعث الله

الرسل وأنزل الكتب ليبين للناس ما يجب عمله وما يجب تركه وليحصن حياة هؤلاء الناس بالإيمان الذى يواجهون به الشدائد ويضمدون به جراح المصائب

إن الإيمان هو الروح التى تضبط سير الحياة فى هذا الكون كما تضبط حركة الحياة داخل الإنسان الذى استخلفه الله فوق هذه الأرض فإذا ذهب الإيمان اضطربت حركة الحياة فى هذا الكون. وسيطر الخوف والقلق على كل كائن حى.. ومن هنا يفكر بعض الناس فى الانتحار أو الموت.

* * *

ما كدت أعيد سماعة التليفون إلى مكانها حتى رأيت المستر (رونالد) قد انكفأ على نفسه وبدأ كشبح..! أما ابنته الآنسة (جودى) فقد تسلمت منى الإجابة عن أسئلتها التى أصرت أن تكون مكتوبة حتى تعود إلى مراجعتها فى البيت.. ثم انطلقت ومعها والدها فلم أعد أسمع عنهما أى شىء.

* * *

بعد خمسة عشر يوما بالضبط كنت أغادر القطار فى المحطة الرئيسية بمدينة "سيدنى" متجها إلى المسجد.. وما كدت أضع قدمى على رصيف المحطة حتى فوجئت بالآنسة (جودى) ووالدها ينزلان من قطار آخر فى الوقت نفسه.

لكن المفاجأة الأكبر كانت فيما يحملان بين أيديهما من كتب.

لقد كانت الآنسة (جودى) تحمل معها كتاب (لماذا اخترنا الإسلام؟).

أما والدها فكان يحمل نسخة مختصرة لترجمة معانى القرآن.!!!

* * *

إن المكالمة التليفونية التى وقعت مصادفة مع القس (مارك) عن العلاقة بين

الانتحار والالحاد قد زلزلت كيان الأب والإجابة التى حملتها ابنته معها إلى البيت كانت قد أشعلت شرارة الإيمان في القلب وها هو المستر (دونالد) يعود فى صورة أخرى تختلف عما كان عليه من قبل.

لقد رجعت إليه الطمأنينة والسكينة فعادت الحياة إليه فى أبهى وأجمل صورة ثم جلس وابنته يسألاننى عن الصلاة وكيف يؤديانها أفرادا أو فى جماعة.

إن (جودى) لم تعد متمردة وأن أباها الملحد لم يعد ملحدا ..!!!

* * *

فى الصين

من

سنجيانج

إلى

نهر اللؤلؤ !

إذا كان الإمام الشافعى يقول: سافر تجد عوضا عمن تفارقه فقد وجدت هذا "العوض" فى مدينة "كوتابارو" عاصمة (كلينتان) فى ماليزيا.

فى هذا المكان السحرى الغامض التقيت بالشيخ"الياس" إمام مسجد "أم المسلمين" فى الصين ..!!

لقد فاجأنى الشيخ إلياس أنه كان عضوا فى البعثة الصينية التى درست فى الأزهر على نفقة الملك فؤاد..!!

ثم فاجأنى ثانية بأنه له اسما آخر فرضته الحكومة الصينية غير اسمه الذى يعرفه به الناس ..!!

وقد تأكدت من هذه التسمية "الإجبارية" التى تفرضها الحكومة الصينية على المسلمين عند زيارتنا لنائب رئيس الجمعية الوطنية فى الصين أن اسمه الحقيقى هو "إبراهيم يزدى" أى مسلم. ولكن الحكومة تناديه باسم آخر لا صلة له باسم إبراهيم النبى..!!

الصورة تكررت مع المترجمين الذين كانوا يرافقوننا فى هذه الرحلة.

كانت المترجمة الأولى اسمها "زينب" وقد اعتقدنا جميعا أنها مسلمة إن لم تكن من محاسيب أم هاشم..!!

فإذا بنا نكتشف أن لا صلة لها بالسيدة زينب ولا بالسيدة أم هاشم..

بل كانت شيوعية ملحدة لا تعترف بالنار كما لا تعترف بالجنة..!!

فقد تركت الحكومة الصينية الحرية لكل مترجم أو مترجمة اختيار الاسم الذى تحبه أو تراه من اللغة التى تترجم منها إلى اللغة الصينية.

فالذى .. أو التى .. تترجم من العربية تختار لها اسما عربيا والتى تترجم

من الانجليزية تختار لها اسما سكسونيا ..!!

هل هى مجاملة ؟ أم خديعة ؟ أم حيلة من حيل المخابرات التى تستهدف الإيقاع بالضحية أو الفريسة..!!

نعود مرة ثانية إلى مولانا .. أو الملا الشيخ الياس..

فقد سألته عن قصة مسجد "أم المسلمين فى الصين" ولماذا أطلق اسمها على هذا المسجد الكبير فى "تانكين"..!!

وهنا ابتسم الشيخ إلياس، وعادت إليه حيوية شاب بالرغم من أن سنه قد بلغ الثمانين..!!

قال : إن أحد أباطرة الصين أعجب بجمال فتاة مسلمة فتقدم يطلب الزواج منها فاشترطت عليه "مهرا" تعجب منه الامبراطور .... إن الفتاة الجميلة المسلمة لم تطلب منه مالا ولا قصرا .. بل طلبت منه بناء مسجد ضخم كما اشترطت عليه تزويد هذا المسجد بالدعاة والأئمة من أهل العلم..!!

الامبراطور وافق كما أمر بتزويد المسجد بجميع المرافق، ولم يكتف الامبراطورر بكل ذلك بل زاد عليه الانفاق على جميع العاملين فى هذا المسجد من العامل، إلى العالم..!!

المسجد تحول بعد ذلك إلى منارة.. فقد تضاعف فيه عدد المصلين بعد شهر واحد.. ولايكاد يمر يوم حتى يزيد عدد المصلين فيه على اليوم السابق..!!

لهذا اختار المسلمون اطلاق هذا الاسم على المسجد، وبالرغم مما حدث أيام الثورة الثقافية، فلا يزال هذا المسجد – كما كان – منارة تهدى الحائرين إلى طريق الحق، وتنبه الغافلين والتائهين إلى العودة إلى الله بعد محنة الالحاد التى أساءت إلى كل شىء مقدس وجميل بين طبقات الشعب.!

إن كلمة "الصين" كانت مألوفة ومشهورة فى قريتنا منذ أيام الطفولة : فقد فرضت الصين وجودها واسمها على كل "طبق" يقدم فيه الطعام.. بل فى كل قدح من القهوة يقدم إلى الضيوف الكرام..!

وكيف لا تكون "الصين" فى قريتنا مشهورة.. وفيها العشرات من أساتذة الأزهر وعلمائه الذين يرددون كل يوم تلك الكلمة المأثورة (اطلبوا العلم ولو فى الصين).

وسواء أكان ذلك قولا مأثورا. أو حديثا نبويا. فقد ترك هذا كله فى خيالنا أثرا يشدنا إلى هذا البلد البعيد من أقطار الشرق وأشعل فيها جذوة العلم المقدسة إلى حين التحاقنا بحلقات الدرس والعلم.

ان أسماء مثل "شنغهاى" و"بكين" و"كانتون" و"النهر الأصفر" و"نهر اللؤلؤ" و"نهر التنين الأسود" و"شاينج كاى شيك".. لم تكن غريبة على مسامعنا فى هذه الفترة المبكرة من العمر.. كانت أحداث الحرب اليابانية الصينية من أهم الأخبار فى صحيفة "المصرى" اليومية.

ولا أزال أذكر حتى هذا اليوم صور المعارك الطاحنة التى كانت تدور بين الصين واليابان فى هذه الفترة من أواخر الثلاثينات فى الصفحات الأولى من هذه الصحيفة. كما لا أزال أذكر التحليلات السياسية لأسباب هزيمة الصين فى هذه الحرب وكيف لعب (الأفيون) دوره فى إنهيار هذه الامبراطورية الشاسعة بملايينها الهائلة. بل كيف حاول الغرب الاستعمارى -بقيادة بريطانيا- تخدير هذا المارد العملاق حتى لا يفيق من نومه لحظة واحدة..!

تقول كتب التاريخ (١):

---

(١) الشرق الأقصى : دكتور جلال يحيى .. ص٥٠ ومابعدها، طبعة القاهرة

كان الأفيون يأتى من فارس وبلاد الهند إلى التجار الانجليز فى ميناء "كانتون".

وقد ذكر الممثل البريطانى[1] فى "كانتون"، فى عام ١٨٣٦م، أنه أى الأفيون كان "أهم جزء من تجارة وارداتنا".

وكان التهريب يتم بتشجيع وبمشاركة من جانب "جمعية التجار" وبعض الموظفين الصينيين.

وفى عام ١٨٣٩ رغبت حكومة الصين فى أن تطبق إجراءات المنع بشكل فعال، ولا شك فى أنها كانت ترغب فى أن تظهر للتجار الانجليز أنها قادرة على حماية بلادها من هذا السم اللعين.

فقررت الحكومة الانجليزية إعلان الحرب على الصين لمحاولتها منع تجارة الأفيون.!

ولقد استمرت "حرب الأفيون" ثمانية عشر شهرا. وبعد أن كان الانجليز قد أملوا فى أول الأمر فى نجاح عملية بحرية -ضرب القلاع الموجودة عند مصب نهر "سى كيانج" اضطروا إلى نقل العمليات إلى منطقة "يانج تسى" واستخدام فرقة انزال. ولقد استولوا على شنغاى فى شهر يونيو١٨٤٢م ثم استولوا بعد شهرين من ذلك على نانكين، دون صعوبة كبيرة.

* * *

فى زيارتى الأخير إلى بريطانيا قدر لى أن أنزل فى فندق قديم قريب من جامعة (لندن اسمه "Russel Hotel") لقد تراءت لى فى أبهاء هذا الفندق وقاعاته صور غلاة الاستعماريين من أمثال (دزرائيلى) و (جلادستون)

(١) أى المندوب السياسى، أو القنصل العام.

و(تشرشل) وتصورت أن الهجوم على معظم بلاد الإسلام ، والشرق خطط له فى هذا الفندق ، وتصورت الأدميرال "سيمور" الذى أطلق مدافعه على مدينة الاسكندرية يقف شاهرا سيفه على ظهر البارجة قبل التحرك..!

لقد كان شغفى بالتاريخ باعثا على استقصاء الحقائق عن هذا الفندق وعن استكشاف غوامض الأحداث بين جدرانه التى يستحيل أن تنطق..!

كان الشاعر الانجليزى "كيلنج" يرى أن الشرق شرق وأن الغرب غرب وأنهما لن يلتقيا، وإنما يمكن لهذا اللقاء أن يتحقق بقوة البوارج.. وغزو الجيوش فقط.. وقد تحولت هذه المقولة أو النبوءة إلى واقع فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.!!!

* * *

قبل هذين القرنين كانت العلاقات بين الشعوب ميسرة وسهلة، فالرحالة المغربى "ابن بطوطة" جال فى مشارق الأرض ومغاربها دون عقبة.

و"ماركو بولو" الايطالى فعل ما فعله "ابن بطوطة" حتى السفاح البرتغالى "ماجلان" فعل بالعالم الإسلامى ما فعل بينما كان دليله فى رحلته المشئومة رجل مسلم اسمه "أحمد بن ماجد" من سلطنة عمان ومسقط.

كان طريق الحرير Silk Road ومضيق باب المندب ومضيق مالقا فى جزر الملايو كانت كل هذه الطرق، وكل هذه المضايق تقع فى بلاد الإسلام الذى أبت سماحته أن يمنع من العبور أى أحد. وكان للمسافرين وعابرى السبيل – فى حضارة الإسلام– من الاكرام والرعاية ما يستحيل مثله فى أفخم فندق.

كنت مشوقا إلى زيارة الصين بعد أن زرت معظم بلاد الشرق الأقصى التى تحيط بها من الشرق إلى الجنوب.

وكانت أمنية غالية لا تتحقق ما لم تكن هناك فرصة من تلك الفرص التاريخية التى يندر حدوثها فى زماننا العجيب وكانت زيارة الصين نفسها ضربا من المحال كالعنقاء والخل الوفى الذى تتحدث عنها الأساطير..!

ولقد أتيحت لى هذه الفرصة على يد وزير الأوقاف الصديق فضيلة الدكتور محمد الأحمدى أبو النور، فقد حرص على تمثيل الأزهر فى رحلته التى تمت بدعوة من حكومة الصين لزيارة المسلمين فى هذا البلد الذى يحرص على مودة العرب والمسلمين.

كانت رحلة تاريخية بكل المقاييس. وكان الأزهر على لسان كل الناس مسلمين وغير مسلمين.

كما كانت هذه الرحلة امتدادا لرحلة أخرى قديمة قام بها الأستاذ المرحوم الشيخ/أحمد الباقورى قبل عشرات السنين.

* * *

فماذا عن الإسلام وكيف وصل إلى الصين ...؟

وماذا عن المسلمين ومكانتهم فى بلد تتكون مساحته من أكثر من أربعة ملايين وثلاثمائة ألف ميل..؟

وماذا عن عدد المسلمين فى بلد يزيد سكانه على بليون ومائتى مليون؟

* * *

كيف وصل الإسلام إلى هذه الأفاق البعيدة من الشرق :

بل كيف ارتفع صوت الأذان على قمم الجبال فى "كانصو" و"سنيانج"؟

يقول المرحوم الأمير شكيب أرسلان :

".. إن الإسلام قديم بالهجرة فى بلاد الصين ويذكر الصينيون أن أول ظهوره كان فى عهد السلطان "تابج" وذلك فى القرن السابع للمسيح وأن أول من دخل من المسلمين إلى تلك الديار رجل من عصبة النبى يقال له :"ابن حمزة" جلا إلى الصين بثلاثة آلاف مهاجر ونزلوا فى "سنغان فو" وأنه جاء على أثرهم مسلمون آخرون من طريق البحر وأقاموا بجهات "يونان".

وقد روى المسعودى فى تاريخه قصة نحكيها من بعض الوجوه. تقول هذه القصة :

إن رجلا من قريش من ولد عبار بن الأسود، خرج إلى مدينة سيراف[1] وكان من أرباب البصيرة وذوى الأحوال الحسنة، ثم ركب منها فى بعض مراكب بلاد الهند، ولم يزل من مركب إلى مركب ومن بلد إلى بلد، إلى أن انتهى إلى بلاد الصين إلى مدينة "ناقو" ثم دعته همته إلى أن سار إلى ديار ملك الصين.

وكان الملك يومئذ بمدينة "همدان" وهى من كبار مدنهم فأقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر أنه من أهل بيت نبوة العرب.

فأمر بعد هذه المدة الطويلة بانزاله فى بعض المساكن. وكتب إلى الملك المقيم بخانقو يأمره بالبحث عنه، وسؤال التجار.

عما يدعيه من قرابة نبى العرب ﷺ .

ويظهرمن كتب العرب أن أول صقع عرفوه من بلاد الصين هو كاشغر[2] وذلك منذ ست وتسعين للهجرة إذ غزاها قتيبة بن مسلم الباهلى فى خلافة الوليد

---

(١) من أعمال فارس.

(٢) وهو ما يعرف الآن باسم "سنيانج"

بن عبد الملك الأموى.

قال ابن الأثير الجوزى فى تاريخه   أنه سار وحمل مع الناس عيالاتهم ليضعهم بسمرقند فلما عبر النهر استعمل رجلا على معبر النهر ليمنع من يرجع إلا بجواز منه .!

فكتب إليه ملك الصين أن أبعث إلى رجلا شريفا يخبرنى عنكم وعن دينكم.

فانتخب "قتيبة" عشرة رجال لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصلاح فأمر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشى وكان منهم "هبيرة بن مشمرج الكلابى".

فقال لهم إذا دخلتم عليه فأعلموه أنى قد حلفت أنى لا أنصرف حتى أطأ بلادهم و"أختم ملوكهم وأجبى خراجهم".!

فساروا وعليهم "هبيرة" فقال لهم ملك الصين :

قولوا لصاحبكم ينصرف فأنى قد عرفت قلة أصحابه وإلا بعثت إليكم من يهلككم . قالوا:

كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها من منابت الزيتون[1] ؟

وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل لسنا نكرهه لا نخافه، وقد حلف أن لاينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية!.

---

(١) يقصد بلاد الشام. سوريا، لبنان، والأردن، وفلسطين

فقال فأنا نحرجه من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيطأه ونبعث إليه بعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها ثم أجازهم وبعث بما ذكر إلى "قتيبة" فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطئ التراب!

* * *

لقد وصل الإسلام إلى الصين فى فترة مبكرة بعد شروق فجر الدعوة الإسلامية بل .. إن كثيرا من المؤرخين يؤكدون أنه كانت هناك علاقات بين الصين وبين العرب عن طريق التجارة. وأن ميناء (كانتون) فى جنوب الصين هو المرسى أو المرفأ الذى ألقى فيه هؤلاء التجار مراسيهم قبل أن يبعث النبى محمد ﷺ وقبل أن يسمع العالم بكلمة إسلام أو كلمة مسلمين.

كما يذكر المؤرخون.. أنه كان هناك طريق أخر.. يطلق عليه اسم طريق الحرير أو "سيلك رود Silk Road " يبدأ من "التركستان الشرقية" فى ولاية "سينكيانج" مرورا بالولايات الإسلامية فى أسيا الوسطى أو "التركستان الغربية" و"ايران" والعراق و"دمشق" و"بيروت" و"اسلامبول"[1] حتى مدينة "البندقية" أو التى تعرف اليوم باسم "فينسيا" فى إيطاليا

وفى أثناء حكم أسرة "تانج" كما يقول بعض مؤرخى الصين وصل أول مبعوث مسلم إلى الصين وكان ذلك فى سنة ٣١ هجرية فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ثم توالت البعثات الإسلامية بعد ذلك إلى الصين حتى بلغ عددها ٢٨ بعثة فى الفترة بين سنتى ٣١هـ ١٨٤م.

ومن ثم بدأ الإسلام ينتشر إلى داخل الصين عن طريق التجار والدعاة الذين بدأوا يفدون إلى غرب الصين من الجمهوريات الإسلامية فى وسط أسيا

(١) اسلامبول هو الاسم الأصلى لمدينة استنبول ومعناه "المدينة الممتلئة بالإسلام".

أو عن طريق ميناء "كانتون" الذى عرفه المسلمون والعرب فى مرحلة مبكرة جدا قبل ظهور الإسلام

ومعنى هذا كله أن الإسلام انتشر سلميا فى بلاد الصين، والحملة التى قادها القائد المنتصر "قتيبة بن مسلم" توقفت عند الحدود الغربية لمنطقة "سنكيانج" واكتفى هذا القائد العظيم بالجزية أو الهدية التى قدمها إليه امبراطور الصين، ولم يتوغل بجيوشه إلى الداخل، بل اكتفى بحفنة من التراب الصينى التى أرسلها إليه امبراطور الصين (ليبر قسمه) حين أقسم أنه لن يرجع إلى "سمرقند" حتى تطأ قدمه تراب الصين وكانت هذه حكمة من الامبراطور.. كما كانت دليلا على سعة أفق القائد المسلم الذى اكتفى بهذا الحل السلمى الجميل.

وقد يكون من المناسب - لتسليط مزيد من الضوء على انتشار الإسلام وتغلغله بين الصينيين -أن تسير مع شيخنا "ابن بطوطة" فى تجواله وترحاله داخل الصين[1]. يقول :

(ركبت النهر على العادة نتغدى بقرية ونتعشى بأخرى إلى أن وصلنا بعد سبعة عشر يوما إلى مدينة"الخنساء" واسمها على نحو اسم الخنساء الشاعرة. ولا أدرى أعربى هو أم وافق العربى).

وهذه المدينة أكبر مدينة رأيتها على وجه الأرض طولها مسيرة ثلاثة أيام يرحل المسافر فيها وينزل وهى على ما ذكرناه من ترتيب عمارة الصين كل أحد له بستانه وداره.

وهى منقسمة إلى ست مدن سنذكرها وعند وصولنا إليها خرج الينا قاضيها "فخر الدين" وشيخ الإسلام بها وأولاد عثمان بن عفان المصرى وهم

(١) رحلة ابن بطوطة -جـ٢ ص٢ ٢-٢٠٣

كبراء المسلمين بها ومعهم علم أبيض والأطبال والأنقار والأبواق وخرج أميرها فى موكبه ودخلنا المدينة وهى ست مدن على كل مدينة سور ومحدق بالجميع سور واحد.

فأول مدينة منها يسكنها حراس المدينة وأميرهم. حدثنى القاضى أنهم إثنا عشر ألفا فى زمام العسكرية وبتنا ليلة دخولنا فى دار أميرهم.

فى اليوم الثانى دخلنا المدينة الثانية على باب يعرف بباب اليهود ويسكن بها اليهود والنصارى والترك عبدة الشمس وهم كثير، وأمير هذه المدينة من أهل الصين وبتنا عنده الليلة الثانية.

وفى اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة ويسكنها المسلمون ومدينتهم حسنة وأسواقهم مرتبة كترتيبها فى بلاد الإسلام، وبها المساجد والمؤذنون سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا ونزلنا منها بدار عثمان بن عفان المصرى وهم على ما كان عليه أبوهم من الإيثار على الفقراء والإعانة للمحتاجين ولهم زاوية تعرف بالعثمانية حسنة العمارة لها أوقاف كثيرة وبها طائفة من الصوفية وبنى عثمان المذكور المسجد الجامع بهذه المدينة ووقف عليه وعلى الزاوية أوقافا عظيمة.

وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير وكانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يوما فكنا كل يوم وليلة فى دعوة جديدة ولا يزالون يختلفون فى أطعمتهم ويركبون معنا كل يوم للنزهة فى أقطار المدينة وركبوا معى يوما فدخلنا إلى المدينة الرابعة وهى دار الإمارة وبها سكنى الأمير الكبير (قرطى) ولما دخلنا من بابها ذهب عن أصحابى ولقينى الوزير وذهب بى إلى دار الأمير الكبير (قرطى) فكان من أخذه الفرجية[1] التى أعطانيها ولى الله جلال الدين الشيرازى ما قد ذكرته.

---

(١) جبة مصنوعة من الحرير

إن ما ذكره ابن بطوطة من حفاوة بالغة قوبل بها فى كل مكان ذهب إليه تذكرنا بتلك الحفاوة التى قوبلنا بها من الأخوة الصينيين فى (كانصو) و(سنكيانج) و(كانتون) و(بكين).

هناك فى مدينة (لانشو) عاصمة ولاية (كانصو) .. وعلى شاطئ "النهر الأصفر" الذى يطلقون عليه "أبو الصين" صعدنا إلى مسجد (تونكانى) الواقع على شاطئ هذا النهر.. وكانت المفاجأة التى لم تخطر لأحدنا على بال منذ فارقنا أرض مصر.

صفان من صغار أطفال المسلمين وقفوا يستقبلوننا بالتكبير والهتاف النابع من القلب.

وبلغة عربية واضحة بدأوا ينشدون نشيد الإسلام الأول الذى استقبل به "الأنصار" قدوم الرسول ﷺ إلى المدينة "طلع البدر...".

لقد خنقتنا العبرات ، وطفرت من أعيننا الدموع، وطغى هذا المشهد الإيمانى على الجميع فلاذوا بالتأمل والصمت.

* * *

فى مدينة "قوانجشو" عاصمة ولاية (كانتون) .. ذهبنا لأداء صلاة الجمعة .. وكانت المفاجأة.. أن المسجد الذى أدينا فيه صلاة الجمعة أطلق عليه مسجد (المشتاق إلى النبى)..؟!

شىء يهز المشاعر والعواطف ويثير فى النفس أنبل الأحاسيس المفعمة بأجمل المشاعر..!!

ولكن تعالوا نقرأ ما كتب فى مدخل هذا المسجد ، وبلغة عربية فصيحة واضحة المعنى والمقصد.

تقول هذه الكلمات :

هذا أول مسجد بنى فى الصين بناء وقاص "رضى الله عنه" إذ دخل هذه الديار لإظهار الإسلام بأمر سيدنا رسول الله ﷺ ثم جدده المتأخرون .. مرة .. بعد مرة.

وإلى الآن حفظه الله تعالى ..

وهو فى الصين مبدأ الإسلام ومنبع العلوم.

فينبغى على مسلمى الصين أن يزينوا ظاهره بالعمارة الحسنة، ويصلحوا باطنه بإقامة الجماعة..!!

لقد أدينا صلاة الجمعة فى هذا المسجد، وقد ناقشنا موضوع هذا المسجد وحقيقة من بناه ، فليس من المعقول أن يكون (سعد بن أبى وقاص) هو الذى بنى المسجد ، والشيء الأقرب إلى الصحة أن يكون هناك شخص يحمل اسمه هو الذى بناه وأطلق اسمه عليه.

وقد زرنا بعد الصلاة المقبرة الإسلامية القريبة من المسجد.. صورة مكررة من المقابر التى تشاهدها حول مسجد الإمام الشافعى أو السيدة نفيسة أو قايتباى بمدينة القاهرة.. مما يؤكد أنه كان للمسلمين فى هذه المنطقة شأن كبير سواء فى حركة الحياة.. أو فى توقف هذه الحركة بعد هذه الحياة..!!

لقد كان فى الصين – كما تقول إحصائية نشرت سنة ١٩٣٥م حوالى "٤٠٠٠٠ أربعين ألف" مسجد(١)، وكان ملحقا بكل مسجد من هذه المساجد معهد لتعليم علوم الدين واللغة العربية.

---

(١) تقويم البلدان الإسلامية – المركز الإسلامى – كراتشى – باكستان.

وفى ولاية (كانصو) على بعد حوالى ١٠٠"مائة" ميل من العاصمة "لانشو" توجد فيها منطقة اسمها (مكة المكرمة).

حتى هذه اللحظة لم تغب عن ناظرى دموع الشوق التى ذرفتها عيون نائب رئيس الجمعية الإسلامية فى هذه المنطقة وهو يدعونا لزيارة "مكة" الصينية..!!! فمن سمع منكم عن "مكة" الصينية هذه .؟!!!

* * *

فى بداية الستينات.. هبت النار فى كل أنحاء الصين فلم تدع قديما ، ولا جديدا إلا أحرقته، ولم تترك وراءها سوى الحرائق التى اكتوى بلهبها كل إنسان كريم حر.

إنها "الثورة الثقافية" التى استهدفت تغيير وجه الصين وتاريخه والتى كانت إعصارا اقتلع كل شئ فى طريقه من الدين.. إلى الأدب.. إلى الثقافة.. إلى الإنسان نفسه حيث أصبح هذا الإنسان فى مفهوم هذه (الثورة) شيئا كغيره من الأشياء التى لم يعد لها ثمن عند جحافل الشباب من الحرس الأحمر.

ولم نجد وصفا لما حدث فى هذه الفترة... أشمل مما كتبه مؤلف (الإسلام فى الصين)[١] لما اتسمت به كتابته من التفصيل والدقة، وبخاصة فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين إبان هذه الثورة.

ولسنا هنا فى مجال تحليل الدوافع التى حدت بالرئيس "ماو" إلى تفجير هذا الزلزال الذى قلب الصين رأسا على عقب طوال عشر سنوات، ولا ما أسفرت عنه هذه الثورة من نتائج، فتلك كلها مسائل مازالت مثار جدل، فضلا

---

(١) (الإسلام فى الصين) ص١٤٤ ومابعدها- من سلسلة "عالم المعرفة" التى تصدر فى الكويت- تأليف فهمى هويدى.

عن صعوبة تحرى الحقيقة سواء فيما يطرح من أسباب أو فيما يرصد من نتائج ، وفى مناخ كالذى تعيشه الصين منذ عام ١٩٧٨م، فإن الجو كله معبأ ضد الثورة الثقافية ولا محل لمناقشة موضوعية هذه القضية.

ولكن الذى يعنينا فى هذا المقام هو تأثيرات هذه الثورة على مسيرة الإسلام والمسلمين فى الصين، وهو جانب يمكن الخوض فيه بلا محاذير لأن عناصره سلبية على طول الخط. وأى استطراد أو تفصيل فى شرور عصابة الأربعة[١]، هو مقبول بل مطلوب ، لأنه ينسجم مع "الخط" المرسوم.

(... تريد أن تعرف ماذا فعلت بنا عصابة الأربعة - سألنى الحاج الياس شين نائب رئيس الجمعية الإسلامية - هذه مسألة يطول شرحها، بل يتعذر الإلمام بها، لأنهم خربوا كل شىء.. فى بلادنا.

* سمعت أن رئيس الجمعية، الحاج محمد على تشانغ[٢]، تعرض للضرب من قبل شباب الحرس الأحمر.

* الملاعين ، لم يتركوا واحدا منا إلا وأهانوه. لقد كان الأذى الذى تعرض له الحاج محمد على محدودا من الناحية المادية، وهو فادح وكبير إذا ما راعينا منصبه. أما ما جرى معى فلا يمكن وصفه، فقد كان من الناحيتين المادية والمعنوية شيئا فظيعا للغاية، الحمد لله، فقد ذهبوا وراحت أيامهم السوداء.

قالها الحاج الياس بمرارة، وعيناه زائغتان فى الفضاء، تبحثان عن شىء أو تستعيدان شيئا.

---

(١) كانت الصحف تطلق على هذه العصابة اسم GANG of FOVR

(٢) زعيم مسلمى الصين.

وعلمت فيما بعد أن الرجل ضرب ضربا مبرحا فى "قانصو" حيث كان نائبا لرئيس الجمعية الإسلامية فى المقاطعة ، وواحدا من تسعة نواب للرئيس يباشرون نشاطات الجمعية فى مختلف أنحاء الصين.

كما علمت أن رجال الدين الذين كانوا موجودين فى العاصمة لم ينلهم كأشخاص أذى بدنى كبير، بسبب وجود سفارات الدول الإسلامية فى بكين.

وحتى لا يطلع الأجانب على عمليات كهذه يقوم بها شباب الحرس الأحمر ولكن الذين كانوا فى الأقاليم لقوا الكثير من الاهانات. فقد اعتقل كثيرون من رجال الدين، مئات منهم اقتيدوا إلى السجون، وعذبوا تعذيبا شديدا والذين لم يسجنوا ضربوا فى الشوارع، أو اقتيدوا وسط تهليل الجماهير وسخريتهم، وقد علقت على ظهورهم كلمات مثل الشياطين والأشباح والغيلان.

ليس هذا فقط ولكن هؤلاء الشبان اقتحموا بيوتهم، وأخذوا ما لقوه من مصاحف وكتب، وأحرقوها علنا فى الشوارع ، على اعتبار أن هذه الكتب تروج للخرافات. وبسبب هذه الحرائق فقد المسلمون مئات من الكتب المخطوطة والنادرة. وهى خسارة فادحة لأن الأسر المسلمة، ورجال الدين خاصة، يحتفظون بعشرات المخطوطات المتوارثة منذ قرون مضت، والتى كان يلجأ المسلمون إلى كتابتها بخط اليد نظرا لتعذر طباعتها .

أهدر هذا الكنز الثمين من الكتب التراثية، وتحول إلى رماد داسته أقدام تلك الحملة المجنونة.

لقد ظلت أعداد كبيرة من رجال الدين حبيسة البيوت أشهراً طويلة، خشية الخروج إلى الشارع والتعرض للإهانة والسخرية، ولكنهم لم يسلموا من ذلك المصير المؤلم، فقد كانوا ينتزعونهم من منازلهم ويوجهون إليهم الشتائم والسباب وكلمات التجريح باعتبارهم رموزا للرجعية.

وامتدت الحملة إلى مساجد التى أغلقت جميعها فى خارج بكين وهدم بعضها وحول البعض الآخر إلى ورش ومخازن ومحال تجارية ..!!

وتعرضت المقاطعات ذات الكثافة السكانية المسلمة إلى قدر متزايد من هذه الإجراءات. حدث ذلك فى مقاطعات "سينكيانج" و"كانصو" و"نينغشيا" بوجه أخص.

وقد أبقوا على مسجد واحد فى "بكين" (مسجد تونج سى بالو) ليصلى فيه الدبلوماسيون العرب فى الأعياد والمناسبات. وقد قال لى أحد هؤلاء الدبلوماسيين أنه ذهب إلى مسجد العاصمة لصلاة الجمعة فى ذلك الحين، فلم يجد سوى خمسة أشخاص فقط : الإمام، ومساعده والمؤذن ، وخادمان.

وقال لى الحاج محمد على رئيس الجمعية الإسلامية أن من كان يريد أن يؤدى الصلاة العادية فى بيته آنذاك كان يتخفى فى ركن جانبى، ويؤدى الفريضة بينما هناك من يحرسه ليحذره من أى قادم يضبطه (متلبسا) بالوقوف بين يدى الله.

وكان طبيعيا أن يتعرض ما تبقى من أضرحة يقصدها المسلمون إلى عمليات الهدم والإحراق، وسط تهليل وصيحات شباب الحرس وأشياعهم.

حدث ذلك بوجه خاص فى مقاطعتى "نينغشيا" و"جيلين".

وإلى جانب هذه الإجراءات ، فقد اتخذت خطوات أخرى فى الاتجاه ذاته.

* أغلقت المطاعم الإسلامية، التى كانت تقدم وجبات للمسلمين خالية من شحم ولحم الخنزير.

* منع المسلمون فى مقاطعة "سينكيانج" من استخدام الحروف العربية فى الكتابة وأجبروا على استخدام الحروف الصينية، وهذه الحروف العربية

يستخدمها المسلمون ذو الأصول التركية، الذين يعرفون بقومية (الاويغور).

* منع المسلمون فى مناطق الكثافة السكانية الإسلامية من ارتداء ثيابهم القومية، وأجبروا على استخدام الثياب الرسمية الزرقاء اللون (الجاكت المغلق والبنطلون).

* جرت عمليات تضييق على المسلمين فى تقاليدهم وحياتهم الخاصة، فقد أعلن وقتئذ أن كل مسلم-مثلا- يموت يأخذ ١٥قدما من القماش الأبيض للكفن وذلك بمقتضى كوبونات خاصة تعطى المسلمين هذا الحق فى حالات الوفاة مراعاة لتقاليدهم. ولكن قيادة الثورة الثقافية اعتبرت هذا الاستثناء عبئا اقتصاديا على الدولة فضلا عن أنه "عادة رجعية" يجب التخلص منها، وفعلا أوقف صرف هذه الكوبونات للمسلمين.

وكان مما أثار انزعاج المسلمين أكثر وأكثر أن أصواتا دعت أثناء الثورة الثقافية إلى احراق جثث موتاهم، أسوة بغيرهم من الصينيين بحجة أن مقابر المسلمين تحتل مساحات من الأرض، مما يعيق فرص استثمار هذه الأراضى بصورة اقتصادية أفضل. ويبدو أن رد فعل المسلمين كان عنيفا بدرجة أوقفت تنفيذ هذا الاقتراح.

وسمعت من شاهد عيان عاش تلك التجربة أن المسلمين ذهبوا بأنفسهم لحماية مقابر موتاهم، وكانوا مستعدين للصدام مع شباب الحرس الأحمر إذا اقتربوا منها.

وروى هذا الشاهد كيف أن المسلمين فى "بكين" ذهبوا لتطويق المقبرتين المخصصتين لهما فى أطراف العاصمة، فتجنب شباب الحرس الصدام معهم بينما هدموا مقابر المسيحيين، التى كانت بغير حراسة واستقدموا جرارات لتسوية الأرض وحرثها، بحجة تحويلها إلى أرض زراعية لزيادة الإنتاج.

وخلال هذه المرحلة أيضا تم تهجير بعض المسلمين من مراكز تجمعهم وتوزيعهم على مختلف المقاطعات ، واستقدام صينيين من قومية "الهان" و"زرعهم" وسط تجمعات المسلمين.

وقد تم ذلك كله وسط جو اعلامى شن حملة عنيفة على الأديان جميعا، وكل "الغيبيات الموروثة عن عصور المجتمع القديم، داعية إلى "القضاء على بورجوازية الفكر والتقاليد التى تقف حجرة عثرة فى طريق التطبيق الاشتراكى"..
إلى آخر تلك الصياغات التى تهدم فى حقيقتها كل ما أعلنته الثورة فى عام ١٩٤٩م من شعارات وضمانات تحمى المتدينين وحرية الاعتقاد.

وكما كان للإسلام موقع متميز بين الأديان الأخرى منذ بداية الثورة، فقد كان له نصيب متميز – بنفس القدر– من إجراءات القمع وعمليات التشهير والتجريح حتى أن الثورة الثقافية شكلت منذ بدايتها "مجموعة ثورية لمقاومة الإسلام" ، تولت ترتيب وإصدار كل هذه الإجراءات، وغيرها بطبيعة الحال(١).

بهذه الصورة مرت على المسلمين سنوات الثورة الثقافية العشر من ١٩٦٦م إلى ١٩٧٦م التى أعادت إلى أذهانهم ظلمات العهود الغابرة، وبددت كل ما تعلقوا به من أحلام وأوهام، وأهدرت كل ما أنجزوه وبنوه منذ إعلان الجمهورية فى عام ١٩١١م، وسدت طريق الأمل الذى انفتح أمامهم عشية "التحرير" فى عام ١٩٤٩م، وبدا المستقبل أمامهم قاتما وكئيبا، لا يرون فى آفاقه سوى سحابات حزن لا نهائى..(٢)"



---

(١) "الإسلام فى الصين" ص١٤٩ ومابعدها. من سلسلة "عالم المعرفة" التى تصدر فى الكويت– تأليف :فهمى هويدى.

(٢) انتهى من كتاب (الإسلام فى الصين).

كانت الصورة التى تركتها هذه الثورة هى صورة (يأجوج ومأجوج) الذين تحدث عنه القرآن الكريم فى سورة "الكهف" لقد لطخوا صورة الصين فى العالم بلون الدم ولعبت النبؤات القديمة دورها فى قرب نهاية العالم وقدوم "هولاكو" متأبطا ذراع "ماوتسى تونج" ليبدأ الأخضر واليابس من على وجه هذه الأرض ... وليثيرا الفزع والرعب فى قلب كل كائن حى.. ولكن هذه العاصفة قد -اكتسحت- فى النهاية مثيريها والنافخين فى أتونها .. فكما يخرج اللبن- من بين فرث ودم- خرجت الصين من بين هذه النار لتتلمس طريقها الجديد إلى الحرية والرخاء والتقدم، ولتدفن- وإلى الأبد- اشباح هذه الهمجية وفى مقدمتهم عصابة الأربعة أو (GANG of FOVR) .

* * *

كانت هذه الفترة ظاهرة وافدة على الصين وتاريخها فى السلام والأمن، وقد ذكر "ابن بطوطة" فى رحلته العجيبة إلى الصين أنها - أى الصين- آمن البلاد وأحسنها حالا للمسافرين فإن الإنسان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليه وترتيب ذلك أن لهم فى كل منزل ببلادهم فندقا عليه حاكم يسكن به فى جماعة من الفرسان والرجال فإذا كان بعد المغرب أو العشاء الآخرة جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين وختم عليها وأقفل باب الفندق عليهم فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه فدعا كل إنسان باسمه وكتب بها تفسيرا وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل الثانى ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه وهكذا العمل فى كل منزل ببلادهم من صين الصين إلى خان بالق وفى هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافر من الازواد وخصوصا الدجاج والأوز وأما الغنم فهى قليلة عندهم(١).

(١) رحلة ابن بطوطة.

وقد خرج المسلمون من هذه المحنة أشد إيمانا وقوة، فقد أعيد فتح المساجد بعد أن تم إصلاح ما خرب، وعادت الدراسة الإسلامية إلى المعاهد بعد أن خرجت الحرية من السجن، وبعد أن لعلعت أصوات المؤذنين فى (بكين) و(شنغهاى) و(كانتون) و(كانصو) و(سنكيانج).

* * *

لكن ماذا كان موقف هذه الثورة من المسيحية ؟

لقد قضينا فى الصين أكثر من خمسة عشر يوما لم تصادفنا فيها كنيسة واحدة ولم نسمع بالمسيحية - إلا فى مدينة قريبة من (قوانجشو) عاصمة ولاية (كانتون) حيث قال محدثنا:

إنه يوجد هنا فى هذه المدينة مسيحيون وكاثوليك.

فلما سألت مستفسرا عن الفرق كان جوابه :

نحن نعتبر "الكاثوليك" ديانة مستقلة عن المسيحية ..!!!

* * *

فى كتاب (عربى فى الصين)[1] دار هذا الحوار بين المؤلف والمترجمة "الصينية" (لى) عن الدين .

قلت لها: قد يكون صحيحا أن المسيحية كانت محرمة عليكم إلى أن جاء الامبراطور (كانج سى) عام ١٦٦٥م وسمح لرجال الدين المسيحى بممارسة مسئولياتهم .. ولكن الصحيح أيضا أن الصين لم تكن يوما دولة بلا دين .. أى دين حتى دين كونفوشيوس.

---

(١) تأليف ناصر الدين النشاشيبى - ص ٢٩٦ ومابعدها

قالت : ولكن الدين المسيحى لم يدخل علينا إلا مع الأفيون على أثر انتصار عرش (مانشو) بمساعدة القوى الاستعمارية وارغامنا على فتح أبواب بلادنا للمسيحية.. وللأفيون معا.

قلت فى حنق :

وهل ننسى أن البعثات البروتستانتينية والكاثوليكية إلى الصين هى التى أدخلت اليكم العلوم الغربية، والطب ؟

قالت لى :

لا.. لن ننسى كل ذلك ، ولكننا لن ننسى أيضا أن تلك البعثات الدينية (التبشيرية) هى التى تحالفت مع الاستعمار ضدنا.. وهى التى تحالفت مع (شانج كاى شك) وطالبت بالتدخل الأمريكى المسلح ضد ثورتنا فى عام ١٩٤٩م وهى التى انتقمت قبل ذلك من ثوار (بوكسر) عام ١٩٠٠م لقيامهم بالثورة ضد الاستعمار.. وعلقت على المشانق عشرات بل مئات من شباب الصين فى المنطقة الشمالية .. ثم لا ننسى ما كانت تمتلكه تلك البعثات الدينية من مبان وأراض ومنشآت تقدر قيمتها بملايين الدولارات بينما أعطى أصحابها نوعا من العيش يختلف فى حياتنا .. يختلف عن مفهومنا .. عن تفكيرنا.

بل إن بعض تلك البعثات كانت ترفض أن تدفع أية ضريبة على أملاكها للدولة بحجة أنها مسئولة فقط أمام الدولة الأجنبية التى تنتمى إليها.

وسكتت (لى) قليلا قبل أن تقول :

إذا كان شعورنا الحالى هو الشعور العدائى نحو الكنيسة ، فإن شعور الكنيسة نحونا لم يكن أقل عداء .. ولا أقل كراهية.

قلت لها : هل أفهم من حديثك أن الكنائس قد اقفلت أبوابها فى الصين ؟

قالت : لم يبق – على ما أعتقد– أكثر من مائة قسيس من مجموع الخمسة آلاف وخمسمائة قسيس أجنبى.

قلت لها فى ذعر : وأين ذهبوا ...؟

قالت : بعضهم سافر .. وبعضهم ترك خدمة الدين .. وبعضهم مات .. وبعضهم فى السجون بتهمة التجسس.!

وهنا قررت أن أنهى حديثى عن الدين مع (لى) ولم أعد أطرق هذا الموضوع من بعيد أو من قريب إلا عندما التقيت بشاب باكستانى خارج من مكتب شركة الخطوط الباكستانية في "شنغهاى" وبادرته بالتحية الإسلامية المعروفة : "السلام عليكم" وإذ بالباكستانى يرد على الفور: (سلام عليكم) ، وسألتنى (لى): ماذا قلت له ؟ أجبتها بأنى قد بادلته التحية الإسلامية .. قالت : وهل تعرفه ؟

قلت : لا .. قالت : وكيف تحيى شخصا لا تعرفه ؟

قلت : هذا هو الإسلام.

قالت : هل الإسلام يسمح لكم بالتحدث مع أى شخص تلقونه فى الطريق؟

قلت : بل الإسلام يقرب بين كل مسلم ومسلم .. إنه دين المساواة.

قالت : وهل أصبح الإسلام كالشيوعية؟

قلت : بل لعل الشيوعية عندكم قد تستطيع أن ترتقى وتصفو لكى تصبح كالإسلام..!

قالت: هل تعنى أن الإسلام جاء قبل الشيوعية ..؟

قلت ضاحكا :

- المؤكد يا (لى) أن الشيوعية لم تأت قبل الإسلام..

* ومضت (لى) تسألنى عن الإسلام .. ما هو؟

وما تعاليمه .. ومن رسوله ؟

ما كتابه ؟ ما نصوصه ؟ ما قصته ؟

وحاولت أن أجيب عن أسئلتها وبالتفصيل ، واستطيع أن أعترف أن «لى» كانت تستمع إلى حديثى بشغف واهمام - إن الحادها الظاهرى لم يمنعها من أن تحاول البحث عن الحقيقة فى دين سماوى .

كانت اشبه بالمستسلم إلى حالة لا يرى ما يمنعه من الثورة عليها إذا وجد هو خير له منها .

بل لعل «لى» قد حفظت عبارة «سلام عليكم» وأصبحت ترددها كتحيتها لى كلما التقينا فى الصباح أو فى المساء.

* * *

والسؤال الصعب بالنسبة للمسئولين فى الصين هو :

كم عدد المسلمين - فى هذه الدولة العظمى- بالرغم من تواضع حكامها الذين يصرون على أنهم دولة نامية.!!!؟

نعم : كم عدد المسلمين ؟

إن التقارير الرسمية تقول بأن المسلمين موزعون بين عشر قوميات هى :

"هوى"، "ايجور"، "قازاق"، "أوزبك"، "قرعيز"، "تتار"، "طاجيك"، "سالا"، "تشاينغ"، "باوان".

ولكن من يقول إن الإسلام كان دين قوميات فقط.

إن الهداية الإلهية -لاتعرف اللون أو الجنس أو الطبقة والنور حين يشع لا يتوقف ضوؤه على جهة دون جهة.

والسؤال : مرة ثانية : كم عدد المسلمين فى الصين؟

ثلاثة عشر مليونا أم عشرون مليونا ، أم سبعون مليونا، أم مائة من الملايين..؟

كلها أرقام تردد.. فالرقم الرسمى يقول :

إن عدد المسلمين هو ثلاثة عشر مليونا فقط.. بينما تقرر مصادر أخرى بأن عددهم يتجاوز أكثر من سبعين مليونا. إن لم يكن مائة مليون.

* * *

فى حديث نشرته جريدة "الأهرام" على لسان محررها الشيخ عبد السلام العسكرى مع أحد مبعوثى الصين إلى الأزهر دار هذا الحوار :

ما عدد المسلمين فى الصين ؟-أى فى عام ١٩٣٧م.

وما عدد غيرهم من الطوائف الأخرى ؟

وهل هناك تنافس دينى بين المسلمين وغيرهم من تلك الطوائف ولأى سبب يرجع ذلك التنافس، إذا كان موجودا؟

قال :

أما عدد المسلمين فى الصيني فخمسون مليونا، وعدد السكان أربعمائة مليون، والمذاهب الدينية فى الصين متعددة كالكونفوشيسية فالبوذية، فالمسيحية، ومع ذلك أكثر أهل الصين لادين لهم وهم يعبدون أشياء متعددة ، كالجمال

والنور والنار وبعضهم يعبد الماشية والدواب، وهناك مذهب دينى قليل الانتشار يسمى "التوصينية" نسبة إلى رجل يقال له "لوتزا" وأصحابه هم المتصوفة المتقشفون الزاهدون الذين لا يتزوجون طوال أيام حياتهم، ولا ينظرون إلى المرأة ولا يتصلون بها أى اتصال وانى أقرر لك أن بين المسلمين وبين أفراد الطوائف الأخرى تنافسا دينيا بعيد المدى شديد الأثر وذلك لأن طوائف غير المسلمين متعصبون ضدنا كثيرا. ويرجع السبب فى أغلب المعارك الدموية الداخلية إلى ذلك التعصب الدينى ولكن الأديان فى الصين أمام القانون سواء وحرية المعتقدات مكفولة والحكومة لا تناصر طائفة على طائفة أو تؤازر مذهبا دون مذهب فهى لا دينية ولا تتبع خطط دين معين.

قلنا: وهل يوجد بين الموظفين فى الحكومة أفراد مسلمون وما هو عددهم؟

قال : نعم يوجد بين الموظفين فى الحكومة أفراد مسلمون ، منهم خمسة قواد فى الجيش ومحافظ لاحدى عواصم المقاطعات، وبعضهم يشغل وظائف فى المجالس البلدية والمحلية وبعضهم فى وظائف التدريس وهناك مسلمون كثيرون فى الجيش كجنود لأنهم مشهورون بالشجاعة والإقدام وأما فى الوظائف الملكية المدنية فعددهم قليل جدا.

قلنا : أليس هناك قانون عام للتجنيد، وكيف تكون أكثرية الجنود من المسلمين مع أن القانون عام ينفذ على الجميع ؟

قال: المسألة نسبية. والقانون حقيقة عام ولكن عدد المسلمين فى بعض المقاطعات الصينية أكثر من عدد أية طائفة من الطوائف الأخرى لأنى إذا قلت لك أن عدد المسلمين فى الصين خمسون مليونا لوجب أن يكون عدد كل طائفة من بقية الطوائف الأخرى أقل من ذلك بكثير من خمسين دينا ومذهبا[1].

(١) حاضر العالم الإسلامى جـ٢، ص٢٦٥.

وفى حديث آخر أجرته هذه الصحيفة كان هذا الحوار :

اسمى (بوای ون كين) وترجمته بالعربية "سعيد الياس" وصناعتى عالم إسلامى وإمام بلدى (تنسين) ومحرر جريدة "تنسين" وقد سافرت من بلدى منذ عام وغايتى من هذه السياحة الإطلاع على أحوال الأقطار الإسلامية والاستنارة بالأفكار الجديدة الموجودة فى الشرق الأوسط والشرق الأدنى فزرت بلاد الهند وها أنا فى مصر وسأزور سوريا والأناضول والاستانة ثم أعود إلى وطنى.

قلنا : ماعدد المسلمين فى بلادكم وما حالة تعليمهم وشئونهم الاجتماعية ؟

أجاب : يبلغ عدد المسلمين فى الصين نحو سبعين مليونا وكلهم يقومون بواجباتهم الدينية، وفى بلدى نحو أربعين مسجدا ومعظمهم يقرأون الكتب العربية بنطق صينى ماعدا العلماء الذين يتعلمون العربية منذ الصغر، ويؤدون الصلاة باللغة العربية. وتعدد الزوجات وإن يكن مباحا بالشرع فى الدين الإسلامى إلا أنه مفقود من عاداتنا فلكل رجل امرأة واحدة بحكم عاداتنا والطلاق نادر جدا ويكاد يكون معدوما.

وقد درست فى صغرى وشبابى الفقه والحديث والسنة وعلوم الكلام والتصوف، والتوحيد واللغة العربية.

* * *

ولتوضيح هذه الصورة ننقل هنا ما نشرته مجلة الهلال فى عددها الصادر فى أبريل ١٩٣٩م عن (العرب والإسلام فى العصر الحديث) تقول المجلة:

(.. الإسلام فى الصين قوة يعتد بها وله شأن عظيم ويبلغ عدد المسلمين

(١) بالإشارة إلى الصورة الموجودة فى المجلة.

حسب آخر إحصاء نحو ٥٠ مليونا ينتشرون فى المقاطعات الشمالية وفى ربوع الصين من الجمعيات الدينية التى تسعى إلى نشر الثقافة الإسلامية عشرات ومن المدارس الابتدائية الإسلامية هناك مئات وترى فى أعلى الصورة (١)- كلية ومدرسة إسلامية فى مقاطعة يونان وفى الزاوية العليا صورة الجنرال المسلم "عمر باى جونغ سى" الذى يتولى رياسة أركان حرب القوات الصينية والرئيس الأعلى للاتحاد الإسلامى العام وأقوى شخصية فى الصين بعد المارشال "شانغ كاى شيك"..).

وقد أسس الجنرال عمر مدرسة حربية قصر دخولها على الشبان المسلمين ويبلغ عدد طلابها الآن نحو ١٣٠٠ ألف وثلاثمائة طالب وقد اتصلت جمعية الثقافة هناك بوزارة المعارف فى مصر وبمدرسة دار العلوم ويشرف على هذه الجمعية الأستاذ نور محمد يوسين الذى زار مصر لمناسبة عيد الزفاف الملكى وأكرم جلالة الملك فاروق وقادته وأحسنت جمعية الشبان المسلمين مثواه..!

وقد تأسست فى مقاطعة (شين نان) عام ١٩٢٧ مدرسة جيندا للمعلمين ويشرف عليها السيد عبد الرحيم ماسونغ تين الذى زار مصر عام ١٩٢٨م وعام ١٩٣٦م وعرض على مسامع المغفور له الملك فؤاد الأول حالة مسلمى الصين فتفضل رحمه الله باهدائه مجموعة قيمة من المطبوعات العربية كانت أساس "مكتبة فؤاد الأول بالصين"(١).

وإذا كان المجال لا يمكننا من الاستطراد التاريخى فنكتفى بالإشارة هنا إلى مبادرة الدكتور(٢) "صن يات صن" رئيس أول جمهورية صينية عام ١٩١٣م

---

(١) العدد الممتاز من مجلة الهلال الصادر فى شهر ابريل ١٩٣٩م.

(٢) من كتاب "التلوث الفكرى - حسن التل- ص ٣١١-٣١٢ طبعة عمان- الأردن.

عندما اعتبر المسلمين أحد العناصر الخمسة التى تقوم عليها البلاد وأعطاهم حرية الاعتقاد وحفظ لهم حقوقهم المدنية، ومن البديهى ألا يأتى هذا الاعتراف من فراغ بل جاء مكافأة لهم على موقفهم من الثورة والثمن الذى دفعوه بسبب هذا الموقف.

ولقد واصل المسلمون الصينيون دورهم الإيجابى فى صراع الصين مع الاستعمار الغربى والقوى المضادة للثورة وقام تعاون وثيق بينهم وبين ماوتسى تونج الذى قال : من المستحيل علينا أن نحقق رسالتنا ومهمتنا إذا لم نكسب المسلمين إلى جانبنا ونضمهم إلى جيشنا !.

ويؤكد خط سير الجيش الأحمر الذي انطلق من الجنوب واستقر فى الشمال الغربى وسط تجمعات المسلمين أهمية الدور الذى قام به المسلمون فى الثورة فوعد ماوتسى تونج المسلمين بإقامة حكومة إسلامية مستقلة ذاتيا والغاء الديون والفوائد القديمة وحماية حرية العقيدة وحماية الثقافة والتراث الإسلامى وقد حرم جيش الثورة على جنوده من غير المسلمين أربعة أمور تحريما قاطعا:

(١) التزام المحاربين بعدم دخول المساجد.

(٢) عدم أكل لحم الخنزير أو نطق كلمة خنزير أمام المسلمين!.

(٣) عدم دخول أى بيت من بيوت المسلمين بغير استئذان فلا ينظر إلى النساء ولا تنهك حرمتهن بأى صورة.

(٤) عدم جمع تبرعات أو مصادرة ممتلكات المسلمين.

* * *

---

(١) تأليف على الجرجاوى – القاهرة، ١٩٠٦م.

ومن أعجب العجب أن تقع عيناى – مصادفة– على هذا النص العجيب فى كتاب "الرحلة اليابانية" الذى كتب منذ حوالى تسعين عاما وفيه يقول المؤلف:

(.. ومن الأسف الشديد الذى لا أسف بعده أن نحو الخمسين مليونا من المسلمين فى الصين لا يوجد علماء من الطبقة العالية ينفرونهم عن الخرافات والبدع وأن من التقصير الفاحش أن العلماء من المسلمين يعلمون بمثل هذه الأحوال ولا يؤلفون الوفود منهم للذهاب إلى الصين وبث العقائد الصحيحة الدينيةهناك)(١).

وفى ضوء هذه الأرقام يمكن أن نقرر أنه لا يمكن الاتفاق بين مختلف الأطراف على تزوير عدد المسلمين فى الصين –ومن الصينين أنفسهم وأن تنشر هذه الأرقام دون التعليق عليها من أى مسئول فى حكومة (صن يات صن). أو (شيانج كاى شيك).

ثم إن الأرقام (الرسمية) لا تتفق مطلقا مع حجم الولايات الإسلامية فى الشمال الغربى للصين.

فمساحة ولاية (ستيانج) فقط تعادل مساحتها سدس مساحة الصين وكان فيها –كما قيل– ١٢٫٠٠٠ اثنا عشر ألف مسجد.. وتكمن فى باطنها أهم ثروات الصين الطبيعية وتمتد حدودها– إلى مسافات بعيدة مع حدود روسيا. وآسيا الوسطى.

وفى ولاية (كانصو) وعلى بعد حوالى أربعين ميلا من عاصمتها "لانشو" توجد منطقة كاملة أطلق عليها اسم (مكة المكرمة) لكثرة ما فيها من مساجد ومعاهد.

وليس من المقبول – ولو شكلا– أن يكون للمسلمين فى تاريخ الصين هذه

المكانة، وهذا التأثير حيث يصبح منهم وزراء وقواد للجيش، وحكام ولايات. ومنذ أيام الامبراطورية إلى قيام الجمهورية على يد (صن يات صن) إلى حكم (الثورة) على يد (ماوتسى تونج) وأن تكون نسبتهم بالنسبة إلى عدد السكان ما يزيد قليلا عن الواحد فى المائة.!

لقد ذكر بعض المؤرخين الصينيين[١] :

أنه كان للمسلمين الصينيين - فيما مضى ٤٠ر٠٠٠ أربعون ألف مسجد كانت تقام فيها صلاة الجمعة، كما كان ملحقا - بكل مسجد مدرسة لتعليم الدين واللغة العربية !.

ومثل هذا العدد من المساجد والمدارس لا يوجد إلا فى الدول ذات الغالبية المسلمة.

ومن المنطق أيضا. ألا تأخذ هذه الأرقام مسلمة كلها - نظرا لعدم وجود احصائيات وثيقة تصنف الناس حسب دينهم ومعتقداتهم.

ولكن من المنطق أيضا. أن تقرر أن تحديد عدد المسلمين فى الصين بـ ١٣ (ثلاثة عشر مليونا)- كما تقول الدوائر الرسمية - غير مقبول ولا منطقى أيضا. فليس من المعقول أن تكون إحصائيات المسلمين فى الصين قبل الثورة تتراوح بين الخمسين والسبعين مليونا . ثم تهبط التقارير الرسمية بهذا العدد إلى مايزيد على العشر.

والرقم الأقرب إلى الحقيقة أن عدد المسلمين فى الصين يتراوح مابين مائة وعشرين مليونا.. ومائة وخمسين مليونا.

* * *

---

(١) تقويم البلاد الإسلامية - المؤتمر الإسلامى - كراتشى ١٩٦٥م

الفهرس

الموضوعات	صفحة
كلمة الناشر .	٥
من القرية إلى مصر أم الدنيا .	١١
مصر هى أم الدنيا .	١٩
فى أفريقيا المعذبة من المحيط الهندى إلى المحيط الأطلسى.	٨٩
فى الهند أو بلاد العجب .	١٥٤
باكستان زندة باد.	١٩٣
سرى لانكا أو الحديقة العائمة فوق مياه المحيط الهندى.	٢١٣
ذكر جبل سرنديب.	٢٢٤
فى ماليزيا وأندونسيا أو بلاد شركة الأولياء التسعة.	٢٤٣
فى استراليا أو بلاد الكنجرو الأسود.	٢٨٧
فى الصين من سنجيانج إلى نهر اللؤلؤ !	٣١٥
الفهرس.	٣٤٧

